
حبر أزرق
رواية من عالم دَيْمار
تحسورة

حبر أزرق

رواية من عالم دَيْمار

قسورة

حبر أزرق

رواية من عالم دَيْمار

© قسورة، 2026. جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز نسخ هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو نشره، أو نقله بأي وسيلة، إلا بإذن مكتوب من المؤلف، ما عدا الاقتباسات القصيرة في المراجعات والدراسات.

هذه رواية خيالية. وكل ما فيها من أسماء وأماكن وأمم وأحداث من صنع المؤلف، وأي شبه بأشخاص أو وقائع حقيقية محض مصادفة.

الطبعة الأولى، 2026.

الفهرس

الجزء الأول: البئر	5
1. ليلة البئر	5
2. الدم في الخيمة	20
3. القفّازان	33
4. الغريبة ذات القفّازين	45
5. ما بقي في القماش	59
6. أخي	72
7. أول الحرب	88
8. الرسالة	103
الجزء الثاني: الخلاء	117
9. الطريق	117
10. بحر الزجاج	131
11. صوت تحت الرمل	145
12. قلمير	157

13. المستنطق الذي ينسى 172
14. الإمبراطورة 186
15. صومعة الحافة 199
16. الحبر 213
الجزء الثالث: المكتبة 224
17. العودة 224
18. خردش 236
19. إلسوم 247
20. أبي 257
21. البحر 267
22. قبو الملح 276
23. بئر العهود 287
24. الوجه 299
أسماء وأماكن 311

الجزء الأول: البئر

1. ليلة البئر

كان الحبل أقصر مما ينبغي.

رأت قيلة ذلك قبل أن يراه غيرها. وقفت على حافة بئر العهود والشمس تميل إلى الغروب، والدلو الجلدي الكبير يصعد من الظلمة صعودًا بطيئًا، والرجال الأربعة يشدون ويعدّون بأصوات خفيضة. ثم رأت العقدة الحمراء التي تُربط في الحبل عند منتصفه تمرّ أمام عينيها، ولم يخرج الدلو بعد. وفي العام الماضي خرج الدلو والعقدة في يد الرجل الثالث. وفي العام الذي قبله خرج والعقدة في يد الأول.

الماء ينزل، والحبل يطول، والقبائل تأتي كل عام كأن شيئًا لم يتغير.

وضع الرجال الدلو على الحجر، وانحنى أحدهم فشرب بكفه، ثم رفع رأسه إليها كأنه يستأذن. لم يكن الماء صافيًا. كان فيه طعم القعر، طعم الطين القديم الذي لم يكن أحد يذوقه أيام كانت البئر ملأى. هزت رأسها: اشربوا. ثم استدارت ومشت قبل أن ترى في عيونهم السؤال نفسه الذي كان في عينها.

حول البئر سهل من الحصى الأسود، يمتد إلى الأفق في كل جهة إلا جهة الجنوب، حيث يبدأ الرمل أبيض كالملح، أو هو الملح نفسه، فلا يدري الناظر من بعيد. وعلى هذا السهل، مرة في كل عام، تُضرب الخيام.

كانت قيلة تعرف ترتيبها كما تعرف أصابع يدها. إحدى وعشرون حلقة من الخيام، لكل قبيلة حلقتها، تدور كلها حول البئر على مسافة واحدة، لا تقترب قبيلة أكثر من أختها. هكذا جرى العرف منذ اجتمع الأجداد هنا أول مرة. خيام بني قيظ من الشعر الأسود الثقيل، وعلى أبوابها جلود الماعز المصبوغة بالحمرة. وخيام أهل الشعاب واطئة رمادية كالحصى. وخيام أهل الأطراف مرقّعة، ومنها ما لا يُرى فيه إلا العمود والحبل والسماء.

وفي هذا العام كانت الحلقات أكثر اقترابًا بعضها من بعض. لم يكن ذلك في العرف، لكن ثلث المسافة بين الحلقات صار فارغًا، فقد جاءت القبائل بأقل من نصف رجالها. منهم من مات، ومنهم من بقي ليحرس ما تبقى من ماء في أرضه، ومنهم من لم يأت أصلًا ولن يأتي.

مشت قيلة بين الحلقات والضوء يذوب. كانت تلبس العباءة الرمادية، وعلى معصمها الأيسر حبل ملفوف ثلاث لفات، خشن، قديم اللون، وعلى ظهرها القوس. والناس يرونها فيسكتون حين تمر، ثم يعودون إلى الكلام بعد أن تبتعد. اعتادت ذلك. لم يكن خوفًا. كان شيئًا أقرب إلى الحرج، كأن الناس لا يعرفون ماذا يقولون لامرأة تحرس رجالهم.

«قيلة!»

التفتت. كان هُفَيْر، أكبر فرسانها سنًّا، يقود جمله نحوها وقد غطى الغبار لحيته حتى صارت بلون الحصى.

«أهل الشعاب يريدون أن يضربوا خيمة سابعة خارج حلقتهم.»

«لماذا؟»

«يقولون إن عندهم ضيفًا.»

«من؟»

مسح هفير فمه بظهر يده، ونظر حوله، ثم قال بصوت أخفض: «رجل من القنوات.»

لم تحتج أن تسأل أي قنوات. لم يكن في دَيْمار يومئذ إلا قنوات واحدة يتكلم عنها الناس بهذا الصوت.

«هل جاء يحمل حبلًا؟»

«لا.»

«إذن لا يدخل الحلقات. يضرب خيمته خارج السهل، مع الجمال.»

«سيغضبون.»

«العرف لا يغضب.»

ابتسم هفير ابتسامة صغيرة لم ترها إلا في عينيه، ثم دار بجمله ومضى. كانت تعرف ما يعنيه بابتسامته. يقول الفرسان إن قيلة بنت نوقار لا تستشهد بالميثاق أبدًا، بل بالعرف. ويقولون إنها تفعل ذلك لأن الميثاق صار في هذه السنين يُستعمل سيفًا، وأما العرف فما زال حبلًا. ولم تقل هي ذلك قط. لكنها لم تنكره.

حين غابت الشمس أُوقدت النيران، واحدة في وسط كل حلقة، وصار السهل كله كأنه سماء مقلوبة.

قامت قيلة على الربوة الصغيرة شمال البئر، حيث يقف فرسان البئر في هذه الليلة منذ ألف ومئة وسبع وثمانين سنة. كان معها ثلاثون فارسًا من ثلاثمئة، وقد وزّعتهم على الجهات كما وزّعهم من قبلها. والبقية كانوا على الطرق، يحرسون الآبار الصغيرة التي لم تجف بعد، وأكثر من ذلك يحرسون الناس بعضهم من بعض.

ومن هنا كانت ترى كل شيء. رأت خيمة الحفظة البيضاء، المضروبة وحدها قرب الحجر المنقوش، لا تنتسب إلى حلقة، كما جرى العرف أيضًا. إنهم يأتون من إلسوم في كل عام، ثلاثة أو أربعة، يشهدون ولا يتكلمون، ثم يرجعون. ورأت خيمة كبير القبائل، أوسع الخيام وأعلاها، في حلقة بني قيظ ، يخرج منها الضوء من شقوق كثيرة، وأمامها رجلان من بني قيظ جالسان بالرماح.

وفيها رجل يقرر غدًا مصير الناس.

هذا ما كان الجميع يقوله منذ ثلاثة أيام. غدًا يقوم ظميان بن خردش عند الحجر، ويعلن موقفه. هل ينضم كبير القبائل إلى الذين يرفضون ماء القنوات ويسمونه الماء المسروق؟ أم يقبل ما قبله سبع من القبائل، فيصير ماء قلمير ماء سُرْدان كلها؟ أم يقول شيئًا ثالثًا لا يتوقعه أحد؟

ولم يكن أحد يتوقع شيئًا ثالثًا. فظميان رجل الآبار. قبيلته تملك آبار الشعاب الثلاثة، وأكثر من ذلك. وهو الذي قال منذ ثلاث سنين في هذا السهل نفسه، وقيلة تسمع: «من شرب من ماء الملوك نسي ربه». وصفّق له نصف الناس، وسكت النصف الآخر لأنهم كانوا عطاشًا.

قيلة لم تصفق، ولم تسكت. كانت تحرس.

جاءها الرسول بعد منتصف الليل بقليل. فتى من بني قيظ، نحيف، في عينه اليسرى بياض، يلهث كأنه ركض من آخر السهل.

«كبير القبائل يطلبك.»

نظرت إلى الخيمة الكبيرة. ما زال الضوء يخرج من شقوقها.

«الآن؟»

«الآن.»

نزلت عن الربوة، وأشارت إلى هفير أن يأخذ مكانها. ومشت خلف الفتى بين النيران الخافتة والخيام النائمة، ورائحة الدخان والجمال واللبن الحامض تملأ الهواء. وحين وصلت إلى باب الخيمة قام الرجلان بالرماح، ثم عرفاها فجلسا. ورفع أحدهما الستر.

كان ظميان وحده. جالسًا على الأرض، على بساط أحمر قديم، وبين يديه لوح خشب عليه رقّ، وإلى جانبه قنديل ودواة. كان يكتب. ولم يرفع رأسه حين دخلت، بل قال: «اجلسي يا بنت نوقار.»

جلست حيث أشار، على مسافة منه، على طرف البساط.

لم تكن قد رأته من قرب منذ سنين. كان في الرابعة والستين، أو الخامسة، طويل الوجه، أبيض اللحية، في حاجبيه شيب، وعلى يديه عروق زرق. وكانت تذكره رجلًا يملأ أي مجلس بصوته، فوجدته الليلة صامتًا. يكتب ببطء، ويقف عند كل سطر، ويحرك شفتيه كأنه يقرأ ما كتب.

ثم وضع القلم.

«أتعرفين لماذا دعوتك؟»

«لا.»

«ولا تخمّنين؟»

«الفرسان لا يخمّنون.»

ضحك ضحكة قصيرة، وفي ضحكه سعال. «أبوك كان يقول مثل هذا. "آل نوقار لا يخمّنون، يا ظميان. آل نوقار ينتظرون." وكان ينتظر طول عمره، رحمه البارئ، حتى مات وهو ينتظر.»

لم تقل شيئًا.

«أغضبتك؟»

«لا.»

«كذبت.» قالها بلا قسوة، ثم رفع اللوح ووضعه على فخذه وقلب الرق حتى لا ترى ما فيه. «سأسألك سؤالًا يا قيلة، وأريد جوابه كما هو. لا جواب الفرسان.»

«سل.»

«إذا قمتُ غدًا عند الحجر، وقلت كلامًا يغضب الجميع، كل الجميع، بني قيظ قبل غيرهم، هل يحميني فرسانك؟»

نظرت إليه طويلًا. كانت تسمع خارج الخيمة صوت جمل يجتر، وصوت الريح في الحبال، ولا شيء غير ذلك.

«الفرسان يحمون البئر،» قالت، «لا الرجال.»

«هذا جواب الفرسان.»

«وهو جوابي.»

«لا،» قال، وانحنى قليلًا إلى الأمام. «جوابك أنتِ: لو كنتِ تعرفين أن ما أقوله غدًا حق، هل كنتِ تقفين أمامي إذا جاءني رجال قبيلتي بالرماح؟»

«ما الذي ستقوله؟»

ابتسم، ولم يجب.

وظلا كذلك لحظة. ثم قالت، وهي لا تعرف لماذا قالتها: «لو كان حقًّا، لوقفت.»

«حتى أمام أخيك؟»

لم تتوقع ذلك. وشعرت بحرارة تصعد إلى وجهها، فسرّها أن ضوء القنديل خافت.

«أخي ليس في هذا.»

«أخوك في كل هذا.» قالها بهدوء. «أخوك أول من شرب من القنوات أمام الناس. أخوك يقول في المجالس إن ظميان بن خردش يبيع الماء لأطفال سُرْدان بالذهب. وهو صادق.»

صمتت.

«أدهشتك؟»

«لم أظن أنك تقولها.»

«أنا لا أقولها. أنا أكتبها.» وضرب الرق بإصبعه. «القول يذهب في الريح، والكتابة يبقى أثرها. هذا ما يقوله الحفظة، أليس كذلك؟ أن كل شيء يبقى أثره؟» ثم نظر إلى يده كأنه يراها أول مرة. «أرجو أن يكونوا صادقين.»

ثم مد يده إلى الدواة وأغلقها، وكان الحبر فيها أسود كحبر أهل الخلاء، من صمغ وسخام، وفي القعر رائحة الدخان.

«اذهبي الآن. وأحسني الحراسة الليلة يا بنت نوقار.»

«هل تخاف أحدًا؟»

«أنا كبير القبائل،» قال، «فأنا أخاف الجميع.»

خرجت. وكان الفتى ذو البياض في عينه قد نام عند الباب، رأسه على ركبتيه. والرجلان بالرماح ينظران إلى النار، ولم ينظرا إليها.

ورجعت إلى الربوة، وأخذت مكانها من هفير. سألها بعينيه، فلم تجب. فمضى إلى جهته.

ثم قعدت على الحجر البارد، والقوس على فخذيها، وظلت تنظر إلى الخيمة الكبيرة.

لم تفهم ما جرى. لكنها كانت تعرف أنه شيء. فظميان لم يدعها ليسألها سؤالًا عن الحراسة. كان يمكن أن يرسل ذلك مع الفتى. دعاها لتسمع، ولتنظر في وجهه وهو يقول: أخوك صادق. أراد شاهدًا. لكن على ماذا؟

وشعرت، وهي تفكر في هذا، بشيء قديم يتحرك فيها، فأوقفته قبل أن يبلغ صدرها.

لم تكن تحب أن تفكر في فاقد في هذه الليلة. ولا في البيت. ولا في الطريق بين بئرين، وعلى جانبه ثلاثة قبور صغيرة وقبر كبير، لم تحضر هي حفر واحد منها.

ونظرت إلى السماء بدل ذلك.

كانت النجوم في هذه الليالي من السنة كثيرة كالرمل، وكان نهر السماء يمتد من الشمال إلى الجنوب كأنه طريق أبيض. وكانت جدتها تسميه «طريق الحبل»، وتقول إن الأجداد حين عقدوا الميثاق رأوه فوقهم يومئذ، فربطوا الحبل الأول على هيئته، من البئر إلى الحجر. وكانت تقول أشياء كثيرة لا يعرف أحد أكانت حقًّا أم

لا. ثم ماتت، وتركت لحفيدتها شيئين: هذا الحبل الذي على معصمها، وعينًا ترى أحيانًا ما لا ينبغي أن يُرى.

ولم تكن قيلة تحب العين، ولا تستعملها.

لا تدري كم مضى. ساعتان، أو أقل. خفتت النيران حتى صارت جمرًا، وسكتت الكلاب، وبرد الهواء بردًا يجعل الأصابع بطيئة.

ومرة واحدة في ذلك الوقت رأت ظميان. كان يمشي من جهة الحجر المنقوش، وحده، بلا قنديل، طويلًا كما هو، وعباءته على كتفيه. ومر بين الحارسين، فتنحيا له، ودخل. وتعجبت قليلًا، لأنها لم تره يخرج. ثم قالت لنفسها: الشيوخ يخرجون في الليل لما لا يُسأل عنه. ورفعت عينيها إلى الطريق الأبيض في السماء، ثم أنزلتهما.

ثم رأت الستر يرتفع.

كانت عيناها على الخيمة الكبيرة طول الوقت، فلم يفتها ذلك. ارتفع الستر، ولم يكن الرجلان بالرماح أمامه. لم تنتبه متى ذهبا. وخرج من الخيمة رجل.

لم يكن ظميان. كان أقصر، وأنحف، ويمشي مشية لا تشبه مشية أهل الخلاء. يلبس عباءة قاتمة لا تعرف لونها في الظلمة، وقد غطى رأسه ووجهه. وكان أحد كتفيه أعلى من الآخر قليلًا، كمن حمل على جنب واحد زمنًا طويلًا. خرج، ووقف لحظة، ثم أرسل الستر خلفه برفق، كما يرسله من يخاف أن يوقظ نائمًا.

وقامت قيلة.

لم تكن قد قررت أن تقوم. وجدت نفسها واقفة والقوس في يدها، والسهم بين أصابعها، ولم تشده. فالعرف يقول: لا يُرفع سلاح حول البئر في هذه الليلة. لا قبيلة على قبيلة، ولا فارس على أحد. ومن رفعه فقد نقض شيئًا عمره ألف سنة.

ومشى الرجل بين الخيام. لم يسرع، ولم يلتفت. وحين مر بين حلقة بني قيظ وحلقة أهل الشعاب، مر قرب جمر نار لم تمت بعد، وكان في يده اليسرى شيء يحمله، فرفعها قليلًا كأنه يحمي ما فيها من الريح.

وفي ضوء الجمر رأت قيلة يده.

كانت الأصابع زرقاء.

ليست زرقة البرد، ولا زرقة الموت. زرقة حبر. ذلك الأزرق العميق الذي لا يكون إلا في مكان واحد في دَيْمار، والذي رأته في كل عام على أصابع الرجال الصامتين في البياض الذين يأتون من إلسوم ليشهدوا. حبر الحفظة. يقولون إنه يُصنع من نيلة الدلتا وملحها، ويعلق بالأصابع أيامًا، ولا يكتب به أحد غيرهم.

ثم ذهب الضوء، وذهب الرجل معه، في الظلمة بين الخيام. إلى الجنوب. إلى حيث الحجر المنقوش، والخيمة البيضاء وحدها قرب الحجر.

وقفت قيلة على الربوة، والسهم بين أصابعها.

كان يمكن أن تصرخ. صرخة واحدة، فيقوم ثلاثون فارسًا، ويقوم بنو قيظ، ويقوم السهل كله. وكان يمكن أن تنزل وتلحق به، فهي أسرع منه، وتعرف الأرض.

لكنها لم تفعل.

قالت لنفسها بعد ذلك، في ليال كثيرة، إنها لم تفعل لأن رفع الصوت في هذه الليلة نقض للعرف. وقالت لنفسها إنها لم تفعل لأن الحفظة يدخلون على كبير القبائل كل عام، يحملون له رسائل مجلسهم، ولا غرابة أن يخرج أحدهم من عنده.

وقالت لنفسها إنها لم تفعل لأنها لم تر شيئًا تقوله: رجل خرج من خيمة. ولو صرخت كلما خرج رجل من خيمة لما نام أحد.

وكان ذلك كله صحيحًا. لكنه لم يكن السبب.

السبب كان أصغر من ذلك وأشد. السبب أن ظميان قال قبل ساعتين: «إذا قلت غدًا كلامًا يغضب الجميع». وأن الحفظة جاؤوا من إلسوم، وأن الحفظة لا يحكمون ولا يقاتلون، لكنهم يملكون النسخة الأم، وما يُكتب في النسخة الأم لا يُرد. وأنها لم تعرف، وهي على الربوة في الظلمة، أي حرب تبدأ إذا صرخت، ولا أي حرب تمنع إذا سكتت.

فسكتت.

ونزلت عن الربوة، ومشت إلى خيمة كبير القبائل. ليس بسرعة. بخطى من يتفقد الحراسة.

ولم تجد الرجلين بالرماح. وجدت الفتى ذا البياض في عينه نائمًا عند الباب، كما تركته. والستر مسدول. والضوء في الداخل قد انطفأ.

وقفت عند الباب. وقالت بصوت لا يكاد يُسمع: «يا كبير القبائل.»

لا شيء.

قالتها مرة أخرى، أعلى قليلًا.

ولا شيء. إلا صوت نفس الفتى النائم، وصوت الريح في حبال الخيمة.

نام، قالت لنفسها. الرجل في الرابعة والستين، وقد كتب حتى منتصف الليل، وغدًا يقف أمام الإحدى والعشرين. نام.

ومدت يدها إلى الستر.

ثم أرجعتها.

لا يدخل أحد خيمة كبير القبائل بلا إذن. هذا أيضًا عرف. ولم تكن قيلة بنت نوقار، في تلك الليلة، تملك شيئًا غير العرف.

رجعت إلى الربوة، وجلست، وظلت تنظر إلى الخيمة البيضاء قرب الحجر حتى صارت السماء رمادية، ثم بيضاء، ثم صفراء من جهة الشرق.

ولم يخرج منها أحد. ولم يدخلها أحد.

جاء الصوت مع أول الشمس.

لم يكن صرخة. كان شيئًا أسوأ: صوت رجل يحاول أن يتكلم فلا يقدر، ثم ينادي اسمًا واحدًا، ثم يكرره كأنه لا يعرف غيره. ثم صوت آخر. ثم أصوات.

ركضت.

كان الفتى ذو البياض في عينه خارج الخيمة، على ركبتيه، يداه على وجهه. وكان أحد الرجلين بالرماح، وقد ظهر من حيث لا تدري، واقفًا عند الباب والستر في يده، وينظر إلى الداخل ولا يتحرك.

ونظرت قيلة من فوق كتفه.

كان ظميان بن خردش على البساط الأحمر، مستلقيًا على جنبه، كأنه نام وهو جالس فمال. واللوح الخشبي إلى جانبه. والقنديل مطفأ. والدواة مغلقة. ولم يكن هناك دم كثير. هذا ما رأته أولًا، وما ظلت تراه بعد ذلك في نومها: أنه لم يكن هناك دم كثير. خيط واحد رفيع أحمر، عند العنق، لا يكاد يُرى، كأن أحدًا رسمه بقلم.

ولم يكن الرق على اللوح.

لاحظت ذلك، ولم تقله.

ثم امتلأت الخيمة رجالًا، وامتلأ السهل كله صوتًا. ودُفعت إلى الخارج، فوقفت مع الواقفين، وفي أذنها كل شيء دفعة واحدة: النساء يولولن من حلقة بني قيظ، والرجال يصرخون بأسماء القبائل، وأحدهم يقول «القنوات»، وآخر يقول «الشعاب»، وآخر يقول «الضيف، أين الضيف الذي جاء من القنوات؟»، وجمل ينوح، والريح.

ثم سكت كل شيء.

كان السكوت قد بدأ من جهة الشمال، من حيث تأتي الطريق، وانتشر في السهل كما ينتشر الماء في الرمل. والتفتت قيلة.

وكان خردش بن ظميان يأتي.

جاء على فرس، لا على جمل، وكان ذلك وحده يكفي ليعرف الناس أنه ركض الليل كله. فقد كان قد خرج مساء أمس إلى آبار الشعاب يتفقدها، وقال إنه يرجع قبل الإعلان. وكان الغبار عليه من رأسه إلى قدميه، وعلى الفرس زبد أبيض، وخلفه خمسة رجال لم يلحقوه.

نزل عن الفرس قبل أن تقف. ومشى بين الناس، وانشق الناس له. ولم ينظر إلى أحد.

ثم وقف عند باب الخيمة.

ولم يدخل.

ظل واقفًا، والستر مرفوع أمامه، ينظر إلى أبيه على البساط الأحمر. ولم تتحرك فيه شعرة. وكانت قيلة، من حيث وقفت، ترى وجهه من جانبه، فرأت شيئًا لم

تنسه: لم يكن في وجهه حزن. كان فيه شيء آخر، أقرب إلى الدهشة. كأن الرجل جاء ليقول لأبيه شيئًا، وأعدّه في الطريق كله، فوجده لا يسمع.

ثم استدار.

ونظر في الوجوه. وجهًا بعد وجه، كمن يعدّ. ووقفت عيناه على قيلة.

ربما لأنها كانت الوحيدة في العباءة الرمادية. وربما لأنها كانت الوحيدة التي لم تبك ولم تصرخ. وربما لأن الفرسان حراس هذه الليلة، والحارس أول من يُسأل.

قال: «من دخل عليه؟»

لم يقلها بصوت عال. لكن السهل كله سمعها.

وفتحت قيلة فمها.

كانت الكلمات هناك. كانت تعرفها، وقد رتبتها في الساعات الطويلة على الربوة دون أن تعرف أنها ترتبها: رأيت رجلًا يخرج من الخيمة بعد منتصف الليل. يده زرقاء. ذهب إلى جهة الحجر.

ورأت، في اللحظة نفسها، ما يحدث بعد الكلمات. رأت بني قيظ يمشون إلى الخيمة البيضاء بالرماح. ورأت الحفظة الصامتين يخرجون منها، لا يحملون سلاحًا، لأن الحافظ لا يحمل سلاحًا خارج إلسوم. ورأت دمهم على الحجر المنقوش، على الميثاق نفسه. ورأت إلسوم تغلق أبوابها، والنسخة الأم وراءها، ولا شاهد بعدها لأحد. ورأت الحرب، لا حربًا واحدة، بل كل الحروب، تبدأ من فمها.

ورأت شيئًا آخر، أخفى من ذلك كله. رأت نفسها على الربوة، والسهم بين أصابعها، تنظر إلى رجل يمشي في الظلمة، ولا تصرخ.

وأغلقت فمها.

«لا أعرف،» قالت.

ونظر إليها خردش بن ظميان لحظة أطول مما ينبغي. ثم أدار وجهه عنها إلى الناس، ورفع يده.

وفي ذلك الصباح، عند بئر العهود، والشمس بيضاء كالملح، بدأت الحرب.

ولم يعرف أحد غير قيلة بنت نوقار أنها بدأت مرتين: مرة حين رفع خردش يده، ومرة قبلها بساعات، على ربوة في الظلمة، حين سكتت.

2. الدم في الخيمة

رفع خردش يده، فلم يتكلم أحد.

كانت يده مفتوحة، والكف إلى السماء، والأصابع متفرقة. وعرف الكبار في السهل معنى ذلك قبل أن يفهمه الصغار. فهذه ليست يد رجل يطلب الصمت. هذه يد من يُقسم.

وخرج من بين الناس شيخ من أهل الشعاب، قصير، أحدب، في يده عصا من خشب الطلح. كان اسمه معروفًا في السهل كله، ولم يكن أحد يذكره، لأن الناس كانوا يقولون عنه «الحافظ للبنود»، كأن له اسمًا لا يحتاج غيره. وكان هو الذي يقرأ الميثاق كل عام عند الحجر، بندًا بندًا، بصوت لا يعلو ولا ينخفض. ووقف أمام خردش، ورفع عصاه قليلًا، ثم أنزلها، وقال:

«لا دم إلا بحكم، ولا ثأر بعد الميثاق.»

كان هذا البند الثاني. وكانت قيلة تعرفه كما يعرفه كل من في السهل، وكما يعرفه الأطفال قبل أن يعرفوا أسماء آبائهم. لكنها لم تسمعه قط بهذا الصوت. كان الشيخ يقوله كأنه يرجو، لا كأنه يقرأ.

ونظر إليه خردش. ثم قال، ويده ما زالت مرفوعة:

«والحكم لمن؟»

«للأمين.»

«ولا أمين منذ ألف سنة.»

«فللحجر.» وأشار الشيخ بعصاه إلى الحجر المنقوش، الواقف وحده في الجنوب، أبيض في الشمس، وإلى جانبه الخيمة البيضاء. «يجتمع الشيوخ عند الحجر، ويحكمون بما فيه.»

«والشيوخ،» قال خردش، وأدار عينيه في الحلقات، «من منهم لم يشرب من القنوات؟»

وسمعت قيلة الهمس يبدأ من حلقة أهل الشعاب، ثم يدور.

لم يكن سؤاله سؤالًا. كان يعرف الجواب، وكلهم يعرفه. سبع من القبائل الإحدى والعشرين شربت، وثلاث أخرى يقال إنها تشرب ليلًا وتنكر نهارًا. وأهل الشعاب أنفسهم، أهل هذا الشيخ، ضربوا خيمة سابعة لرجل من القنوات أمس.

«ابني خردش،» قال الشيخ بصوت أخفض، «أبوك...»

«أبي على بساطه.» وأنزل خردش يده فجأة. «وأنا لم أُقسم بعد. لكني أقسم الآن، أمامكم وأمام الحجر، ولتحمل الأرض أثر قسمي. لا أشرب ماء ولا أظل تحت سقف حتى أعرف من دخل على أبي. ومن دخل عليه، فدمه لي، وحكمه لي.»

وسكت السهل.

ثم بدأ من حلقة بني قيظ صوت واحد، صوت امرأة، ليس ولولة هذه المرة، بل شيء أقرب إلى الغناء. وتبعه صوت آخر. ثم رجال. حتى صار الصوت كله صوتًا واحدًا عاليًا يدور في السهل، والحصى الأسود يرده.

ونظرت قيلة إلى الشيخ ذي العصا، فرأته قد أطرق رأسه، وعصاه في يده كأنها صارت أثقل من أن ترفع.

بعد ذلك جرى كل شيء سريعًا، كما يجري الماء حين يجد مجرى.

قام رجال بني قيظ إلى حلقة أهل الشعاب، يطلبون الضيف الذي جاء من القنوات. وقام أهل الشعاب أمامهم. ولم يكن في أيدي أحد سلاح، فالعرف لا يزال قائمًا في هذا السهل، وإن كان قد بدأ يتصدع. لكن الأيدي كانت مقبوضة، والصدور مندفعة، وأحد الفتيان من بني قيظ دفع شيخًا من أهل الشعاب فسقط على الحصى، فصرخت امرأة.

وقبل أن يصل الصوت إلى آخره، كانت قيلة هناك.

لم تركض. لم يكن الفرسان يركضون في هذا السهل. لكنها مشت بخطى طويلة، وخلفها هفير، وخلفه عشرة من الفرسان، وكلهم في العباءات الرمادية، وعلى معاصمهم الحبال. ودخلت بين الحلقتين، ووقفت.

ولم تقل شيئًا. لم تحتج.

فالناس يعرفون ما يعني أن يقف فرسان البئر بين قبيلتين. يعني أن ما بعدهم ليس بين قبيلتين بعد الآن، بل بين قبيلة والعرف نفسه. وتوقف الفتى الذي دفع الشيخ، ونظر إلى قيلة، ثم إلى الأرض.

«الضيف،» قالت بعد لحظة، بصوت عادي، «في خيمته خارج السهل، مع الجمال. هكذا أمرت أمس، وهكذا كان.» ونظرت إلى هفير.

«هكذا كان،» قال هفير. «باتت خيمته في الشمال، وفرساننا حوله الليل كله. لم يخرج إلا مرة، ليبول، ورجع.»

«فلم يدخل السهل.»

«لم يدخل السهل.»

ونظر رجال بني قيظ بعضهم إلى بعض. ثم قال أكبرهم، وكان رجلًا عريض الوجه، أشيب الشارب، بعين واحدة: «وما يدرينا أن فرسانك لم يناموا؟»

«لا يدريك،» قالت قيلة. «إلا أنك تعرفنا.»

«كنا نعرفكم.»

لم تجب. وكان في كلامه شيء من الحق، وكانت تعرف ذلك. لكنها لم تتحرك من مكانها، وبعد لحظة، رجع الرجل ذو العين الواحدة خطوة، ورجع معه الآخرون.

ولم تشعر بالارتياح. شعرت بأن شيئًا قد أُخذ من الفرسان في تلك الخطوة، كما يؤخذ الماء من بئر بالدلو، فلا يُرى إلا حين يقصر الحبل.

دخلت خيمة كبير القبائل بعد ذلك بساعة، مع خردش، ومع الشيخ ذي العصا، ومع رجل رابع لم تتوقعه.

كان أطول من الثلاثة، أبيض العباءة، حليق الرأس إلا ضفيرة صغيرة خلف أذنه اليسرى. وكان في يديه، على أصابعه، ذلك الأزرق.

«تيلم الناسخ،» قال، وحنى رأسه. «من بعثة المجلس إلى البئر. لا أحمل سلاحًا، ولا أحكم. أشهد.»

ونظرت قيلة إلى يديه.

لم تستطع ألا تنظر. كانت الأصابع زرقاء من أطرافها إلى العقدة الثانية، والظفر الأيمن من الإبهام مكسور، والأزرق فيه أعمق. ثم رفعت عينيها إلى وجهه،

فوجدته ينظر إليها، كأنه رأى أين كانت تنظر.

«أنتم ثلاثة،» قالت.

«نحن ثلاثة.»

«وكلكم...»

«وكلنا نكتب، يا قائدة الفرسان.» ورفع يديه قليلًا، كمن يريها ما رأته. «الحبر لا يزول. هذا ما يُقال عنا في الخلاء: يُعرف الحافظ من أصابعه.»

ولم تقل شيئًا.

وكانت تعرف أن هذا لا يثبت شيئًا. الرجل الذي رأته كان أقصر من تيلم، وأنحف. لكن في الحفظة ثلاثة، وواحد منهم لم تره بعد. وفي إلسوم ألف. والأصابع الزرقاء ليست وجهًا.

لم يكن في الخيمة شيء تغير منذ الفجر. إلا أنهم رفعوا ظميان عن البساط، ووضعوه على سرير من جريد النخل في جانب الخيمة، وغطوه بعباءة.

وقف خردش أمام السرير لحظة. ولم يرفع العباءة. ثم استدار إلى الرجلين اللذين كانا على الباب بالرماح، وكانا قد أُحضرا وجلسا على ركبتيهما في وسط الخيمة، وأيديهما على الأرض.

«أين كنتما؟»

قال الأكبر منهما، وصوته يرتجف: «أمرنا أن نذهب.»

«من؟»

«كبير القبائل. نادانا من داخل الخيمة. قال: اذهبا فكلا، فقد طال جوعكما. وكان هذا قبل الفجر بساعتين، أو أقل.»

«سمعتما صوته؟»

«صوته.»

«ورأيتماه؟»

«لا. كان الستر مسدولًا. لكنه صوته. نعرفه منذ ثلاثين سنة.»

«وقبل ذلك،» قال الآخر، ولم يرفع عينيه، «رجع من جهة الحجر. وحده. مر بيننا ودخل. ولم يقل شيئًا.»

«رجع من جهة الحجر؟» قال خردش. «أبي لا يخرج في الليل.»

«رجع، يا ابن الكبير. رأيناه كما نراك.»

ونظر خردش إلى الآخر، فأومأ.

وقالت قيلة، قبل أن تقرر أن تقول: «قبل الفجر بساعتين.»

ونظروا إليها.

«دعاني كبير القبائل بعد منتصف الليل،» قالت، «وجلست عنده قليلًا. ثم رجعت إلى الربوة.» وسكتت. ثم قالت: «ورأيته يرجع من جهة الحجر. لكني لم أر الرجلين يذهبان. كنت أنظر إلى الخيمة، ولم أرهما.»

وكان هذا صحيحًا. وكان يخيفها أكثر من أي شيء آخر في هذا الصباح. فقد كانت تنظر إلى الخيمة الكبيرة كل الوقت، لم ترفع عينها عنها إلا إلى السماء، مرة أو مرتين. فكيف ذهب الرجلان ولم ترهما؟ وكيف دخل أحد، إن كان قد دخل أحد قبل الرجل ذي الأصابع الزرقاء، ولم تره؟ لم يدخل الخيمة تلك الليلة، فيما رأت، إلا ظميان نفسه.

«ماذا كان يريد منك؟» سأل خردش.

«سألني إن كان الفرسان يحمونه غدًا، إن قال كلامًا يغضب الناس.»

وسكت خردش. ثم قال: «وماذا قلتِ؟»

«قلت إن الفرسان يحمون البئر.»

ولاح في وجهه شيء، ثم ذهب. «وأي كلام كان يريد أن يقول؟»

«لم يقل.»

«ولم تسألي؟»

«سألت. ولم يجب.»

ونظر إليها خردش بن ظميان طويلًا، كما نظر إليها في الصباح. وشعرت قيلة، تحت نظره، بأن الكلمات التي لم تقلها ما زالت هناك، في فمها، تنتظر. وأن كل لحظة تمر يصير قولها أصعب، لا أسهل. فإن قالت الآن، سألها: ولماذا لم تقولي في الصباح؟

«كان يكتب،» قالت بدل ذلك. «حين دخلت عليه. كان يكتب على رق، على هذا اللوح.» وأشارت إلى اللوح الخشبي، وكان لا يزال على البساط حيث وقع. «والرق ليس هنا.»

ونظر الجميع إلى اللوح.

وانحنى تيلم الناسخ، ولم يلمسه. ثم قال: «هل رأيتِ ما كتب؟»

«قلب الرق حتى لا أرى.»

«بأي حبر؟»

ونظرت إليه. «أسود. من حبر الحلاء.»

وأومأ تيلم، كأن ذلك يعني له شيئًا. ثم استقام.

«كبير القبائل،» قال لخردش، وكانت هذه أول مرة يسمّيه بها أحد، فارتجف شيء في وجه خردش، «إن أذنت لي، فأنا أرسل إلى إلسوم الآن. للمجلس مبصرون. يلمسون ما في هذه الخيمة، فيرون ما جرى فيها. الأثر لا يكذب.»

وقبل أن يجيب خردش، قال الشيخ ذو العصا بصوت خشن: «الحفظة يشهدون، ولا يحكمون.»

«ولن نحكم. نرى، ونقول ما رأينا. والحكم للحجر.»

«ومن يضمن أن ما يقوله مبصركم هو ما رأى؟»

وكان سؤال الشيخ، ولم يكن موجهًا إلى أحد. لكن قيلة رأت تيلم ينظر إليها. لماذا إليها؟

«الفرسان يضمنون،» قالت. وسمعت صوتها بعد أن قالته، كأنه صوت امرأة أخرى. «يأتي مبصركم، ويلمس ما يلمس، وفارس من الفرسان يقف معه. وما يقول، يقوله أمام الحجر، أمام الإحدى والعشرين.»

ونظر خردش إليها، ثم إلى تيلم، ثم إلى الشيخ. ثم قال: «أربعين يومًا.»

ولم يفهم أحد.

«أربعين يومًا،» كرر. «هذا ما أعطيكم. أنتِ، يا بنت نوقار، وفرسانك، وأنت يا ناسخ، ومبصرك. تأتوني باسم من دخل على أبي. وإن لم تأتوني به في أربعين يومًا، أخذت أنا الحكم بيدي. ومن شرب من القنوات فهو عندي على ما أخذ.»

«هذا نقض للميثاق،» قال الشيخ.

«الميثاق،» قال خردش، وأشار إلى السرير، «نُقض في هذه الخيمة الليلة. أنا لم أنقضه.»

خرجوا. ووقفت قيلة عند باب الخيمة، والشمس قد ارتفعت، والحرارة تصعد من الحصى. وكان السهل قد تغير في ساعات. الحلقات التي كانت تدور حول البئر صارت حلقتين. حلقة كبيرة في الشمال، حول بني قيظ، تجمع فيها كل من سمع قسم خردش فأعجبه. وحلقة أصغر في الجنوب، بين البئر والحجر، فيها أهل الشعاب، ومن معهم، ومن لم يقرر. وبين الحلقتين أرض فارغة، والبئر في وسطها.

وفرسان البئر في الأرض الفارغة.

وقف هفير إلى جانبها. ولم يقل شيئًا مدة. ثم قال: «أربعين يومًا.»

«أربعين يومًا.»

«لن نجده.»

«ربما.»

«وإذا وجدناه، يا قيلة؟ إذا كان من قبيلة؟ أي قبيلة؟ نأتي بابن قبيلة إلى خردش فيقتله، فتقوم قبيلته؟ أم نقول لا، فيقوم خردش؟»

«لا أعرف.»

ونظر إليها هفير جانبًا. كان قد خدم مع أبيها، ومع الذي قاد الفرسان قبلها، ومع الذي قبله. وكان يعرفها منذ كانت تتعلم الرمي على جذوع النخل في الواحة. وكان يعرف، كما لا يعرف أحد غيره، متى تكذب.

«هل رأيتِ شيئًا الليلة؟»

ولم تنظر إليه.

ومن جهة الشمال، من الطريق، بدأ غبار جديد.

كان فاقد بن نوقار لا يأتي إلى شيء في وقته قط.

هكذا كان منذ صغره. يأتي إلى العشاء حين يُرفع الطعام، ويأتي إلى الصيد حين يرجع الصيادون، ويأتي إلى الجنائز حين يُهال التراب. وكانت أمهما تقول إنه وُلد متأخرًا ثلاثة أيام، فظل يمشي متأخرًا ثلاثة أيام طول عمره. ثم ماتت أمهما في الطريق بين بئرين، فجاء متأخرًا عن ذلك أيضًا.

جاء الآن على جمل ملحي أبيض، وخلفه عشرون من قبيلته، وخلفهم، على مسافة، ستة رجال على خيل قلميرية طويلة السيقان، وعليهم دروع مصقولة تلمع في الشمس حتى يؤذي لمعانها العين.

ووقف السهل كله ينظر.

لم يدخل فاقد السهل. عرف العرف، أو عرف أخته. أوقف جمله على حافة الحصى، وأوقف رجاله خلفه، ورفع يده فوقف القلميريون الستة أبعد. ثم نزل، ومشى وحده.

ورأته قيلة يقترب. كان أنحف مما تذكر. وفي وجهه شيء لم يكن فيه. لم تعرف ما هو. شيء في الفم، في طريقة إطباق الشفتين. ولم يكن على معصمه حبل.

ووقف أمام الحلقة الكبيرة في الشمال. وخرج إليه خردش.

ولم يتكلم أحد منهما.

ثم قال فاقد، بصوت سمعه القريبون، ولم يسمعه البعيدون: «البارئ يرحمه.»

«لا تذكره.»

«كان كبير القبائل. وكان...» وسكت فاقد. ثم قال: «كنا نختلف، لكنه كان كبيرنا.»

«كنتم تختلفون،» قال خردش. «أنت قلت عنه في كل مجلس إنه يبيع الماء لأطفال سُرْدان.»

«وكان يبيعه.»

وسُمع في الحلقة صوت كالريح.

«وجئت الآن،» قال خردش ببطء، «في الصباح الذي وُجد فيه مقتولًا، ومعك خيل قلمير.»

«جئت للإعلان. كما جاء كل شيخ. وجاء معي من يحميني في الطريق، لأن الطريق لم يعد آمنًا لمن شرب من القنوات. وأنت تعرف لماذا.»

ونظر خردش إلى القلميريين الستة، ثم إلى فاقد. وقال: «أقسمت قبل ساعة ألا أشرب ماء حتى أعرف من دخل على أبي.»

«سمعت ذلك في الطريق.»

«فاعلم إذن، يا ابن نوقار، أن من شرب من ماء القنوات، فقد شرب من ماء الذين قتلوه.»

«لا تعرف من قتله.»

«أعرف من ينتفع بموته.»

ولم يجب فاقد. ونظر حوله في الوجوه، كما فعل خردش في الصباح. ووقفت عيناه على أخته.

وكانت قيلة تعرف تلك النظرة. كان ينظر إليها هكذا حين كانا صغيرين، حين يكسر شيئًا ويريدها ألا تقول. لم يكن فيها رجاء. كان فيها شيء آخر: يعرف أنها لن تقول، ويريدها أن تعرف أنه يعرف.

لكن ماذا كسر هذه المرة؟

في المساء، دفنوا ظميان بن خردش قرب البئر، في المقبرة الصغيرة التي لا يُدفن فيها إلا كبار القبائل. وكان قبره الحادي والأربعين، والحفظة الثلاثة يقفون بعيدًا، وأصابعهم الزرق مضمومة خلف ظهورهم.

ولم يحضر فاقد الدفن. رجع إلى جمله قبل الغروب، ورجع معه رجاله والقلميريون الستة، ولم يُعلن شيئًا. وقال بعض الناس إنه هرب. وقال آخرون إنه خاف. وقال رجل من أهل الشعاب، بصوت خفيض، إنه رأى فاقد عند الجمال يتكلم مع تيلم الناسخ، وإن الكلام كان طويلًا.

وفي الليل، لم يبق في السهل إلا نصف الخيام. والنصف الآخر طُويت ومضت، في الظلمة، كل قبيلة إلى أرضها، لتعد ما عندها من رماح.

وجلست قيلة على الربوة. لم تكن نوبتها. لكنها لم تقدر أن تنام.

وجاء تيلم الناسخ، وحده، وصعد الربوة ببطء، كأن الصعود يتعبه. ووقف إلى جانبها. ولم تنظر إليه.

«أرسلت إلى إلسوم،» قال. «رسولنا يركب الليلة. يصل في ثمانية أيام إن لم تأخذه عاصفة ملح. ومبصرنا يأتي في ثمانية أخرى.»

«ستة عشر يومًا من أربعين.»

«ستة عشر يومًا من أربعين.» وسكت. ثم قال: «يا قائدة الفرسان.»

«نعم.»

«أنتِ رأيتِ شيئًا الليلة.»

ولم تتحرك. ولم تجب. لكنها شعرت بقلبها يضرب في حلقها.

«لن أسألك ما هو،» قال تيلم. «الحافظ لا يسأل. يرى، ويحفظ. لكني أقول لك ما يقوله لنا معلمونا في أول يوم ندخل فيه المكتبة: كل ما يُسكت عنه يبقى

أثره. والأثر لا يُمحى، وإنما يخفت.» ونظر إلى السهل، إلى الجمر المتفرق، إلى الأرض الفارغة بين الحلقتين. «ويخفت ببطء شديد.»

ثم نزل عن الربوة، ومشى في الظلمة إلى الخيمة البيضاء قرب الحجر.

وظلت قيلة تنظر إلى يديه وهو يمشي. وكانتا خلف ظهره، مضمومتين. ولم يكن في الظلمة ضوء يكفي لترى لونهما.

3. القفّازان

سقط الكتاب، فمدّت وردة يدها.

لم تفكر. هذا ما قالته لنفسها بعد ذلك، وما ظلت تقوله: لم أفكر. كانت جالسة إلى منضدتها في قاعة النسخ السفلى، والضوء يدخل من النوافذ الطويلة الضيقة مائلًا أخضر، كما يدخل كل صباح في إلسوم، لأنه يمر قبل النوافذ على ماء القنوات وعلى الطحلب في حجارتها. وكانت تنسخ صفحة من كتاب في أنساب أهل الجبال، بطيئة، سطرًا سطرًا. ومر خلفها طالب صغير يحمل على ذراعيه ستة كتب، أكثر مما ينبغي أن يحمل. وتعثر.

ووقع الكتاب الأعلى، فمدت يدها، وأمسكته قبل أن يبلغ الأرض.

وكانت يدها اليسرى. وكان القفاز في اليسرى قد نزعته قبل ساعة، لأن الحبر بلّل طرفه، فوضعته على حافة المنضدة ليجف.

وأمسكت الكتاب بيد عارية.

لم يكن الأمر كما يتخيله من لم يجربه. لم تكن هناك ظلمة، ولا صوت، ولا نور. كان الأمر أقرب إلى أن تتذكر شيئًا لم يحدث لها. كأن الذاكرة، ذاكرة غيرها، تُصبّ فيها من خلال الجلد، كما يُصب الماء في الرمل.

ورأت امرأة.

عجوزًا، في غرفة صغيرة، لا تعرف أين. ضوء شمعة واحدة. والعجوز تنسخ هذا الكتاب نفسه، في الليل، وأصابعها زرقاء حتى المعصم، كأنها غمستها في الحبر عمرها كله. وكانت تبكي. لم يكن في وجهها شيء من البكاء، ولا صوت، لكن الدمع كان ينزل على خديها ويقع على المنضدة، وهي تكتب، ولا تمسحه. وكان في الغرفة سرير، وعلى السرير شيء مغطى. ولم ترد وردة أن تعرف ما هو.

ثم رأت الكتاب يُغلق. ورأت العجوز تضع كفها عليه، مبسوطة، وتضغط. وسمعت، لا بأذنها، كلمة واحدة. اسمًا. ثم لا شيء.

«آسف، آسف يا مبصرة، آسف...»

كان الطالب الصغير على ركبتيه أمامها، يجمع الكتب الخمسة الأخرى عن الأرض، ووجهه أحمر حتى أذنيه. ونظرت إليه وردة، ولم تعرفه لحظة. ثم عرفته. ثم نظرت إلى يدها.

كان الكتاب لا يزال فيها. فوضعته على المنضدة، برفق، كأنه شيء حي.

«لا بأس،» قالت. وكان صوتها أعلى مما أرادت. فنظر إليها الطالب، ونظر إليها ثلاثة من النساخ على المناضد القريبة. «لا بأس. خذه.»

وأخذه الطالب ومشى، ينظر خلفه.

ولبست وردة القفاز، وكان طرفه لا يزال مبللًا. ثم وضعت يديها في حجرها، تحت المنضدة، حتى لا يرى أحد أنهما ترتجفان.

كانت قد فعلت هذا ألف مرة، أو أكثر. منذ كانت في السادسة. ولم تعتده. لم يكن أحد من المبصرين يعتاده، هكذا قال لها نوسم حين كانت صغيرة، وهي تبكي

في حجره: «من اعتاد الأثر يا بنية، نسي أنه أثر غيره، فظنه أثره هو. وهذا أول الجنون.»

في الظهر، حين خرجت من المكتبة إلى الشمس، وقفت على درجات الباب الكبير لحظة طويلة.

كانت إلسوم أمامها كما هي كل يوم. الجسور البيضاء، عشرات منها، فوق قنوات الماء الأخضر، تصل جزيرة بجزيرة وحيًّا بحي. والأبراج البيضاء، طويلة، رفيعة، في أعلى كل منها نافذة واحدة، لأن الحفظة يقولون إن العلم لا يحتاج إلا نافذة واحدة. والقوارب الطويلة في القنوات، تحمل الكتب من حي النساخ إلى حي الجلّادين، ومن حي الجلادين إلى المكتبة، ومن المكتبة إلى الميناء، حيث تنتظر سفن ألمين لتأخذها إلى كل دَيْمار. وفوق كل ذلك، في الهواء، الرائحة.

رائحة النيلة.

كانت تأتي من الجنوب، من حي الصبّاغين، حيث تقف أحواض الحبر الكبيرة في الشمس. أحواض من حجر الملح، كل منها بحجم بيت، والماء فيها أزرق داكن حتى يكاد يكون أسود، والرجال والنساء يقفون فيها حتى الركب، يحركون الماء بعصي طويلة. ومن هناك يخرج حبر الحفظة، الأزرق الذي لا يكتب به غيرهم، والذي يعلق بالأصابع أيامًا. وكانت الرائحة حادة، حامضة، فيها شيء من البحر وشيء من الحديد. وكان أهل إلسوم يقولون إن من وُلد فيها لا يشمها، كما لا يشم أحد رائحة بيته.

ووردة لم تولد فيها. وكانت تشمها كل يوم.

ونزلت الدرجات. وأرادت أن تذهب إلى الخباز الذي تشتري منه كل يوم، عند الجسر الثالث، في الزقاق الضيق الذي يميل إلى اليسار بعد بيت الجلّاد الأعور.

وتوقفت.

ما اسم الزقاق؟

كانت تعرفه. كانت تعرفه منذ عشر سنين. تمشي فيه كل يوم. فيه بيت الجلاد الأعور، وفيه شجرة تين صغيرة نبتت في جدار، وفيه الخباز الذي يعطيها رغيفًا زائدًا يوم السوق. ولم تجد اسمه.

وقفت على الجسر الأول، والناس يمرون حولها، تبحث في رأسها كما يبحث المرء في جيب يعرف أنه وضع فيه شيئًا. وكان المكان فارغًا. ليس النسيان المعتاد، حين يكون الاسم على طرف اللسان. بل فراغ مستو، أملس، كأن الاسم لم يكن هناك قط.

ثم فهمت. وتنفست ببطء.

هذا هو الثمن. أخذت العجوز وبكاءها وكتابها والاسم الذي قالته، ودفعت مقابله اسم زقاق. هكذا يأخذ الأثر دائمًا. لا يأخذ ما تريد أن تعطيه، بل ما يختاره. وكان يمكن أن يكون أسوأ. كان يمكن أن يكون وجه أمها.

لكنها كانت قد فقدت وجه أمها منذ زمن.

ومشت إلى الجسر الثالث، ودخلت الزقاق الذي لا اسم له، ومرت بالجلاد الأعور، وبشجرة التين، واشترت رغيفها. ولم تسأل الخباز عن اسم الزقاق. كانت تعرف أنه سيقوله لها، وأنها ستنساه مرة أخرى قبل أن تبلغ آخره.

جاءها الطالب ذو الأذنين الحمراوين بعد العصر، وكان قد عرف طريق غرفتها في حي المبصرين. ووقف على الباب يلهث، وفي عينيه شيء من الخوف، كأنه يخاف أن تلمسه.

«نوسم الكتّاب يطلبك.»

كان برج نوسم أعلى أبراج إلسوم، وأقدمها، وأضيقها. وكان فيه مئتان وسبع عشرة درجة. عدّتها وردة أول مرة صعدته، في السادسة، على ظهر رجل من خدم المكتبة. ثم عدتها في كل مرة بعد ذلك. وكان العدّ يهدئها. مئتان وسبع عشرة. لم تتغير قط.

وفي الأعلى، الغرفة الواحدة، والنافذة الواحدة. وأمام النافذة نوسم، واقفًا، يسقي نبتة.

كانت نبتة صغيرة، خضراء، في إناء من حجر الملح. ولم تعرف وردة اسمها قط، ولم تسأل. وكان نوسم يسقيها بيده، من كوب صغير، قطرة قطرة، كأنه يحسب كل قطرة. وكان يقول إن الملح يقتل كل نبات، إلا هذا، وإنه لا يعرف لماذا، وإنه يحب ما لا يعرف لماذا.

«تعالي يا وردة.»

ودخلت، ووقفت حيث تقف دائمًا، عند الرف الثالث. ولم يلتفت. أكمل السقي. ثم وضع الكوب على حافة النافذة، ومسح يده بطرف عباءته، والتفت.

كان في السبعين، أو قريبًا منها. صغير الجسم، أصغر منها، أبيض الشعر واللحية، وعيناه رماديتان صافيتان كماء القنوات في الشتاء. وكانت يداه زرقاوين حتى المعصم، كيدي العجوز التي رأتها في الصباح. وفي وجهه دائمًا ابتسامة صغيرة، كأنه يعرف نكتة لم يقلها بعد.

ولم يكن يبتسم الآن.

«مات ظميان بن خردش.»

لم تفهم أول الأمر. كانت تعرف الاسم، كما يعرفه كل من في إلسوم. كبير القبائل. الرجل الذي يملك آبار الشعاب. لكنه كان اسمًا في كتاب، اسمًا في رسائل المجلس، وليس رجلًا يموت.

«متى؟»

«قبل ثمانية أيام. ليلة الاجتماع، عند بئر العهود. جاءنا رسول تيلم الناسخ هذا الصباح، وقد أهلك ثلاثة جمال في الطريق.» وسكت نوسم. ثم قال: «قُتل في خيمته.»

«من قتله؟»

«هذا ما يسألونه هناك.» ومشى نوسم إلى منضدته، وجلس، ببطء، كأن ظهره يؤلمه. «ويسألونه الآن بالرماح. ابنه خردش أعلن حلف الأوفياء، وأقسم أن يأخذ الحكم بيده بعد أربعين يومًا إن لم يُعرف القاتل. والقبائل تفترق. وفرسان البئر في الوسط، ولا يعرفون إلى أين يميلون.»

ونظرت وردة إليه، وانتظرت. فهي تعرف أنه لم يدعها ليقول لها خبرًا.

«يريدون مبصرًا،» قال نوسم. «قائدة الفرسان، بنت نوقار، تطلب أن يأتي مبصر من المجلس، فيلمس ما في الخيمة، ويرى ما جرى، ويقول ما رأى عند الحجر، أمام القبائل كلها.»

وشعرت وردة بشيء بارد ينزل في بطنها.

«وأنا...»

«وأنتِ.»

«أنا أصغر المبصرين.»

«وأقواهم.»

«لم أخرج من إلسوم قط. منذ جئت.»

«أعرف.»

«ولا أعرف الخلاء. ولا القبائل. ولا...» ووقفت. لم تعرف كيف تكمل.

ونظر إليها نوسم بعينيه الرماديتين، طويلًا، كما كان ينظر إليها حين كانت صغيرة وتسأله سؤالًا يعرف أن جوابه سيؤلمها.

«ولا تحبين أن تلمسي موضعًا مات فيه أحد،» قال. «أعرف ذلك أيضًا يا بنية. ولهذا أنتِ.»

ولم تفهم.

«المبصر الذي يحب ذلك،» قال نوسم، «يرى ما يحب أن يرى. وأنتِ تكرهينه، فترين ما هو.» وابتسم أخيرًا، ابتسامته الصغيرة. «ثم إنكِ من سُرْدان. ولدتِ في أطرافها. ستفهمين ما يقوله الناس هناك، وما لا يقولونه. وهذا لا يتعلمه أحد في المكتبة.»

ولم تقل شيئًا. لم تكن تذكر من سُرْدان إلا رائحة خيمة، وصوت أمها، ثم الليلة التي رأت فيها ما رأت. وكانت تعرف أنه يعرف ذلك.

ثم فتح نوسم درجًا في منضدته، وأخرج منه شيئًا ملفوفًا في قماش أبيض، ومده إليها.

وفتحته. كان فيه قفازان. جديدان، من جلد الماعز الرقيق، رماديان، مخيطان بخيط أزرق. ولبستهما، فكانا على يديها كأنهما جلدها.

«صنعهما لك أحسن جلادي الحي،» قال. «جلد مدبوغ بالملح ثلاث مرات. لا يمر منهما أثر إلا إن أردتِ.»

«شكرًا.»

«لا تشكريني.» ونظر إلى النافذة، إلى النبتة الخضراء في إناء الملح. ثم قال، دون أن ينظر إليها: «يا وردة.»

«نعم.»

«ستلمسين ما في الخيمة. وسترين ما جرى. وستقولين ما رأيتِ عند الحجر. هذا ما يطلبونه، وهذا ما وعدناهم به. لكن...»

وانتظرت.

«لكن الأثر لا يكون دائمًا واضحًا. أنتِ تعرفين ذلك. يأتي أجزاء، ويأتي مختلطًا، ويأتي أحيانًا بما لا يُفهم.» ونظر إليها الآن. «فما رأيتِ ففهمتِه، فقوليه عند الحجر. وما رأيتِ فلم تفهميه، فاكتبيه لي أولًا. لا تقوليه للناس قبل أن تكتبيه لي. الناس في الخلاء الآن يا بنية كالحطب اليابس. كلمة واحدة لا تُفهم، تحرق سُرْدان كلها.» وسكت قليلًا. «وشيء آخر. الفرسان لا يُصدَّقون.»

«نعم.»

«عديني.»

ونظرت إليه. وكانت يده اليمنى على المنضدة، الزرقاء، المعروقة، مبسوطة. ورأت، ولم تعرف لماذا رأت ذلك، أن أصابعها كانت ترتجف قليلًا. رجفة صغيرة، كرجفة الماء في إناء حين يمر قارب في القناة.

«أعدك.»

لم تذهب إلى غرفتها بعد ذلك. نزلت المئتين والسبع عشرة درجة، وعدّتها، ثم مشت في الممرات الطويلة في جوف المكتبة، حيث لا يدخل الضوء الأخضر، بل ضوء القناديل الزيتية الصغيرة المعلقة على الجدران كل عشر خطوات. ونزلت درجًا آخر،

ثم آخر. وأخذت من الحارس العجوز عند الباب الحديدي مفتاحًا صغيرًا، دون أن يسألها شيئًا، فالمبصرون يدخلون قبو الملح متى شاؤوا. ودخلت.

كان القبو باردًا كما هو دائمًا. باردًا بردًا جافًّا، لا رطوبة فيه، مع أن القنوات كلها فوقه وحوله. وكانت الجدران من الملح الأبيض، والأرض من الملح، والرفوف من خشب نُقع في الملح سنين. وكان الهواء نفسه مالحًا، يجفف الشفتين. وهذا ما يجعله أقدم مكان في إلسوم، وأحفظ مكان. فالملح يحفظ الأثر، والماء يمحوه، فلا يدخل الماء هنا.

ومشت بين الرفوف، إلى الركن الذي تعرفه.

وكانت النسخة الأم هناك، في صندوقها من زجاج الخلاء. لم تقترب منها. لمستها مرة واحدة، قبل سنة، بإذن المجلس، لتقرأ أثر الدم على أطرافها، فرأت ما رأت، وكتبت ما كتبت، ثم مرضت أسبوعين ونسيت فيهما أشياء كثيرة لا تعرف ما هي. ولن تلمسها مرة أخرى.

بل ذهبت إلى الرف الذي بجانبها، وأخرجت كتابًا صغيرًا، مجلدًا بجلد أسود، وفتحته على صفحة تعرفها.

«دم الإخوة: الرواية الإلسومية.» وفي آخر الصفحة، تحت السطر الأخير، بحبر أزرق، بخط صغير مائل، حاشيتها. قرأتها. لم تكن تحتاج أن تقرأها، فهي تعرفها. لكنها قرأتها.

كان غريبًا على يده ختم من الأختام السبعة...

وقد رأيتُ أثر اليد نفسها في سجلات أخرى...

ولا أكتب أين، لأن نوسم يقرأ كل ما أكتب.

ونظرت إلى السطر الأخير طويلًا. كتبته قبل سنة، وهي غاضبة، ولم تكن تعرف لماذا هي غاضبة. ثم ندمت. وأرادت أن تمحوه، ولم تمحه. فالحافظ لا يمحو. وظل هنا، في كتاب في قبو الملح، حيث لا يدخل أحد غير المبصرين وأعضاء المجلس.

ونوسم عضو المجلس.

هل قرأه؟

لم يقل شيئًا قط. لم يتغير شيء في وجهه حين يراها. ابتسامته الصغيرة كما هي، ونبتته، ودرجاته المئتان والسبع عشرة. لكنه قال لها اليوم: اكتبيه لي أولًا.

وأغلقت الكتاب، وأرجعته.

وحين خرجت من بين الرفوف إلى الباب، شعرت بالبرد.

ليس برد القبو. شيء آخر. شيء يصعد من الأرض، من تحت قدميها، كأن تحت الملح ماء باردًا يتحرك. ووقفت. وكان في آخر القبو، في الجدار الشمالي، باب صغير لم تنتبه له قط. باب من حديد أسود، أصغر من باب القبو، وعليه قفل كبير بلا ثقب مفتاح. وكانت تعرف أنه هناك، كما يعرف المرء أشياء كثيرة في بيته ولا ينظر إليها. لم يكن أحد يتكلم عنه. ويقول الحارس العجوز إنه باب إلى درج قديم من أيام قبل إلسوم، وإن الدرج مسدود بالحجارة منذ ألف سنة.

ومن عنده كان يأتي البرد.

ووقفت وردة أمامه. لم تقترب. وسمعت، أو ظنت أنها سمعت، صوتًا. صوتًا خفيضًا جدًّا، كالطنين، كالذي يسمعه المرء حين يضع أذنه على جرة فارغة. لا يعلو، ولا ينخفض. مستمر.

ثم ذهب.

ونظرت إلى يديها. كانتا في القفازين الجديدين، المدبوغين بالملح ثلاث مرات. ولم تلمس شيئًا.

ومشت إلى الباب، وأغلقته خلفها، وأعطت الحارس العجوز مفتاحه.

وفي الفجر، عند البوابة الشمالية للمدينة، حيث ينتهي آخر الجسور وتبدأ الطريق الترابية إلى الوادي، كان رجل ينتظرها مع جملين.

كان طويلًا، نحيلًا، أسمر، في الخمسين أو أكبر. وكانت عيناه بيضاوين كاللبن.

«أنتِ المبصرة.» لم يكن سؤالًا.

«كيف عرفت؟»

«الجميع هنا يمشون كأنهم في مكتبة.» وابتسم، فظهرت أسنان بيضاء في وجه أسمر. «وأنتِ تمشين كأنك في رمل. هدران. أنا دليلك. الحفظة لا يحملون سلاحًا خارج المدينة، فيستأجرونني. وأنا لا أحمل سلاحًا أيضًا، لكن لا أحد يعرف ذلك.»

ونظرت إليه. ثم إلى عينيه.

«أنت...»

«أعمى. منذ عشرين سنة. عاصفة ملح، في الطريق إلى مكان لا ينبغي أن يذهب إليه أحد.» ومد يده اليمنى، الكبيرة، الخشنة، ووضعها على عنق أقرب الجملين، فهدأ الجمل. «لكن اليد ترى. كثيرًا. ليس مثلكم يا مبصرون، فأنا لا أرى الماضي. لكني أرى الأرض. والأرض لا تكذب.»

ثم مد يده إليها، كما يمد الرجل يده إلى من يصافحه.

ونظرت وردة إلى اليد. ولم تمد يدها. فهي لا تصافح أحدًا، ولم تصافح أحدًا منذ كانت في السادسة.

وبعد لحظة، أنزل هدران يده. ولم يبد عليه أنه تأذى.

«لا بأس،» قال. «عرفت رجلًا كان مثلك. لا يصافح، ولا يدع أحدًا يلمسه. ويمشي كأنه في رمل.» وأدار وجهه الأبيض العينين نحو الشمال، نحو الطريق. «لكن هذا كان منذ زمن.»

«من كان؟»

لم يجب. بل أمسك برسن الجمل الأول، وأناخه، وأشار إليها أن تركب.

وحين عبرا الجسر الأخير، والتفتت وردة إلى الوراء، كانت إلسوم كلها في ضوء الفجر بيضاء وزرقاء. الأبراج، والجسور، والقنوات. وبرج نوسم في وسطها، أعلاها، وفي أعلاه النافذة الواحدة. ولم تر أحدًا فيها. لكنها شعرت بأنه هناك، ينظر.

ثم أدارت وجهها إلى الطريق.

وفكرت، وهي تهتز على ظهر الجمل، في الزقاق الذي لا اسم له. وفي العجوز ذات الأصابع الزرقاء، وفي الشيء المغطى على السرير، وفي الاسم الذي قالته. وفي الطنين الخفيض وراء الباب الحديدي. وفي يد نوسم وهي ترتجف على المنضدة.

وفي الرجل الذي كان يمشي كأنه في رمل.

ولم تسأل هدران مرة أخرى.

4. الغريبة ذات القفّازين

في اليوم الحادي والعشرين، رحل أربعون فارسًا.

لم يرحلوا في الليل، كما يرحل الخائنون في الحكايات. رحلوا في الضحى، أمام الجميع. جاؤوا إلى الربوة واحدًا بعد واحد، ووقف كل منهم أمام قيلة، وفك الحبل من معصمه، ولفّه، ووضعه على الحجر عند قدميها. ثم ركب جمله ومضى إلى الشمال، حيث تقوم خيام الأوفياء على أفق الحصى كأنها صف من الصخور السود.

ولم يقل أحد منهم شيئًا، إلا الأخير. كان فتى من بني قيظ اسمه لا تذكره، فقد جاء إلى الفرسان قبل سنتين فقط. وقف أمامها، ووضع حبله على الحجر، ثم رفع عينيه إليها، وقال:

«الحياد لا يسقي أحدًا، يا قائدة.»

وكان يمكن أن تجيبه. كان في فمها جواب. لكنها نظرت إليه، ورأت أنه أصغر من أن يسمع جوابها، وأن الجوع في وجهه أكبر من أي جواب. فلم تقل شيئًا. وركب ومضى.

وجمع هفير الحبال بعد ذلك، أربعين حبلًا، ووضعها في كيس من جلد. ولم يسألها ماذا يفعل بها. فالحبل الذي يُفك لا يُرمى، والعرف لا يقول ماذا يُصنع به.

فوضع الكيس في خيمتها، في الركن، ولم ينظر إليه أحد منهما بعد ذلك.

كانت الأيام العشرون الماضية أطول أيام عمرها.

فتحت فيها كل شيء يمكن أن يُفتح، وسألت كل من يمكن أن يُسأل. جلست مع الفتى ذي البياض في عينه ثلاث مرات. وكان في كل مرة يبكي، ثم يقول الشيء نفسه: نام عند الباب بعد أن رجعت هي إلى الربوة، ولم يستيقظ حتى الفجر، إلا مرة، حين سمع كبير القبائل يقول للرجلين: اذهبا فكلا. سمع ذلك بأذنه، في نصف نومه، ونام.

«صوته؟»

«صوته يا قائدة. كما أسمعك الآن.»

وجلست مع الضيف الذي جاء من القنوات. كان رجلًا قلميريًّا في الأربعين، قصيرًا، سمينًا، ناعم اليدين، يلبس ثياب أهل الخلاء ولا يعرف كيف يلبسها. وقال إن اسمه طويل لا يحسن أهل الخلاء نطقه، وإن عمله أن يقيس الماء. وكان خائفًا خوفًا لا يخفيه. فمنذ ليلة القتل وهو في خيمته خارج السهل، والفرسان حوله ليحموه، لا ليحرسوه، وكان يعرف ذلك. وكانت قيلة تعرف أنه لو خرج من بينهم ساعة واحدة، لوجدوه في الصباح على الحصى.

«لماذا جئت؟» سألته.

«جئت لأسمع الإعلان.»

«من أرسلك؟»

ونظر إليها، ثم إلى هفير الواقف عند الباب، ثم إليها مرة أخرى. «القصر.»

«ولماذا يريد القصر أن يسمع الإعلان؟ يسمعه بعد أيام من رسله.»

وسكت الرجل. ثم قال، وصوته أخفض: «لأن الإمبراطورة كانت تنتظر جوابًا.»

«جواب ماذا؟»

«لا أعرف يا قائدة. والبارئ يشهد، لا أعرف. قالوا لي: اذهب، واسمع ما يقول كبير القبائل، وارجع بأسرع ما تستطيع. وقالوا لي: إن قال نعم، فارجع بجمل. وإن قال لا، فارجع بفرس.»

«نعم على ماذا؟»

«لا أعرف.»

ونظرت إليه طويلًا. ولم تر في وجهه كذبًا. رأت فيه رجلًا صغيرًا أُرسل في شيء كبير، ولم يُخبر بشيء.

وكان هذا كل ما وجدته في عشرين يومًا: صوت لا يُرى صاحبه، ورسالة لا يُعرف ما فيها، وإمبراطورة تنتظر جوابًا لا يُعرف سؤاله.

ورجل ذو أصابع زرقاء، لم تقل لأحد إنها رأته.

ثم كان الحفظة الثلاثة.

راقبتهم عشرين يومًا. لم يكن ذلك صعبًا، فهم لا يخرجون من الخيمة البيضاء إلا للصلاة، وللمشي القصير عند الغروب حول الحجر المنقوش، واحدًا خلف الآخر، لا يتكلمون. تيلم الناسخ أولهم، وهو أطولهم. وخلفه رجل كهل، عريض الكتفين، قصير الرقبة، يعرج قليلًا. وخلفهما الثالث.

وكان الثالث فتى. نحيفًا، في العشرين أو أكثر بقليل، يمشي مشية خفيفة كمن لم يعتد الحصى. وكان أقصر من تيلم.

وفي كل غروب، كانت قيلة تقف على الربوة، وتنظر إليه وهو يمشي حول الحجر. وتقارن.

هل هو؟

كان في طول الرجل الذي رأته، أو قريبًا منه. وكان في نحوله. لكن الرجل الذي رأته في تلك الليلة كان يمشي مشية أخرى، مشية لا تعرفها. ليست مشية فتى لم يعتد الحصى. بل مشية رجل يرفع قدميه أكثر مما ينبغي، ويضعهما بحذر، كأنه لا يثق بالأرض تحتهما، ولا يريد أن يُسمع.

ولم تكن متأكدة.

وكان هذا ما يأكلها في الليل. لو كانت متأكدة، لكان أسهل. لو عرفت أنه هو، لذهبت إلى خردش وقالت. ولو عرفت أنه ليس هو، لعرفت أنها رأت رجلًا لا تعرفه، ولا يعرفه أحد، ولقالت ذلك أيضًا. لكنها لم تكن متأكدة من شيء، إلا أنها رأت يدًا زرقاء في ضوء جمر، لحظة واحدة، ثم ذهبت.

وكلما مر يوم، صارت اللحظة أصغر في ذاكرتها، وأشد.

جاءت المبصرة في غروب اليوم الحادي والعشرين، بعد أن رحل الفرسان الأربعون بساعات.

رأت قيلة الغبار أولًا، من جهة الجنوب الشرقي، حيث يأتي طريق الوادي. ثم رأت جملين. ثم رأت أن على الجمل الأول رجلًا طويلًا يجلس منتصبًا، وأن على الثاني شيئًا رماديًّا صغيرًا، كأنه حزمة من القماش.

ونزلت عن الربوة، ومشت إلى حافة السهل، ووقفت تنتظر.

وحين اقترب الجملان، عرفت الرجل الطويل. وتوقفت.

«هدران.»

«يا بنت نوقار.» وأوقف الرجل جمله، ولم ينزل. وأدار وجهه نحوها، وعيناه البيضاوان مفتوحتان. «كبرتِ.»

«كيف تعرف؟»

«صوتك نزل. حين رأيتك آخر مرة، كان صوتك عند هنا.» ورفع يده إلى فوق رأسه. «والآن هو هنا.» ووضع يده على صدره. وابتسم.

ولم تبتسم قيلة. لكن شيئًا فيها ارتخى، لأول مرة منذ واحد وعشرين يومًا. فهدران الأعمى لم يكن رجلًا يُعرف في الخلاء. كان رجلًا يعرفه الخلاء. قاد القوافل أربعين سنة، منها عشرون وهو يرى، وعشرون وهو لا يرى. ويقال إنه في العشرين الثانية لم يضل طريقًا قط. وكان قد مر بالواحة التي كبرت فيها، مرة كل سنة أو سنتين، وكان أبوها يقعد معه حتى الفجر. ولم تكن تعرف ما كانا يقولان. كانت صغيرة، وكانا يرسلانها إلى النوم.

«هفير هنا؟» سأل هدران.

«هنا.»

«فما زال في الدنيا خير.» ثم مال برأسه نحو الجمل الثاني. «وهذه وردة. المبصرة. من المجلس.»

ونزلت المبصرة عن الجمل.

لم تحسن النزول. أناخ الجمل، فمالت إلى الأمام، وكادت تسقط، ثم أمسكت بالسرج، ونزلت على قدميها مرتبكة، وغبار الطريق يتطاير منها. ثم وقفت، ونفضت ثوبها، ورفعت رأسها.

ورأت قيلة فتاة.

لم تكن تعرف ماذا توقعت. ربما شيخًا، كتيلم أو أكبر منه. أو امرأة كهلة صارمة كالتي يتكلم عنها الناس حين يذكرون المبصرين: الذين يرون ما لا يُرى، ولا يصافحون أحدًا. لكن هذه فتاة. في الخامسة والعشرين، أو نحوها. نحيفة، أنحف من قيلة، وأقصر منها برأس. وجهها شاحب، مستدير، وعيناها سوداوان واسعتان كعيني ظبي خائف. وشعرها مشدود إلى الخلف تحت منديل رمادي. وكانت تلبس ثوب الحفظة الأبيض، وقد صار رماديًّا من الطريق. وعلى يديها قفازان.

ونظرت قيلة إلى القفازين. ثم إلى وجه الفتاة.

«أنتِ المبصرة؟»

«نـ... نعم.» وتوقفت الفتاة، وأغمضت عينيها لحظة، كمن يعدّ في رأسه. ثم فتحتهما. «وردة. المبصرة. أرسلني المجلس.»

«كم عمرك؟»

«ستة وعشرون.»

«وهذه أول مرة تخرجين فيها من إلسوم.»

ولم يكن سؤالًا. ونظرت إليها وردة، وظهر في وجهها الشاحب شيء من الحمرة. «كيف...»

«تقفين كمن لم يقف في الخلاء.» وأدارت قيلة وجهها إلى هدران. «أرسلوا أصغرهم.»

«أرسلوا أقواهم،» قال هدران، ولم يتحرك على جمله.

«ومن قال ذلك؟»

«الذي أرسلها.»

ونظرت قيلة إلى الفتاة مرة أخرى. كانت وردة واقفة في مكانها، يداها في القفازين مضمومتان أمامها، وعيناها على الأرض. ثم رفعت عينيها، ونظرت إلى قيلة مباشرة، ولم تتلعثم هذه المرة:

«أريد أن أرى الخيمة.»

لم تأخذها إلى الخيمة.

قالت لها إن الوقت متأخر، وإن الشمس غابت، وإن الشيوخ يجب أن يحضروا، والشيخ ذا العصا، ورجلًا من الأوفياء يرسله خردش، ورجلًا من أهل الوحدة إن وُجد، حتى يرى الجميع أن المبصرة لم تلمس شيئًا إلا أمام الجميع. وقالت إن هذا ما اتفقوا عليه يوم القتل: يأتي المبصر، ويلمس ما يلمس، وفارس من الفرسان يقف معه. وما يقوله، يقوله أمام الحجر. فإن لمست الخيمة الليلة، وحدها، لم يصدقها أحد غدًا.

وكان هذا كله صحيحًا.

ووافقت وردة. أومأت برأسها، ولم تقل شيئًا. ثم ذهبت مع تيلم الناسخ إلى الخيمة البيضاء، وكان قد خرج لاستقبالها، ورأته قيلة ينحني لها كما ينحني لمن هو أعلى منه رتبة. ثم دخلا.

ووقفت قيلة حيث هي.

لم يكن السبب ما قالته. كانت تعرف ذلك وهي تقوله، وكان يخجلها أنها تعرفه. السبب كان شيئًا آخر، شيئًا لم تفكر فيه إلا حين رأت القفازين.

إن لمست المبصرة الخيمة، فإنها ترى ما جرى فيها. وما جرى عندها.

وقد وقفت هي عند تلك الخيمة. تلك الليلة. بعد أن رأت الرجل يخرج. وقفت عند الباب، وقالت: يا كبير القبائل. مرتين. ومدت يدها إلى الستر. ثم أرجعتها.

هل يبقى أثر ذلك؟ هل تراها المبصرة، واقفة في الظلمة، ويدها ممدودة؟ هل ترى في وجهها أنها كانت قد رأت شيئًا قبل ذلك بلحظات، فجاءت تتفقد، ولم تقل؟

لم تكن تعرف كيف يعمل الإبصار. لم يكن أحد في الخلاء يعرف. كانت جدتها ترى أحيانًا، وقيلة نفسها ترى أحيانًا، أشياء صغيرة، لحظات لا تريدها. لكن هذا ليس علمًا. هذا شيء كالعطش، يأتي ويذهب. أما المبصرون من إلسوم، فيقال إنهم يقرؤون الأرض كما يقرأ الناسخ كتابًا.

فإن قرأت هذه الفتاة الخيمة غدًا، أمام الحجر، أمام الإحدى والعشرين، وقالت: رأيت قائدة الفرسان عند الباب...

ولم تكمل الفكرة.

وأدركت، وهي واقفة في الظلمة، أنها لم تؤجل الأمر إلى الغد لتحمي الإبصار من الشك. بل لتعطي نفسها ليلة أخرى. ليلة تقرر فيها ما تقول، قبل أن يُقال عنها.

بعد العشاء، جاءت وردة إلى نار الفرسان.

لم تدعها قيلة. جاءت وحدها، ووقفت على حافة الضوء، كمن لا يعرف هل يُسمح له بالجلوس. ونظر إليها الفرسان، وكانوا ثمانية حول النار، ثم نظروا إلى قيلة. وأشارت قيلة إلى موضع بجانبها، فجلست وردة. لا قريبة، ولا بعيدة. وضمّت ركبتيها إلى صدرها، ووضعت يديها في القفازين عليهما.

وأعطاها هفير قدح لبن، فأخذته بيدين، ولم تشرب.

وسكت الجميع مدة. ثم قام الفرسان واحدًا بعد واحد، لنوبتهم أو لنومهم، حتى لم يبق حول النار إلا قيلة ووردة، وهدران الأعمى على الجانب الآخر، مستلقيًا على ظهره، وعيناه البيضاوان مفتوحتان إلى السماء.

«هل تنامين بهما؟» سألت قيلة، وأشارت إلى القفازين.

«نـ... أحيانًا. إذا نمت في مكان لا أعرفه.»

«ولماذا؟»

ونظرت إليها وردة. «لأن كل شيء قديم. الأرض، والحصير، والبطانية. كل شيء جرى عليه شيء.»

«وترين ذلك كله؟»

«إذا لمسته.»

«كل شيء؟»

«لا. ليس كل شيء. ما كان قويًّا. ما ترك أثرًا عميقًا.» وسكتت وردة، وأدارت القدح بين يديها. «الفرح لا يترك أثرًا عميقًا. ولا الحب. ولا الصلاة. هذه تترك أثرًا خفيفًا، كالريح على الرمل. أما الخوف، والوجع، والدم...» ولم تكمل.

«فهذه ترينها.»

«هذه أراها.»

ونظرت قيلة إلى النار. ثم قالت: «وتدفعين؟»

ورفعت وردة عينيها إليها بسرعة. «كيف تعرفين؟»

«جدتي كانت ترى. قليلًا. وكانت تقول إن كل مرة ترى فيها، تنسى شيئًا.»

ونظرت إليها وردة طويلًا، وفي عينيها السوداوين شيء لم يكن فيهما من قبل. ثم قالت: «نعم. أدفع. كل من يستنطق الأثر يدفع. هذا هو القانون. لا قوة بلا ثمن.»

«وماذا تدفعين أنتِ؟»

«الذاكرة.» وقالتها ببساطة، كمن يقول اسمه. «أمس، أو قبل أيام، لا أذكر، لمست كتابًا بيد عارية، فرأيت ما رأيت. ثم نسيت اسم الزقاق الذي أشتري منه الخبز. عشر سنين أمشي فيه، ونسيت اسمه.»

«وهل يرجع؟»

«لا.»

ولم تقل قيلة شيئًا. ونظرت إلى يدي الفتاة في القفازين.

ثم قالت، ولم تعرف لماذا قالتها: «هذا قوسي.» ورفعت القوس عن الأرض، ومدته إليها. «كان لجدتي، ثم لأبي، ثم لي. ماذا ترين فيه؟»

ولم تمد وردة يدها.

نظرت إلى القوس، ثم إلى قيلة. ثم هزت رأسها ببطء.

«لا أقرأ أثر الأحياء،» قالت. «إلا بإذنهم.»

«أعطيتك الإذن.»

«لا.» وكانت هذه أول مرة تسمع فيها قيلة صوتها ثابتًا تمامًا. «أعطيتني القوس. ولم تعطيني الإذن. لو أعطيتني الإذن، لما كانت يدك ترتجف.»

ونظرت قيلة إلى يدها.

وكانت ترتجف.

وضعت القوس على الأرض، بينهما. وسكتتا مدة.

ثم قالت قيلة، وهي تنظر إلى النار لا إلى الفتاة: «إذا دخل رجل خيمة، ولم يلمس شيئًا، ولم يسفك إلا قليلًا من الدم... هل يبقى أثره؟»

«يبقى.»

«دائمًا؟»

«دائمًا. كل من يمر في مكان يترك فيه شيئًا. حتى لو لم يلمس شيئًا. الهواء يحفظ قليلًا، والأرض تحفظ أكثر. والقماش يحفظ أكثر من الأرض، لأنه يشرب. والدم...» وسكتت. «الدم يحفظ كل شيء. الدم هو أقوى الأثر.»

«وإن لم يكن هناك دم كثير؟»

«ولو قطرة.»

«وإن مُحي؟»

«الماء يمحو. ببطء. لكن لا ماء في الخيمة.» ونظرت وردة إليها. «لا أحد يدخل مكانًا ولا يترك أثرًا يا قائدة. لا أحد. هذا قانون. كقانون أن الماء ينزل ولا يصعد.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

وفي الجانب الآخر من النار، قال هدران، دون أن يتحرك: «إلا من يعرف كيف.»

ونظرتا إليه.

لكنه لم يقل أكثر من ذلك. ظل مستلقيًا على ظهره، وعيناه البيضاوان إلى السماء، كأنه لم يقل شيئًا.

حين قامت وردة لترجع إلى الخيمة البيضاء، قام هدران معها. وقال إنه يوصلها، لأن الحصى في الليل كثير الحجارة. ومشيا معًا، هي أمامه بخطوة، وهو يضع يده على كتفها كما يضع الأعمى يده، لكنها شعرت، وقيلة ترى ذلك من بعيد، أن العكس هو الصحيح: هو الذي يقودها.

وحين رجع هدران وحده، بعد مدة، لم يرجع إلى النار. بل رأته قيلة يمشي إلى خيمة كبير القبائل. ببطء، بيده اليمنى ممدودة أمامه قليلًا، كمن يتحسس الهواء.

ووقف عند الباب. حيث وقفت هي تلك الليلة.

ثم جلس على ركبتيه، ووضع كفه على الحصى. ولم يتحرك. كان الفارسان اللذان وضعتهما قيلة على الخيمة ينظران إليه، ولم يمنعاه. فهدران الأعمى لا يمنعه أحد.

وقامت قيلة، ومشت إليه.

حين وصلت، كان قد رفع يده عن الأرض، ووضعها على ركبته. ولم يلتفت إليها. لكنه قال:

«وقف أحد هنا طويلًا.»

لم تجب.

«تلك الليلة. وقف هنا طويلًا، ولم يدخل.» وأدار وجهه نحوها، ببطء، والعينان البيضاوان كأنهما تنظران إلى ما وراءها. «الأرض لا تكذب يا بنت نوقار. لكنها لا تتكلم إلا لمن يسأل.»

ثم قام، ونفض ركبتيه، ومشى إلى نار الفرسان، واستلقى حيث كان.

ولم تتحرك قيلة من مكانها مدة طويلة.

لم تنم تلك الليلة.

جلست على الربوة، والقوس على فخذيها، كما جلست ليلة القتل. وكان السهل تحتها نصف ما كان. نصف الخيام طُويت، ونصف النيران لم توقد. والقمر في آخره، نحيلًا نكيط، يطلع متأخرًا. وخيمة كبير القبائل مظلمة، والفارسان عندها، والستر مسدول عليها منذ واحد وعشرين يومًا.

وفي وقت ما، بعد منتصف الليل، رأت شيئًا يتحرك.

ظلًّا صغيرًا، رماديًّا، يخرج من الخيمة البيضاء قرب الحجر. ويمشي بين الخيام. لا يسرع، ولا يلتفت. ويتوقف عند كل جمرة، ثم يمضي.

وعرفته قيلة قبل أن يقترب. عرفته من مشيته، مشية من لم يعتد الحصى. ومن صغره. ومن المنديل الرمادي على رأسه.

ورأت الظل يصل إلى خيمة كبير القبائل. ورأت الفارسين يقومان، ثم يقفان. ورأت الظل يقول لهما شيئًا، لم تسمعه. ورأت أحدهما ينظر إلى الربوة، إليها، في الظلمة، كأنه يسأل.

وكان يمكن أن تنزل. وكان يمكن أن تشير إليه أن يمنع. وكان يمكن أن تقول: غدًا. أمام الحجر. أمام الجميع. كما اتفقنا.

ولم تفعل شيئًا.

رفعت يدها، ببطء، وأنزلتها. إشارة يعرفها الفرسان كلهم: دعها.

ورفع الفارس الستر.

ودخل الظل الرمادي الصغير خيمة ظميان بن خردش، وحده، في الظلمة. وانسدل الستر خلفه.

وجلست قيلة بنت نوقار على الربوة، والقوس على فخذيها، ويداها عليه. وكانت هذه المرة الثانية التي تسكت فيها عند هذه الخيمة.

لكنها كانت تعرف، هذه المرة، لماذا سكتت. كانت تريد أن تعرف الحقيقة. وكانت تريد، أكثر من ذلك، ألا تكون هي التي تقولها.

5. ما بقي في القماش

كان الظلام في الخيمة كثيفًا، كأنه شيء يُلمس.

وقفت وردة خلف الستر المسدول، ولم تتحرك. انتظرت أن تعتاد عيناها. ولم تعتادا. كان القمر نحيلًا في الخارج، والشقوق التي كان يخرج منها الضوء ليلة القتل، كما قال تيلم، صارت لا يدخل منها شيء. وكانت الرائحة رائحة خيمة أُغلقت واحدًا وعشرين يومًا في الخلاء: شعر الماعز، والغبار، والصوف القديم، وتحت ذلك كله شيء آخر، خفيف، حديدي، لا يكاد يُشم.

وأخرجت من كمها شمعة صغيرة، وحجرًا وزنادًا. وقدحت ثلاث مرات قبل أن تشتعل.

وصارت الخيمة.

كانت أوسع مما ظنت من الخارج. عمودان في الوسط، وحبال تمتد إلى الجوانب، وسقف من الشعر الأسود يرتفع ويهبط مع الريح، ببطء، كأن الخيمة تتنفس. وفي الجانب الأيمن سرير من جريد النخل، فارغ. وفي الوسط، على الأرض، بساط أحمر قديم، باهت، مرقّع في طرفين. وعليه لوح خشب، وقنديل مطفأ، ودواة مغلقة. ولم يحركها أحد منذ تلك الليلة، فقد أمرت قائدة الفرسان ألا يُحرك شيء.

ووضعت وردة الشمعة على الأرض، بعيدًا عن البساط. وجلست على ركبتيها، على حافته.

ونظرت إليه طويلًا.

لم تكن تعرف تمامًا لماذا جاءت.

قالت لنفسها، وهي تمشي بين الخيام في الظلمة، إنها جاءت لأن الغد سيكون صعبًا. أمام الحجر، أمام الإحدى والعشرين، وخردش بن ظميان ينظر إليها، والقبائل كلها تنتظر أن تقول اسمًا. ولم تكن قد أبصرت أمام الناس قط. كانت تبصر في المكتبة، في القبو، في غرفتها، وحدها أو مع نوسم. وكانت تعرف أنها حين تبصر، يتغير وجهها، وتتكلم أحيانًا دون أن تعرف، وتبكي أحيانًا. ولم تكن تريد أن يرى الناس ذلك، قبل أن تعرف هي ما ستراه.

وكان هذا صحيحًا.

لكنها كانت تعرف أن هناك سببًا آخر. سببًا رأته في وجه قائدة الفرسان حين قالت: غدًا. فقد رأت وردة في عمرها وجوهًا كثيرة تكذب. ليس كذبًا كبيرًا. كذبًا صغيرًا، كذب من يقول شيئًا صحيحًا ليخفي شيئًا صحيحًا آخر. وكان هذا هو الوجه.

ثم كان هناك نوسم. وما رأيتِ فلم تفهميه، فاكتبيه لي أولًا.

فإن رأت غدًا، أمام الناس، ما لا تفهمه، فلن تستطيع أن تكتبه له أولًا.

نزعت القفاز الأيسر.

ببطء. إصبعًا إصبعًا. وكان الجلد المدبوغ بالملح ثلاث مرات يلتصق بأصابعها، كأنه لا يريد أن يُنزع. ووضعته على ركبتها. ونظرت إلى يدها في ضوء الشمعة. كانت بيضاء، رقيقة، لم تمسسها الشمس منذ عشرين سنة. ولم يكن على أطرافها حبر.

ثم وضعتها على البساط.

جاء الأثر أولًا كما يأتي دائمًا من قماش قديم: كثيرًا، خفيفًا، مختلطًا، كأنه همس مئة إنسان في مكان واحد.

رأت أقدامًا. أقدام كثيرة، عارية ومنتعلة، تمشي على هذا البساط سنين وسنين. رأت أكواب لبن تُوضع وتُرفع. رأت تمرًا يُنثر. رأت أيدي أطفال تلعب بالحصى على الطرف المرقّع. وكان هذا كله خفيفًا، كالريح على الرمل. الفرح، واللقمة، والنوم. لا يبقى منها إلا قليل.

ثم شيء أثقل.

رجل. في الرابعة والثلاثين، طويل الوجه، أسود اللحية. يجلس حيث جلس ظميان، على الموضع نفسه، لأن البساط حفظ ثقله سنين حتى صار الصوف هناك أرق. وأمامه صبي. في العاشرة، أو أكثر قليلًا. واقف. ويداه على جانبيه. ووجهه أحمر.

وكان الرجل يتكلم. ولم تسمع وردة الكلام كله، لأن الأثر لا يحفظ الكلام كما يحفظه الكتاب. يحفظ الكلمات التي آلمت فقط.

...سيف. أنت سيف يا خردش. لا عقل.

والسيف يُستعمل، ولا يُستشار.

ورأت الصبي لا يبكي. رأته يقف، ويبتلع، وينظر إلى الأرض. ورأت يديه تنقبضان على جانبيه. ورأت، في الزاوية، في طرف الخيمة، رجالًا جالسين، يسمعون. ولم يقل أحد منهم شيئًا.

ثم ذهب الصبي، وذهب الرجل، وذهب المجلس.

وعرفت وردة، وهي على ركبتيها في الظلمة، ويدها على البساط، أنها رأت جرحًا عمره ثلاثون سنة. وأن صاحب الجرح يقسم الآن عند الحجر بأن يأخذ الحكم بيده.

ثم رأت الليلة.

عرفتها حين جاءت. فالأثر القريب أوضح من البعيد، كما يكون أثر القدم في الرمل أوضح حين يكون جديدًا. ورأت ظميان بن خردش، شيخًا هذه المرة، أبيض اللحية، يجلس على البساط، واللوح على فخذه، والقنديل إلى جانبه مشتعل.

كان يكتب.

ولم تر ما يكتب. كانت ترى يده فقط، والقلم، والحبر الأسود. لكنها كانت تسمع. فقد كان ظميان يقرأ ما يكتب، بصوت خفيض، يحرك شفتيه، كما يفعل الشيوخ الذين تعلموا القراءة متأخرين. وكان الأثر قد حفظ بعض ذلك، لأن الرجل كان يقرؤه بقلب ثقيل.

...الماء مشترك، لا يُحتكر بئر. وقد احتكرتُ...

...وأنا أول من نقض...

...فإن أوقفتِ الآلات، أعلنتُ أن سُرْدان لا تقاتل ولا تُحكم، وأن آبار الشعاب...

وتوقف. ووضع القلم. ونظر إلى ما كتب. ثم أخذ رقًّا آخر، أصغر، كان تحت الأول، وبدأ يكتب فيه شيئًا آخر، بخط أصغر. ولم تسمع منه شيئًا. لم يقرأه بصوت.

ثم دخلت امرأة.

ورأتها وردة، ولم تحتج أن تُخبر من هي. العباءة الرمادية. والحبل على المعصم. والوجه الذي رأته قبل ساعات على حافة السهل، والذي لم يكن يبتسم. لكنه كان في الأثر أصغر قليلًا، أقل تعبًا. كأن واحدًا وعشرين يومًا أضافت إلى هذا الوجه سنين.

ورأت قائدة الفرسان تجلس على طرف البساط. ورأت ظميان يقلب الرق. وسمعت.

...إذا قمتُ غدًا عند الحجر، وقلت كلامًا يغضب الجميع...

...لو كان حقًّا، لوقفت...

...حتى أمام أخيك؟

ولم يكن في الأثر من هذا الكلام إلا هذا. لأن الكلام كان ثقيلًا على من قاله، وعلى من سمعه. وحين خرجت قائدة الفرسان، رأتها وردة تقف عند الستر لحظة، قبل أن ترفعه، ويداها على جانبيها، كما كان الصبي يقف قبل ثلاثين سنة.

ثم رأت ظميان وحده.

كتب قليلًا في الرق الصغير. ثم توقف. ثم فعل شيئًا لم تفهمه: أمسك الرق الصغير بيديه، وشقه نصفين، ببطء، بعناية، كأنه يشق خبزًا. ونظر إلى النصفين. ووضع أحدهما على اللوح، تحت الرق الكبير. وأمسك الآخر في يده.

وأرادت وردة أن ترى أين وضعه. ومالت بكل ما فيها نحو تلك اللحظة.

لكن الأثر لا يُطوَّع. يأتي كما يأتي. ومرت اللحظة، ولم تر إلا يد الشيخ تتحرك نحو الطرف المرقّع من البساط، ثم ذهبت الصورة، كأن غيمة مرت على قمر.

ثم رأته يطفئ القنديل.

ويجلس في الظلمة. لا ينام. يجلس، ويداه على ركبتيه، ورأسه مرفوع قليلًا، كأنه يسمع شيئًا في الخارج. وكان الأثر هنا خفيفًا جدًّا، لأن الرجل كان هادئًا. هادئًا هدوءًا غريبًا. ليس هدوء من ينتظر الموت. بل هدوء من قرر شيئًا صعبًا، ووجد في قراره راحة.

ومر وقت. لا تعرف كم.

ثم سمعت الصوت.

اذهبا فكلا، فقد طال جوعكما.

صوت ظميان. واضحًا. عاليًا قليلًا، كما يكون الصوت حين يُوجه إلى من هو خارج الستر. وكان في الأثر قويًّا، لأن من سمعه في الخارج سمعه بقلب جائع، وارتاح له.

ونظرت وردة إلى ظميان.

ولم تكن شفتاه تتحركان.

كان جالسًا في الظلمة، كما كان، ويداه على ركبتيه، ورأسه مرفوع. وفمه مغلق. ورأت، في الأثر، أنه سمع الصوت أيضًا. رأت رأسه يلتفت قليلًا، ببطء، نحو الجهة التي جاء منها. رأت يديه تنقبضان على ركبتيه.

وجاء الصوت من داخل الخيمة.

ولم يكن في الخيمة أحد غيره.

ولم يكن قد قام عن البساط. لا قبل الصوت، ولا بعده، ولا في الليل كله. رأت ذلك كما يُرى ثقل الحجر على الرمل: الصوف تحته لم يخفّ مرة واحدة.

وشعرت وردة بالبرد يصعد في ذراعها من البساط. وأرادت أن ترفع يدها. ولم ترفعها.

ثم جاء الفراغ.

لم يكن ظلمة. كانت قد عرفت الظلمة في الأثر من قبل، حين تكون اللحظة لم تحفظ شيئًا، أو حفظت شيئًا ضعيفًا. الظلمة في الأثر كالظلمة في الليل، يُعرف أن وراءها شيئًا. أما هذا، فكان شيئًا آخر. كان أملس. مستويًا. فارغًا فراغًا تامًّا، كأن الزمن نفسه انقطع، ثم وُصل.

وعرفته.

عرفته لأنها شعرت به قبل أيام، على الجسر الأول في إلسوم، حين بحثت عن اسم الزقاق فلم تجده. الفراغ نفسه. الأملس نفسه. ليس نسيانًا. بل محوًا.

وكان طويلًا. أطول من أي لحظة.

ثم انتهى. ورأت ظميان بن خردش على البساط، مستلقيًا على جنبه، كأنه نام وهو جالس فمال. وخيط واحد رفيع أحمر عند العنق، لا يكاد يُرى.

ولم يكن الدم كثيرًا.

لكن الدم هو أقوى الأثر. هكذا قالت لقائدة الفرسان قبل ساعات، عند النار، وكانت تعرف ذلك كما تعرف اسمها. ولم تكن قد أعدت نفسها لما يعنيه ذلك هنا.

جاء الدم من تحت يدها، من البساط، من الصوف الذي شرب القطرات القليلة ولم يتركها. وجاء دفعة واحدة. ليس صورة. بل شيئًا يدخل فيها، من الجلد إلى العظم. ورأت، ليس بعينيها، بل بشيء أعمق، ما رآه ظميان في آخر لحظته.

ولم ير شيئًا.

لم ير وجهًا، ولا يدًا، ولا سكينًا. رأى الظلمة. وشعر ببرد عند عنقه، خفيف، كأن ريحًا مرت. وفكر، في تلك اللحظة، فكرة واحدة. ليست عن الموت. ولا عن ابنه. ولا عن البارئ.

الماء.

لم أقلها بعد.

ثم انقطع كل شيء.

ورفعت وردة يدها عن البساط، أو ظنت أنها رفعتها. ووجدت نفسها على جنبها، على الأرض، خارج حافة البساط، ووجهها على الحصير الخشن، والشمعة على بعد ذراع منها، تكاد تنطفئ. وكانت تتنفس بسرعة. وكانت يدها اليسرى ممدودة أمامها، عارية، بيضاء، ترتجف.

ولم تعرف كم بقيت كذلك.

ثم سمعت صوتًا. صوتًا في الأثر، لا في الخيمة. أو هكذا ظنت. صوتًا خفيضًا، من الخارج، من وراء الستر. صوت امرأة.

يا كبير القبائل.

ثم مرة أخرى، أعلى قليلًا.

يا كبير القبائل.

وعرفت الصوت. عرفته لأنها سمعته قبل ساعات عند النار. يقول: هل تنامين بهما. يقول: هذا قوسي.

وكان في الأثر قويًّا، أقوى من صوت ظميان نفسه. لأن من قالته قالته بقلب كان يعرف شيئًا. لم تعرف وردة ما هو. لكنها شعرت به، كما يشعر المرء بالحرارة من نار لا يراها. خوف. وشيء آخر تحته، أثقل من الخوف.

ثم سكت الصوت.

ولم يدخل أحد.

حين استطاعت أن تجلس، جلست. وأخذت القفاز عن الأرض، ولبسته، وأصابعها لا تطيعها. ثم ضمت يديها إلى صدرها، وأغمضت عينيها.

وحاولت أن تعدّ.

كانت تفعل ذلك دائمًا بعد الإبصار. تعدّ درجات برج نوسم، من الأولى إلى الأخيرة، حتى يهدأ قلبها. واحدة، اثنتان، ثلاث. وكانت تعرف أنها حين تصل إلى الأخيرة، تكون قد رجعت إلى نفسها.

واحدة، اثنتان، ثلاث... مئة... مئة وخمسون...

ووقفت.

كم؟

كم درجة؟

كانت تعرف. عدتها ألف مرة. منذ كانت في السادسة، على ظهر خادم المكتبة. وكان الرقم هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير قط، في كل ما تغير. وكانت تعرف أنه يبدأ بمئتين. مئتان و...

ولا شيء.

الفراغ نفسه. الأملس نفسه.

وفتحت عينيها، ونظرت إلى الشمعة، وكانت قد صارت ذبالة صغيرة تتراقص في بركة من الشمع. ولم تبك. ظنت أنها ستبكي، ولم تبك. جلست فقط، ونظرت إلى الشمعة، وقالت لنفسها بصوت لم يسمعه أحد:

هذا هو الثمن.

أخذتُ آخر ما رآه رجل ميت. ودفعتُ الدرج الذي كنت أصعده إلى البيت.

ارتفع الستر.

ولم تلتفت. عرفت من الخطوات، الطويلة، التي لا تسرع. ومن الريح الباردة التي دخلت. ومن الصمت.

ووقفت قائدة الفرسان عند الباب. ثم دخلت. ونظرت إلى الشمعة، ثم إلى البساط، ثم إلى وردة على الحصير. ولم تقل شيئًا.

ثم جلست على ركبتيها، على مسافة منها. ليست قريبة، وليست بعيدة. كما جلست وردة عند النار.

«رأيتِ؟» قالت أخيرًا.

«رأيت.»

«من؟»

ونظرت إليها وردة. وكان وجه قائدة الفرسان في ضوء الشمعة الأخير صلبًا، كما كان في الأثر، وكما كان عند حافة السهل. لكن العينين لم تكونا صلبتين. كانتا

تنتظران. وعرفت وردة ما تنتظران. ليس اسم القاتل.

«لم يكن هناك أحد،» قالت وردة.

ولم تفهم قيلة. «ماذا؟»

«لم يكن في الخيمة أحد. غيره.» وكان صوتها ثابتًا، أثبت مما ظنت. «رأيته يكتب. ورأيتك تدخلين، وتجلسين، وتخرجين. ورأيته وحده بعد ذلك. ثم سمعت صوته يأمر الحارسين أن يذهبا. ولم يكن هو الذي تكلم. ثم...» وسكتت.

«ثم؟»

«ثم لا شيء. فراغ. كأن أحدًا... أخذ تلك اللحظة من الأرض. ثم رأيته ميتًا.»

ونظرت إليها قيلة طويلًا.

«هذا مستحيل،» قالت. «أنتِ قلتِ لي ذلك. عند النار. لا أحد يدخل مكانًا ولا يترك أثرًا.»

«قلت ذلك.»

«فكيف...»

«لا أعرف.» ونظرت وردة إلى يديها في القفازين. «لا أعرف. هذه أول مرة. لم أر هذا قط. لم أقرأ عنه قط. في كل ما في المكتبة.» ثم رفعت عينيها. «وهذا ما لا أفهمه.»

وما رأيتِ فلم تفهميه، فاكتبيه لي أولًا.

وانطفأت الشمعة.

وجلستا في الظلمة. لم تتحرك أي منهما. وكان سقف الخيمة يرتفع ويهبط فوقهما مع الريح، ببطء، كأنها تتنفس.

ثم قالت وردة، في الظلمة، بصوت خفيض جدًّا:

«وسمعتك.»

ولم تجب قيلة.

«بعد ذلك. بعد الفراغ. بعد أن مات. سمعتك عند الباب. تقولين: يا كبير القبائل. مرتين. ولم تدخلي.»

ولم يأت من الظلمة شيء. لا صوت، ولا نفس. كأن قائدة الفرسان لم تعد هناك.

«كان صوتك في الأثر قويًّا،» قالت وردة. «أقوى من صوته. والأثر لا يحفظ الصوت قويًّا إلا إذا كان صاحبه...» ولم تكمل.

ومر وقت.

ثم قالت قيلة، والصوت قريب، أقرب مما ظنت وردة: «إلا إذا كان صاحبه ماذا؟»

«خائفًا.»

«نعم.»

«من ماذا؟»

ولم تجب قيلة.

وسمعت وردة في الظلمة شيئًا يتحرك. ثم شعرت بشيء يوضع على ركبتها. شيء طويل، خشبي، منحني، مشدود بوتر.

القوس.

«غدًا،» قالت قيلة. «ليس الآن. غدًا. قبل الحجر.» وسكتت. «إذا أردتِ أن تعرفي من ماذا، فاقرئيه.»

«هذا إذن؟»

«هذا إذن.»

ثم سمعت وردة الستر يرتفع، ورأت للحظة شريطًا من ظلمة أقل ظلمة، فيه نجوم، وفيه ظل امرأة طويلة. ثم انسدل الستر.

وبقيت وحدها، في خيمة رجل ميت، والقوس على ركبتيها، وبين يديها قفازان، وفي رأسها درج لا تعرف كم درجة فيه.

6. أخي

قرأت وردة القوس في الفجر، وقيلة جالسة أمامها، ولم تقل أي منهما كلمة.

كان ذلك في خيمة قيلة، وكان الضوء الرمادي الأول يدخل من الباب المرفوع. وضعت المبصرة القوس على ركبتيها، ونزعت القفاز الأيسر، ووضعت كفها على المقبض، حيث يلمع الخشب من كثرة ما أمسكته الأيدي. وأغمضت عينيها.

ولم تعرف قيلة أين تنظر. نظرت إلى وجه الفتاة أولًا، ثم أبعدت عينيها، كأنها ترى شيئًا لا ينبغي أن يُرى. ثم نظرت إلى يدها على القوس. ثم إلى الأرض.

ومر وقت. وكان وجه وردة يتغير فيه، كما تتغير صفحة الماء حين تمر عليها ظلال الغيم. مرة يرتخي، ومرة ينقبض. ومرة رأت قيلة شفتيها تتحركان بكلمة لم تسمعها. ومرة رأت دمعة تنزل على الخد الأيسر، ببطء، ولم تمسحها الفتاة.

ثم رفعت وردة يدها، وفتحت عينيها.

ولبست القفاز. ثم وضعت القوس على الأرض، بينهما، كما وضعته قيلة الليلة الماضية عند النار.

«جدتك،» قالت، «كانت تغني له. حين كانت تشد الوتر.»

لم تكن قيلة تتوقع ذلك. «أي غناء؟»

«لا أعرف الكلمات. أثرها خفيف. الغناء لا يبقى كثيرًا. وأبوك رمى به رجلًا. مرة واحدة. في الليل. وندم.»

ولم تقل قيلة شيئًا. لم تكن تعرف ذلك.

«وأنتِ...» ورفعت وردة عينيها إليها. «أنتِ أمسكتِه تلك الليلة بقوة. حتى آلمك. وكان السهم بين أصابعك، ولم تشديه.»

«ماذا رأيتِ؟»

«ما رأيتِه أنتِ.» وقالتها ببطء، كمن يضع شيئًا ثقيلًا على الأرض. «رجلًا يخرج من الخيمة. وجمرة. وأصابع زرقاء.»

لم تقل قيلة شيئًا مدة طويلة.

ثم قالت: «الآن تعرفين.»

«الآن أعرف.»

«وماذا ستقولين عند الحجر؟»

ونظرت إليها وردة. وفي عينيها السوداوين شيء رأته قيلة الليلة الماضية، شيء لم تفهمه. ليس خوفًا. شيء أقرب إلى الحيرة الصادقة، حيرة من لا يعرف حقًّا ماذا يفعل.

«لا أعرف،» قالت. «الأصابع الزرقاء... كل الحفظة أصابعهم زرقاء.»

«أعرف.»

«تيلم، ورفيقاه، وأهل المجلس، والنساخ، والطلاب. ألف في إلسوم. وأكثر.»

«أعرف.»

«وأنا لم أر في الخيمة أحدًا. رأيت فراغًا. فإن قلت عند الحجر إنكِ رأيتِ رجلًا من الحفظة يخرج، قالوا: الحفظة قتلوه. وإن قلت إني رأيت فراغًا، قالوا: المبصرة تكذب لتحمي أهلها.»

«نعم.»

«فماذا أقول؟»

ونظرت قيلة إلى الباب المرفوع، إلى الضوء الذي صار أبيض. وسمعت في الخارج صوت السهل يستيقظ. الجمال، والنساء عند البئر، وصوت الشيخ ذي العصا من بعيد، ينادي الشيوخ إلى الحجر.

«قولي ما فهمتِه،» قالت أخيرًا. «وما لم تفهميه...» وسكتت.

«ما لم أفهمه؟»

ونظرت إلى الفتاة. «ماذا قال لكِ من أرسلك؟»

وتغير وجه وردة. لحظة واحدة، ثم رجع. لكن قيلة رأته.

«قال: اكتبيه له أولًا.»

وقفت المبصرة عند الحجر في الضحى، أمام من بقي من القبائل.

كانوا أقل من نصف ما كانوا يوم القتل. ستة شيوخ من أهل الحلقة الجنوبية، ومعهم أهل الشعاب والشيخ ذو العصا. وأربعة من الأوفياء، أرسلهم خردش، ولم يأت هو. فقد أقسم ألا يظل تحت سقف، فهو منذ عشرين يومًا في العراء، في خيامه الشمالية، يقعد تحت السماء ليلًا ونهارًا. ولم يأت أحد من أهل الوحدة.

ووقف تيلم الناسخ إلى يمين وردة، ورفيقاه خلفه. ووقفت قيلة إلى يسارها، ومعها هفير وعشرة من الفرسان.

وقالت وردة ما فهمته.

قالت إنها لمست البساط في الخيمة، ورأت كبير القبائل يكتب ليلته. ورأت قائدة الفرسان تدخل عليه، وتجلس، وتخرج. ورأته وحده بعد ذلك. ورأته يطفئ القنديل، ويجلس في الظلمة. وسمعت صوتًا يأمر الحارسين أن يذهبا، ولم يكن صوته وإن كان يشبهه. ثم لم تر شيئًا. ثم رأته ميتًا.

وكان صوتها في البداية مرتجفًا، ثم ثبت. وكانت تتلعثم في الكلمة الأولى من كل جملة، ثم تمضي. ولم تبك. ولم تنظر إلى أحد.

ولم تقل شيئًا عن الأصابع الزرقاء. ولا عن صوت قائدة الفرسان عند الباب. ولا عن الرق الذي شُق نصفين.

وحين انتهت، سكت الجميع.

ثم قال أحد الأربعة من الأوفياء، رجل عريض، أشيب، بعين واحدة، وقد عرفته قيلة، فهو الذي قال لها يوم القتل: كنا نعرفكم: «صوت يشبه صوته، وليس صوته؟»

«نعم.»

«ولا ترين من قتله؟»

«لا.»

«ولا أثر؟»

«لا أثر.»

والتفت الرجل إلى الشيوخ، ثم إلى الناس، وقال بصوت عال: «فهذا ليس فعل إنسان.»

وسرى في الناس صوت كالريح في سعف النخل.

«هذا فعل من يستنطق،» قال الرجل ذو العين الواحدة. «من يأخذ الصوت من الأرض فيلبسه. من يمحو أثره. وفي دَيْمار كلها، من يفعل ذلك اليوم؟» ونظر إلى الشرق، إلى حيث تقع قلمير وراء الخلاء. «المستنطقون الجدد. رجال الآلات. رجال الإمبراطورة.»

«لم أقل ذلك،» قالت وردة. «لم أقل...»

لكن أحدًا لم يعد يسمعها.

حين رجعوا من الحجر، والناس يتفرقون، والأربعة من الأوفياء يركبون إلى الشمال بالخبر، مشت قيلة إلى جانب وردة، ولم تتكلم.

ثم قالت: «أحسنتِ.»

ونظرت إليها وردة. «أحسنت؟ قالوا: المستنطقون. سيقولونها في كل خيمة في الشمال قبل الليل.»

«كانوا سيقولونها على كل حال. أنتِ لم تقولي ما لا تعرفين. وهذا أحسن ما يقدر عليه أحد هنا.» وسكتت قيلة. «وأنا لم أقدر عليه.»

ولم تجب وردة.

ثم قالت، بعد خطوات: «سأكتب إلى نوسم الليلة.»

ووقفت قيلة.

«بماذا؟»

«بما لم أفهمه. وعدته.»

«الأصابع الزرقاء؟»

«الفراغ.» وسكتت وردة. ثم قالت، وصوتها أخفض: «والأصابع.»

ونظرت قيلة إلى الفتاة طويلًا. إلى المنديل الرمادي، والوجه الشاحب، والعينين السوداوين، والقفازين المخيطين بخيط أزرق. وأرادت أن تقول: لا تكتبي. وأرادت أن تقول: إن كان أحد في إلسوم يعرف ما جرى، فأول من يعرفه من أرسلك وطلب منك أن تكتبي إليه أولًا. لكنها لم تكن تعرف ذلك. لم تكن تعرف شيئًا.

«اكتبي،» قالت. «لكن لا ترسلي. حتى نتكلم.»

«لماذا؟»

«لأنكِ قلتِ لي الليلة الماضية إنكِ لا تقرئين أثر الأحياء بغير إذنهم.» ونظرت قيلة في عينيها. «وأنا أقول لكِ: لا ترسلي أثري إلى إلسوم بغير إذني.»

ونظرت إليها وردة. ثم أومأت.

جاء رسول الهدنة في العصر.

كان فارسًا من فرسانها، من الذين بقوا، وكان قد أرسلته قبل ثلاثة أيام إلى الغرب، إلى خيام أهل الوحدة، يحمل رسالة واحدة: قائدة فرسان البئر تطلب أن تلتقي فاقد بن نوقار عند بئر الغرين، بلا سلاح، والفرسان ضامنون.

ورجع الفارس بالجواب: نعم. غدًا. عند الزوال.

ولم تقل لأحد لماذا أرادت أن تلقاه. قالت لهفير إن الهدنة تحتاج من يتكلم بين الطرفين، وإن فاقد يسمع منها ما لا يسمعه من غيرها. وكان هذا صحيحًا. وقال هفير إن خردش لن يرضى. وكان هذا صحيحًا أيضًا. ولم يقل أي منهما السبب الآخر. فقد

رأى هفير، كما رأت هي، وجه فاقد يوم القتل، حين نظر إليها من بين الناس. نظرة من كسر شيئًا.

كانت بئر الغرين في منتصف الطريق بين السهل والوادي، في أرض منخفضة بين تلين من الحصى. وكانت يومًا بئرًا كبيرة، تسقي ثلاث قبائل. ثم جفت قبل مئتي سنة، أو أكثر، ولم ترجع. ولم يبق منها إلا الحجارة المرصوفة حول فوهتها، وبكرة خشبية متآكلة لم يأخذها أحد، لأن العرف يقول إن ما يبقى على البئر الميتة لا يؤخذ. ويقال إن حربًا قامت عليها قديمًا، قبل الميثاق، مات فيها خلق كثير، وإن ماءها لم يرجع لأنه لا يريد أن يرجع إلى أرض شربت كل ذلك الدم.

وكانت قيلة تعرف أن هذا قول العجائز. لكنها اختارت المكان لأنه لا لأحد.

وصلت قبل الزوال بساعة، ومعها هفير وحده. وتركت وردة في السهل مع هدران، ولم تقل لها إلى أين تذهب.

وجلست على حجارة البئر، وانتظرت.

جاء فاقد في الزوال تمامًا.

وكان هذا وحده كافيًا ليقول لها شيئًا. فأخوها الذي جاء متأخرًا إلى كل شيء في حياته، جاء الآن في وقته. لا قبله ولا بعده. وجاء على جمله الأبيض، ومعه رجل واحد من قبيلته، كما اتفقا. ولم يكن معه قلميريون.

ونزل عن الجمل، ومشى إليها. ووقف على بعد خطوات.

وقامت.

ونظر أحدهما إلى الآخر.

كان في وجهه، من قرب، ما رأته من بعيد يوم القتل، وأكثر. النحول، والجلد المشدود على العظام، والعينان الغائرتان. وكان في الفم، في طريقة إطباق الشفتين، شيء لا تعرفه. لم يكن في وجه أخيها قط. كأن أحدًا آخر يسكن وجهه، ويستعمله.

وكان على يده اليمنى خاتم من فضة، فيه حجر أزرق. خاتم قلميري.

«يا قيلة.»

«يا فاقد.»

ثم، لأن الأخ أخ، ولأن ما بينهما كان أقدم من الميثاق ومن الحرب ومن كل شيء، مشى إليها، ووضع يديه على كتفيها، ونظر في وجهها، كما كان يفعل حين كانت صغيرة ويريد أن يرى إن كانت قد بكت.

ثم أنزل يديه.

«نحفتِ،» قال.

«وأنت.»

«أنا أشرب ماء،» قال، وابتسم، ولم يكن في الابتسامة شيء. «أنتِ لا تعرفين لماذا تنحفين.»

جلسا على حجارة البئر الميتة، على طرفين. وابتعد هفير والرجل الآخر، كل منهما إلى تل، ووقفا ينظران إلى الأفق، وظهراهما إلى البئر.

وسكتا مدة.

ثم قال فاقد: «لم تطلبيني لتتكلمي عن الهدنة.»

«طلبتك لأتكلم عن الهدنة.»

«كذبتِ.» وقالها بلا قسوة، كما قالها ظميان في الخيمة. وفكرت قيلة، وهي تسمعه: كل الرجال في هذه الحكاية يقولون لي إني أكذب، وكلهم صادقون. «لو أردتِ الهدنة، لأرسلتِ إلى قلمير. الهدنة ليست بيدي. أنا شيخ قبيلة، وإن صار لي صوت عندهم.»

«صوت كبير.»

«صوت.» ونظر إلى البكرة المتآكلة على البئر. «الأصوات الكبيرة في قلمير لا تكون في سُرْدان.»

ثم سكت.

«ماذا تريدين يا قيلة؟»

ونظرت إليه. ولم تجد الكلمات التي رتبتها في الطريق. كانت قد رتبت أسئلة: أين كنت ليلة القتل؟ لماذا جئت متأخرًا ثم رجعت قبل الدفن؟ ماذا قلت لتيلم الناسخ عند الجمال؟ لماذا نظرت إليّ هكذا؟ وكانت كلها أسئلة الفارسة التي تحقق في القتل. وحين جلست أمامه، لم تكن فارسة.

«أمي،» قالت.

ونظر إليها بسرعة.

«لم نتكلم عنها قط،» قالت قيلة. «منذ ماتت.»

ولم يجب فاقد مدة. ثم أدار وجهه عنها، إلى الأفق، إلى الشرق، حيث الطريق التي جاء منها.

«ماذا تريدين أن تعرفي؟»

«كيف ماتت.»

«عطشًا.»

«أعرف أنها ماتت عطشًا.» وسمعت صوتها يرتفع، فخفضته. «كيف؟ أين؟ من كان معها؟ ماذا قالت؟ كنتُ في بئر العهود، أحرس الحجاج، حين جاءني الخبر. وحين وصلت، كنتم قد دفنتموها. والصغار الثلاثة معها. ولم يقل لي أحد شيئًا. أنت لم تقل لي شيئًا. ثلاث سنين.»

ونظر إليها فاقد. وكان في وجهه شيء تحرك، ثم ذهب.

«كنا نمشي من بئر الشق إلى بئر الصفاة،» قال، ببطء. «كانت بئر الشق قد جفت. وبئر الصفاة يومان. ومعنا ماء ليوم. القبيلة كلها. ستون نفسًا. لأن رجلًا من الرابطة قال لنا إن بئر الصفاة فيها ماء، وإنها لبني قيظ، وإنهم يعطون من يطلب.»

«وكانت فيها ماء.»

«كانت فيها ماء.» وسكت. «وعليها رجال بني قيظ. بالرماح. وقالوا: الماء لمن يدفع.»

«ودفعتم؟»

«بماذا؟» ونظر إليها، وكان في عينيه شيء لم تره فيهما قط، شيء صلب ولامع كحجر الصوان. «لم يكن معنا شيء. كانت الرابطة قد أخذت ما عندنا في السنة قبلها، ثمن الماء الذي باعته لنا في الجفاف الأول. فرجعنا. ووقفنا على الطريق بين البئرين، بين بئر جافة وبئر عليها رماح. وأرسلت إليك رسولًا. وأرسلت إلى بني قيظ رسولًا آخر، إلى ظميان نفسه. لا أعرف أيهما وصل أولًا.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

«ماتت في الليلة الثالثة،» قال فاقد. «كانت قد أعطت ماءها للصغار. لم يقل لها أحد. أعطته وسكتت. ولم نعرف إلا حين لم تقم.» ونظر إلى يديه. «والصغار

ماتوا بعدها. واحدًا في كل يوم. ابني آخرهم.»

«ابنك...»

«ابني.» وقالها بصوت لا شيء فيه. «كان في الرابعة.»

ولم تكن قيلة تعرف. لم يقل لها أحد. كانت تعرف أن ثلاثة صغار ماتوا، ولم تسأل من هم. لم تسأل. لأنها لم تقدر أن تسأل.

«وجاء رسول بني قيظ في اليوم الخامس،» قال فاقد، «يقول إن كبير القبائل يأذن لنا بالشرب. بعد أن دفنا الأربعة.»

وسكتا.

وكانت الشمس قد مالت قليلًا، وظل البكرة المتآكلة صار يمتد على الحجارة. وفي البعيد، على التلين، كان هفير والرجل الآخر واقفين كما هما، كأنهما من حجر.

«وجاءني بعدها رجل من قلمير،» قال فاقد، دون أن تسأله. «بعد سنة. قال: عندنا ماء. من الأرض. يجري في قنوات، كالنهر. لا يملكه أحد، ولا يُباع. لكل من يقبل. وقال: الإمبراطورة لا تسأل عن الميثاق. تسأل عن الأطفال. فقبلت.»

«قبلت ماء الآلات.»

«قبلت ماء.» وكان صوته صلبًا الآن. «لم يبق لي أطفال يا قيلة. لكن في القبيلة أطفال. ستة عشر. واليوم عشرون، لأن النساء صرن يلدن مرة أخرى. لأن هناك ماء. هذا ما قبلته.»

«والميثاق يقول...»

«الميثاق يقول: الماء مشترك، لا يُحتكر بئر.» وقام فاقد عن الحجارة، فجأة، ووقف أمامها. «هذا أول بند. أول بند يا قيلة. قبل الدم، وقبل التسخير، وقبل

الآلات. الماء مشترك. وكان ظميان بن خردش يحتكر آبار الشعاب الثلاثة ثلاث عشرة سنة، وكان الناس يموتون على الطرق، وكان الأوفياء الذين يرفعون الميثاق اليوم في وجهي يشربون من تلك الآبار ويسكتون. وأنتِ...» وسكت.

«وأنا؟»

«وأنتِ كنتِ تحرسين.»

ولم تقل شيئًا. لم يكن عندها ما تقوله.

ثم جرى شيء لم نتوقعه.

جاء من التل الغربي، حيث كان رجل فاقد واقفًا، صوت. ثم رأت الرجل ينزل التل بسرعة، ويجر وراءه شيئًا. صبيًّا. في العاشرة أو أكثر قليلًا، نحيفًا، حافيًا، في ثوب ممزق. وكان الرجل يمسكه من ذراعه، والصبي لا يقاوم.

«يا شيخ،» قال الرجل، وهو يلهث. «وجدته وراء التل. كان يتبعنا من الخيام. ومعه هذه.»

ورفع قربة صغيرة من جلد. ملأى.

ونظر فاقد إلى الصبي. ثم إلى القربة. ثم إلى الصبي مرة أخرى.

«من أين؟»

ولم يجب الصبي. نظر إلى الأرض.

«من القناة،» قال الرجل. «من حصة الخيمة السابعة. رأته المرأة أمس يملأ، وظنته من أهلها.»

«ومن أهله؟»

«ليس من أهلنا يا شيخ. من أهل الشعاب. جاء من السهل.»

ونظرت قيلة إلى أخيها.

ولم يكن في وجهه شيء. لا غضب ولا شفقة. كان وجهه كما كان حين جلس على الحجارة. لكنها رأت شيئًا في الفم، في الشفتين المطبقتين، ورأت يده اليمنى، بالخاتم الفضي ذي الحجر الأزرق، تنقبض.

«الماء لمن قبل،» قال فاقد. «هذا هو العهد مع قلمير. من قبل، شرب. ومن لم يقبل، لم يشرب. وإن شرب من لم يقبل، قطعوا الماء عن الخيام كلها.» ونظر إلى الصبي. «أتعرف ذلك؟»

وأومأ الصبي، دون أن يرفع رأسه.

«فلماذا؟»

«أختي،» قال الصبي. بصوت لا يكاد يُسمع.

ولم يقل فاقد شيئًا مدة.

ثم قال للرجل: «عشر جلدات. أمام الخيمة السابعة. حتى يراه الجميع.»

«فاقد!»

ونظر إلى أخته.

«هو صبي،» قالت قيلة، وكانت قد قامت. «ومعه قربة واحدة. لأخته.»

«ومعه، إن تركته، عشرون صبيًّا غدًا. ومعهم مئة بعد غد. ثم تقطع قلمير الماء عن الجميع.» ولم يرتفع صوته. «أنتِ تعرفين حساب الآبار يا قيلة. تحرسينها منذ عشر سنين. البئر لا تعطي أكثر مما فيها.»

«هذا ما كان يقوله بنو قيظ.»

ونظر إليها فاقد.

وكانت قد قالتها دون أن تفكر. ورأت الكلمة تصيبه. رأتها تدخل فيه، كما يدخل السهم. ورأت وجهه يبيض، ثم يحمر، ثم يرجع كما كان.

ثم التفت إلى الرجل، وقال: «خمس.»

ومشى الرجل بالصبي إلى الجمال.

لم يتكلما بعد ذلك مدة طويلة.

ثم قال فاقد، وهو يقف عند جمله، ويده على السرج: «تعالي معي.»

ونظرت إليه.

«تعالي معي يا قيلة. إلى الوادي. أريكِ القنوات. أريكِ الماء يجري. أريكِ الأطفال. ثم قولي لي إن الميثاق أهم.»

«لا أستطيع.»

«لأنك فارسة.»

«لأني فارسة.»

«والفرسان لا يميلون.» وابتسم، تلك الابتسامة التي لا شيء فيها. «حتى إلى من يقول الحق. حتى لو قال كبير القبائل نفسه إن أخاكِ صادق.»

ووقفت قيلة.

«ماذا قلت؟»

ولم يجب فاقد. لكن شيئًا مر في وجهه. ظل. ورأته.

«من قال لك إنه قال ذلك؟»

«الناس يقولون...»

«الناس لم يسمعوه.» وكانت قد مشت إليه، ووقفت أمامه، قريبًا. «قالها مرة واحدة. لي وحدي. في خيمته. ليلة قُتل. أخوك صادق. ولم يكن في الخيمة غيرنا.»

ونظر إليها أخوها.

ورأت في عينيه، للحظة واحدة، أخاها. الصبي الذي علمها الرمي على جذوع النخل. الذي كان يكسر الأشياء، ويريدها ألا تقول. ورأت فيهما شيئًا أكبر من أي شيء كسره من قبل.

«قالها لك قبل أن يقولها لي،» قالت ببطء. «متى لقيته يا فاقد؟ متى لقيت ظميان؟»

وأدار فاقد وجهه.

«لا أعرف ما تقولين.»

«فاقد...»

«أقول لكِ ما قاله أبونا،» قال، وركب الجمل، ونظر إليها من فوقه. «آل نوقار لا يخمّنون. آل نوقار ينتظرون.» ولوى رسن الجمل. «فانتظري يا قيلة.»

ومضى. ومضى رجله خلفه، والصبي بين يديه.

ووقفت قيلة عند البئر الميتة، والشمس تميل، وظل البكرة المتآكلة يطول على الحجارة. وجاء هفير من التل، ووقف إلى جانبها، ولم يقل شيئًا.

ثم قال: «لقيه.»

«نعم.»

«متى؟»

«لا أعرف.» ونظرت إلى الطريق التي مضى فيها أخوها، والغبار الذي تركه، يرتفع ويخفت. «لكن ظميان قال لي تلك الليلة: أخوك صادق. وأخي يعرف أنه قالها. وكلاهما لم يقل لي الحقيقة.»

وركبا. وفي الطريق إلى السهل، لم تلتفت إلى الوراء.

لكنها كانت تفكر في الصبي. وفي أخته التي لا تعرف اسمها. وفي خمس جلدات. وفي الكلمة التي قالتها لأخيها، والتي كانت صحيحة، وكانت أقسى شيء قالته في حياتها.

7. أول الحرب

جاء الخبر في الليلة الرابعة والعشرين، مع فتى من أهل الشعاب على جمل أعرج.

كانت قيلة قد نامت أول الليل، أول مرة منذ القتل تنام قبل منتصفه، وأيقظها هفير بيده على كتفها. ولم يتكلم. أشار إلى باب الخيمة، حيث وقف الفتى، يلهث، والعرق يجري على وجهه في برد الليل، يحمل في يده حبلًا من وبر أحمر.

حبل الأوفياء. الحبل الذي يربطونه على معاصمهم منذ أقسم خردش.

«وجدته على الطريق،» قال الفتى. «في الشعب الشمالي. معلقًا على شجرة طلح. وعلى الشجرة الأخرى مثله. وعلى الثالثة.» وسكت ليتنفس. «ثلاثون شجرة يا قائدة. على طريق القوافل. كلها عليها حبال حمر.»

وقامت قيلة.

كانت تعرف هذا. كل من في سُرْدان يعرفه. حين تعلق القبيلة حبالها على الطريق، فهي تقول لمن يمر: هذا الطريق لنا، ومن مر فيه بغير إذننا فدمه علينا. كان هذا عرفًا قبل الميثاق. ثم نسخه الميثاق، فلم يعلقها أحد منذ نحو اثني عشر قرنًا، ولم يبق منه إلا في حكايات العجائز.

«وقافلة قلمير؟» قالت.

«تمر في الشعب بعد غد. مع الفجر. هكذا يقولون في الخيام.» ونظر إليها الفتى. «الماء لأهل الوحدة في الحلقة الجنوبية. اثنتا عشرة عربة.»

«والشعب الشمالي...»

«في حمى البئر يا قائدة.» قالها هفير، من ورائها، بصوت خفيض. «يوم من البئر. في الحمى.»

حمى بئر العهود دائرة على الأرض، لا يراها أحد، ويعرفها الجميع.

يوم بالجمل من البئر في كل جهة. ولا يُسفك فيها دم. هذا ما قاله الميثاق، وهذا ما أقام الفرسان ليحرسوه. لا يُسفك فيها دم، ولا يُحمل فيها سلاح إلا للفرسان، ولا يُمنع فيها أحد من الماء. وكان الفرسان ثلاثمئة، ثم صاروا مئتين وستين، يحرسون دائرة لا يراها أحد، في أرض لا يملكها أحد، لأن ميثاقًا مكتوبًا قبل اثني عشر قرنًا قال إنها لا لأحد.

وكانت قيلة تعرف أن هذا كله لا يساوي شيئًا إن قرر رجل واحد أنه لا يساوي شيئًا.

ركبت إلى خردش في الفجر.

كانت خيامه في الشمال، على حافة الحمى، في أرض منبسطة بين كثبان صغيرة. ولم تكن خيامًا كخيام القبائل التي تأتي للاجتماع. كانت خيام حرب: قصيرة، داكنة، بلا زينة، وبينها الجمال باركة وعليها رحالها، كأنها تنتظر أن تقوم. ورأت في الطريق حبلين أحمرين على عودين من الطلح مغروسين في الرمل. ولم تقف.

ووجدته في العراء، كما قالوا.

كان جالسًا على الرمل، بين خيمتين، تحت السماء، وظهره إلى جذع نخلة ميتة لم يبق منها إلا ساقها. وعلى كتفيه عباءة من وبر خشن، وأمامه نار صغيرة من بعر الإبل. ولم يقم حين رآها.

وكان قد تغير. لم يمض على القسم إلا أربعة وعشرون يومًا، لكن الوجه الذي رأته يوم القتل، الأسمر، الممتلئ، صار وجهًا آخر. خدان غائران، وشفتان متشققتان، وعينان أكبر مما ينبغي. وكانت إلى جانبه قصعة من خشب، وفيها لبن.

لبن نوق. لا ماء.

وفهمت. أقسم ألا يشرب ماء حتى يعرف، فهو يشرب اللبن. لبن النوق وحده. والرجل لا يعيش على اللبن وحده أكثر من أشهر، ويضعف. لكنه لا يموت. كان قسمه حسابًا، لا جنونًا. وفكرت قيلة، وهي تنزل عن الفرس: هذا ابن ظميان. يعرف كم يستطيع أن يجوع.

«يا بنت نوقار.»

«يا ابن ظميان.»

وأشار إلى الرمل أمامه. فجلست.

ولم يعرض عليها اللبن.

«الحبال،» قالت.

«الحبال.»

«نسخها الميثاق.»

«الميثاق نسخ أشياء كثيرة.» ورفع القصعة، وشرب منها جرعة صغيرة، ووضعها. «نسخ الثأر، ونسخ الحبال، ونسخ الاحتكار، ونسخ التسخير. فما الذي بقي

منسوخًا؟»

«الدم في الحمى.»

«لا دم في الحمى. القافلة تمر في الشعب، والشعب في الحمى. فإن مرت، لم يُسفك فيها دم. نحن لا نريد دمها. نريد ماءها.»

«ماؤها لأهل الوحدة.»

«ماؤها مسروق.» ولم يرفع صوته. وكان هذا ما أخافها أكثر من أي شيء. كان صوته هادئًا، كصوت أبيه. «أتعرفين من أين يأتي ذلك الماء يا قائدة؟ من تحت الأرض. من العروق التي في الصخر. الماء الذي كان يجري إلى آبارنا. إلى بئر العهود نفسها.» وأشار بيده إلى الجنوب، إلى حيث تقع البئر وراء الأفق. «أنزلي حبلك غدًا، وقيسي. كم ذراعًا نزل الماء منذ بنوا الصومعة الأولى؟»

ولم تجب قيلة. لم تكن تعرف. لكنها تذكرت الحبل، ليلة القتل، وكيف كان أقصر مما ينبغي.

«ثلاثة أذرع في سنتين،» قال خردش. «قاسه أبي. وكتبه. والحفظة يعرفون. وقلمير تعرف. والإمبراطورة تعرف. فهي لا تُخرج الماء من العدم. تأخذه من تحتنا، وتجريه في قنواتها، وتعطيه لمن يقبل. لمن يقبل، يا قائدة. الماء الذي يقول الميثاق إنه مشترك، صار ماء لا يُعطى إلا بشرط. فأي احتكار أكبر من هذا؟»

«وأبوك...»

«أبي احتكر آبار الشعاب.» وقالها فورًا، قبل أن تكملها، كأنه انتظرها. «أعرف. كل الناس يقولونها الآن. وكانوا يشربون منها ويسكتون، وهو حي.» ونظر في النار. «أبي أخطأ. وأبي قُتل. وأنا أقول لكِ: خطيئته لا تحل دمه، ولا تحل ماء قلمير.»

سكتا.

وفي الخيام من حولهما، كان الرجال يستيقظون. ورأت قيلة بينهم شبانًا كثيرين، أصغر من أن يكونوا قد رأوا حربًا. وعلى معاصمهم الحبال الحمر. وكانوا ينظرون إليها، وإلى عباءتها الرمادية، وإلى السيف على جنبها، وفي عيونهم ما لم تكن تراه في عيون الناس من قبل. كانوا ينظرون إلى الفرسان كما ينظرون إلى غريب.

«إن أخذتم الماء،» قالت، «سترسل قلمير جنودًا. أكثر من ستة. وسيأتون بأسلحة. ويقولون إن الأوفياء نقضوا الحمى أولًا.»

«فليقولوا.»

«ويقولون إن الفرسان لم يحرسوها.»

«فاحرسيها.» ورفع عينيه إليها. «احرسيها منّا. أو احرسيها معنا.»

ونظرت إليه.

«هذا ما جئتِ تسألين عنه،» قال خردش. «ليس الحبال. تريدين أن تعرفي ماذا ستفعلين حين تمر القافلة. وأنا أقول لكِ: اختاري. الفرسان لا يميلون، هذا ما تقولونه. لكن من لا يميل، يميل مع من هو أقوى. ومن هو أقوى اليوم يا قائدة؟ نحن بحبالنا، أم هم بآلاتهم؟»

وقام. وكان طويلًا، وكان النحول قد جعله أطول. ونظر إليها من فوقها.

«قلتِ يوم دفنّا أبي إنكِ لا تعرفين من دخل عليه.» وسكت. «وأنا صدقتكِ. لأن بنت نوقار لا تكذب، هكذا قالوا لي. والآن جاءت مبصرة من إلسوم، ونظرت في خيمته، وقالت: صوت كصوته، وفراغ لا أثر فيه. فعلى من أصدق يا قائدة؟ على المبصرة التي لا ترى، أم على الفارسة التي لم ترَ؟»

ولم تقل قيلة شيئًا.

ورأته ينظر إليها مدة. ثم أدار ظهره، ومشى إلى الخيام.

في الليلة الخامسة والعشرين جمعت قيلة الفرسان.

لم يكونوا كلهم. كان نصفهم في نوبات الحراسة على الطرق، والبئر، والمقابر، والقبائل التي بقيت في السهل. لكن مئة منهم جاؤوا، ووقفوا في حلقة حول نار كبيرة أمام خيمتها، بعباءاتهم الرمادية وحبالهم على معاصمهم. حبال الفرسان، الخضراء، التي لا يربطها إلا من أقسم ألا يميل.

وقالت لهم ما قررته.

قالت إنهم سيركبون إلى الشعب الشمالي قبل الفجر، ستين فارسًا. وإنهم سيقفون في الطريق، بين القافلة والأوفياء. وإنهم لن يرفعوا سلاحًا على أحد. لا على الأوفياء، ولا على جنود قلمير. وإنهم سيقولون للطرفين: هذه الحمى، ولا دم فيها. ومن أراد أن يسفك فيها دمًا، فليبدأ بالفرسان.

وسكت الفرسان.

ثم قال أحدهم: «وإن بدأوا؟»

وكان اسمه زَعْبَل. فتى من أهل الحلقة الشمالية، في التاسعة عشرة، دخل الفرسان قبل سنتين، وكان أسرع من فيهم على الفرس، وأشدهم رميًا بعدها. وكان أبوه من الأوفياء. وكانت قيلة تعرف ذلك.

«لن يبدأوا.»

«وإن بدأوا يا قائدة؟» وتقدم خطوة. «إن طعن رجل من قلمير رجلًا من الأوفياء أمامي، أأقف وأنظر؟»

«تقف.»

«وإن طعن رجل من الأوفياء رجلًا من قلمير؟»

«تقف.»

«فما نفع السيف إذن؟»

ونظرت إليه قيلة. وتذكرت ليلة القتل. والسهم بين أصابعها، والقوس غير مشدود، والرجل يمشي في الظلمة نحو الحجر.

«السيف للحمى،» قالت. «لا لمن فيها.»

ونظر إليها زعبل. ثم نظر إلى الفرسان من حوله. ورأت قيلة في وجوههم ما رأته في وجه هفير حين أخبرته: أن الكلام صحيح، وأنه لا يكفي.

«سأركب،» قال زعبل أخيرًا. «لأنكِ قائدتي. لكن لا تطلبي مني أن أنظر إلى أبي يموت.»

وصلوا إلى الشعب الشمالي قبل الفجر بساعة.

كان الشعب واديًا ضيقًا بين جبلين صغيرين من الحجر الأسود، يمر فيه طريق القوافل من أرض القنوات في الشرق إلى السهول الجنوبية. وكان في أوله أشجار طلح قليلة، متفرقة، وعلى كل شجرة حبل أحمر، يتحرك في ريح الفجر الباردة كأنه حي. وفي آخره، حيث ينفتح الشعب على السهل، كانت الأرض مستوية، صلبة، مغطاة بالحصى.

ووقف الفرسان الستون في وسط الشعب، صفًا واحدًا، من الجبل إلى الجبل. عباءات رمادية في الظلمة الزرقاء.

ولم يروا أحدًا.

لكنهم سمعوا. على الجبل الشرقي، فوقهم، صوت الحصى يتحرك تحت أقدام كثيرة. وصوت جمل يرغو، ثم يسكت فجأة كأن يدًا أمسكت فمه.

«فوقنا،» قال هفير، بصوت خفيض. «على السفح. ينتظرون.»

«كم؟»

«مئتان. أو أكثر.»

ونظرت قيلة إلى الأعلى، إلى السفح المظلم، ولم تر شيئًا. لكنها عرفت أنه هناك. خردش. ينظر إليها من فوق، كما نظر إليها حين قام عن النار.

جاءت القافلة مع أول الضوء.

سمعوها قبل أن يروها. صوت لم تسمعه قيلة قط في سُرْدان: صرير خشب على حديد، وطقطقة منتظمة، كدقات قلب كبير بطيء. ثم رأتها تدخل الشعب من الشرق. اثنتا عشرة عربة، على كل عربة برميلان كبيران من خشب مطوق بالحديد، وكل عربة يجرها بغلان. والعجلات كبيرة، مطوقة بالحديد أيضًا، تطحن الحصى تحتها.

لم يكن في سُرْدان عربات. كانت القبائل تحمل الماء على الجمال، في قرب من جلد. والعربة شيء قلميري، شيء من المدن، من الأرض المستوية التي فيها طرق مرصوفة. وكان منظرها في الشعب، بين الجبلين الأسودين، كمنظر سفينة في رمل.

وحول العربات جنود. عشرون، لا ستة. بدروع من صفائح مصقولة، ورماح طويلة، وعلى صدورهم شعار الإمبراطورة: عين تقطر منها قطرة. وأمامهم رجل على فرس، بلا درع، في ثوب أسود طويل، ويداه عاريتان.

«مستنطق،» قال هفير.

ورأت قيلة يديه. كانتا عاديتين، يدي رجل في الأربعين. لكن الجنود من حوله كانوا يتركون بينهم وبينه مسافة، كما يترك الناس مسافة بينهم وبين نار.

ركبت قيلة إلى الأمام، وحدها، حتى وقفت على بعد عشرين خطوة من الرجل ذي الثوب الأسود. ورفعت يدها اليمنى، مفتوحة، فارغة.

«أنتم في حمى بئر العهود،» قالت بصوت عال، حتى يسمعه من على الجبل. «لا دم في الحمى. والفرسان ضامنون.»

ونظر إليها الرجل. وكان وجهه هادئًا، لطيفًا تقريبًا، وعيناه رماديتان.

«نعرف،» قال. وكانت لهجته قلميرية، يقلب القاف همزة. «ولهذا مررنا من هنا. لأن الحمى لا دم فيها.» وابتسم. «أم تغير الميثاق منذ أمس؟»

«على الجبل رجال.»

«أعرف.» ولم يرفع عينيه إلى الجبل. «أراهم منذ ساعة.»

«فارجع.»

«الماء لأهل الوحدة في الجنوب. ثلاث قبائل. ألف نفس. نصفهم أطفال. أتريدين أن أرجع به؟»

ولم تجب قيلة.

«ظننت ذلك،» قال الرجل. وحرك فرسه خطوة إلى الأمام.

وجاء من الجبل الشرقي صوت. صوت واحد، طويل، كصوت قرن. ثم صرخة. ثم كان السفح كله يتحرك.

نزلوا كالسيل.

مئتان، أو أكثر. على الجمال، وعلى الأقدام، وبعضهم على خيل. بالرماح والسيوف والعصي. والحبال الحمر على معاصمهم. ولم يصرخوا. كان هذا ما تذكرته قيلة بعد ذلك أكثر من أي شيء: أنهم لم يصرخوا. كان صوتهم صوت الحصى تحت أقدامهم، وصوت الجمال، وصوت أنفاسهم.

ولم يأتوا إلى الفرسان. التفوا عليهم، من الطرفين، عند الجبلين، حيث كان الصف الرمادي لا يكاد يمسك الحجر. ومرّوا. وكان الفرسان واقفين، والسيوف في أغمادها، كما أمرتهم، والأوفياء يمرون من حولهم كالماء حول حجر.

«قفوا!» صرخت قيلة. «الحمى! الحمى!»

ولم يقف أحد.

ورأت الجنود القلميريين يغلقون حول العربات، دائرة من الدروع المصقولة والرماح. ورأت أول جمل يصل إلى الدائرة، ورأت رمحًا قلميريًا يدخل في صدره، ورأت الجمل يسقط، ويسقط راكبه عنه.

ثم كان الشعب كله صوتًا واحدًا.

لم تستطع قيلة بعد ذلك أن تقول بالترتيب ما جرى.

تذكرت أشياء. صورًا متفرقة، كما تتذكر وردة الأثر.

تذكرت رجلًا من الأوفياء يتسلق عربة، ويضرب البرميل بفأس. وتذكرت الماء يخرج من البرميل، ليس دفقًا بل شريطًا رقيقًا لامعًا في الضوء الأول، وينزل على الحصى. والحصى لا يشربه. الحصى يتركه يجري عليه، بين الحجارة، إلى الرمل. والرمل يشربه.

وتذكرت أنها قالت، دون أن تسمع نفسها: «لا.»

وتذكرت زعبل، على فرسه، في وسط الأوفياء، يصرخ باسم أبيه. وتذكرت أنه لم يكن قد سل سيفه بعد.

وتذكرت هفير إلى جانبها، يمسك رسن فرسها، يقول شيئًا لم تسمعه.

وتذكرت المستنطق.

كان قد نزل عن فرسه، ووقف بين عربتين، ويداه مرفوعتان أمامه، والكفان إلى الأعلى. وكان رجلان من الأوفياء يركضان إليه بالسيوف. ورأته يغمض عينيه.

ثم كانت في كفيه نار.

لم تكن نارًا كنار الحطب. كانت أصفى، وأشد بياضًا في وسطها، صفراء في أطرافها، ولا دخان لها. وكانت لا تحرق كفيه. كانت تجلس فيهما، كما يجلس الماء في إناء. ثم مد يديه إلى الأمام.

وتذكرت قيلة الصوت. ليس صوت النار. صوت الرجلين.

ثم تذكرت الرائحة.

حين انتهى، كان قد مضى أقل من ساعة.

كان الأوفياء قد رجعوا إلى الجبل، يحملون جرحاهم. وكان الجنود القلميريون قد أغلقوا حول ما بقي من العربات. سبع. وكانت الخمس الأخرى مقلوبة على جانبها، وبراميلها مثقوبة، والماء الذي كان فيها صار بقعًا داكنة على الرمل في آخر الشعب، تجف تحت الشمس الطالعة، وتصير فاتحة، ثم لا تُرى.

وكان على الأرض ثلاثة.

رجلان من الأوفياء، عند العربة التي وقف عندها المستنطق. لم تنظر إليهما قيلة طويلًا. ورجل من قلمير، جندي شاب، بدرعه المصقولة، ورمح الأوفياء في

جنبه. كان على ظهره، وعيناه مفتوحتان إلى السماء.

ونزلت عن فرسها، ومشت إلى الجندي الميت، ووقفت فوقه.

كان صغيرًا. أصغر من زعبل. وكان وجهه شاحبًا، وشعره أشقر، كأهل الدلتا. ولم تكن تعرف اسمه. ولن تعرفه.

جاء المستنطق إليها.

كان قد غسل يديه. لم تعرف بماذا. ربما بالماء الذي انسكب. ووقف على الطرف الآخر من الجندي الميت، ونظر إليه. ثم نظر إليها.

وكان وجهه قد تغير. لا في ملامحه. في شيء آخر. كان هادئًا كما كان قبل الهجوم، لكن الهدوء صار شيئًا مختلفًا. كهدوء الحجر.

«قلتِ إن الفرسان ضامنون،» قال.

«قلتُ.»

«ضمنتِ ماذا؟»

ولم تجب.

ونظر إلى الرجلين من الأوفياء عند العربة. ونظرت قيلة معه. ورأت في وجهه شيئًا لم تفهمه أول الأمر. ثم فهمته، وبرد شيء في صدرها.

لم يكن في وجهه شيء.

لا ندم. لا غضب. لا شيء من الذي يكون في وجه رجل حين ينظر إلى من قتلهم بيديه. كان ينظر إليهما كما ينظر الرجل إلى حجرين في الطريق.

«ستدفع ثمن ذلك،» قالت قيلة، ولم تعرف لماذا قالتها.

«دفعتُه.» ونظر إليها، ولأول مرة رأت في عينيه الرماديتين شيئًا يشبه الحزن. حزنًا بعيدًا، كأنه يتذكر أنه كان يجب أن يحزن. «ألا ترين؟ دفعته وأنا أشعلها.» ورفع يديه، ونظر إليهما. «الإيقاد يأخذ ما يأخذ. والذي أخذه مني الليلة...» وسكت. «كنت سأبكي على هذين الرجلين قبل سنة. أعرف ذلك. أتذكره. لكني لا أجده.»

ثم أدار ظهره، ومشى إلى العربات.

وصل خردش إلى الشعب حين كان الجنود يربطون البغال من جديد.

لم يأت من الجبل. جاء من الشمال، على جمله، وحده، بطيئًا. ونزل عند الرجلين من الأوفياء، وجثا، ووضع يده على وجه كل منهما. ثم قام، ومشى إلى قيلة.

ووقف أمامها.

ونظرت إليه. وانتظرت أن يقول شيئًا. أن يصرخ. أن يضربها. أن يسألها لماذا لم تقاتل معهم، أو لماذا لم تقاتل ضدهم.

ولم يقل شيئًا من ذلك.

قال: «أحدهما ابن عمي.»

ثم قال: «وقفتِ.»

«وقفتُ.»

«كما وقفتِ عند خيمة أبي.»

ونظرت إليه قيلة.

لم يكن يعرف. لم يكن يمكن أن يعرف. كان يقولها كما يقول الرجل كلمة ثقيلة يرميها، دون أن يعرف أين تقع. لكنها وقعت. ورأى خردش ذلك في وجهها. رأى شيئًا. ولم يعرف ما هو.

وسكت، ونظر إليها مدة.

ثم ركب جمله، ومضى إلى الشمال.

حين رجعت إلى السهل في العصر، كان معها سبعة وعشرون فارسًا.

ستون ركبوا معها في الفجر. وعشرة جُرحوا، فحملهم رفاقهم إلى خيام المداواة. وثلاثة وعشرون لم يرجعوا معها. ركبوا إلى الشمال، خلف خردش، بعد أن نزعوا حبالهم الخضراء ورموها على الحصى في آخر الشعب، عند البقع الفاتحة التي كانت ماء.

وكان زعبل أولهم.

لم يقل لها شيئًا. وقف أمامها، ونزع الحبل الأخضر عن معصمه، ووضعه في يدها، لا على الأرض. وكان على ساعده جرح جديد، لم يكن من سيف. حرق. ونظرت قيلة إلى الحرق، ثم إلى وجهه.

«أبي كان أحد الاثنين،» قال زعبل.

ثم ركب.

وكانت وردة تنتظرها عند الخيمة.

لم تكن قد ذهبت معهم. أمرتها قيلة أن تبقى، وبقيت. وكانت جالسة على الأرض عند باب الخيمة، والقفازان في يديها، وفي حجرها شيء ملفوف في قماش.

وحين رأت قيلة تنزل عن الفرس، ورأت وجهها، ورأت الحبل الأخضر في يدها، قامت.

ولم تسأل.

وكانت قيلة شاكرة لذلك أكثر من أي شيء في ذلك اليوم.

دخلتا الخيمة. وجلست قيلة على الأرض، ولم تنزع عباءتها، وكانت عليها بقع لم تنظر إليها. وجلست وردة أمامها.

ثم قالت المبصرة: «ذهبتُ إلى الخيمة مرة أخرى. في الضحى. حين كنتم في الشعب.»

ونظرت إليها قيلة.

«قلتُ لكِ إن ظميان شق رقًّا صغيرًا نصفين،» قالت وردة. «وإنه وضع نصفه تحت الرق الكبير، والنصف الآخر... لم أرَ أين. حركه نحو الطرف المرقّع من البساط. فعدت إلى الطرف المرقع. ولم ألمسه هذه المرة. فتحته.»

ووضعت الشيء الملفوف بالقماش على الأرض بينهما.

ولم تفتحه.

«لم أقرأه،» قالت. «انتظرتكِ.»

8. الرسالة

كان القماش من صوف، رماديًّا، من النوع الذي يُلف به الخبز في الطريق. وحين مدت وردة يدها لتفتحه، رأت أن أصابعها ترتجف في القفاز، فسحبتها.

«افتحيه أنتِ،» قالت.

ونظرت إليها قيلة. ثم مدت يدها، وفكت القماش، طرفًا بعد طرف، ببطء من يفك ضمادًا عن جرح.

وكان في داخله رق صغير. نصف رق. بحجم الكف، أصفر، رقيق، من جلد الغزال الذي يكتب عليه الشيوخ في سُرْدان، وطرفه الأيسر ممزق تمزيقًا مستقيمًا تقريبًا، كأن اليد التي مزقته أرادت أن يكون النصفان متساويين. وعليه سطور بالحبر الأسود. حبر الخلاء، المصنوع من الفحم والصمغ، الذي يصير بنيًّا مع السنين، ولم يصر بنيًّا بعد.

ولم تلمسه أي منهما.

وجدته وردة في الضحى، كما قالت.

كانت قد ذهبت إلى خيمة ظميان وحدها، حين ركبت قيلة والفرسان إلى الشعب الشمالي، وبقي السهل فارغًا تقريبًا، إلا من النساء عند البئر والشيوخ في

الخيام البعيدة. ولم يكن على باب الخيمة حارس. كان الحارسان قد ركبا مع الفرسان.

ودخلت.

وكان كل شيء كما تركته قبل أربع ليال. اللوح الخشبي، والقنديل البارد، والبساط بألوانه الأحمر والأسود والذهبي، وبقعة الدم الداكنة التي لم يغسلها أحد. لأن العرف في سُرْدان يقول إن خيمة القتيل لا تُمس حتى يُعرف قاتله، وكانت وردة قد عرفت ذلك من هدران في الطريق، وفكرت: فهي محفوظة للأثر. كأن القبائل عرفت قبل الحفظة ما يعرفه الحفظة.

ومشت إلى الطرف المرقع من البساط.

كان في الزاوية الجنوبية من الخيمة، تحت حيث كان ظميان يجلس، ولم تنتبه له قيلة ولا أحد. رقعة من صوف أدكن قليلًا، مخيطة على البساط بخيط أسود غليظ، بغرز كبيرة غير متساوية. خياطة رجل، لا امرأة. ورأت وردة في الليلة الأولى، في الأثر، يد ظميان تتحرك نحو هذه الرقعة بنصف الرق، ثم رأت الفراغ، ولم تر ما بعده.

ولم تلمسها هذه المرة. لم تنزع القفاز. جثت، وأخرجت من حزامها سكينًا صغيرة، من النوع الذي يبري به الحفظة أقلامهم، وقطعت غرزتين من الخيط الأسود. ثم أدخلت إصبعين في القفاز بين الرقعة والبساط.

وكان هناك.

ملفوفًا في قماش الخبز، مسطحًا، كأنه نبتة جففت بين ورقتين.

«تعرفين ما فيه؟» قالت قيلة الآن.

«لا. لم أقرأه. ولم أبصره.» ونظرت وردة إلى النصف الممزق. «أردتُ أن أبصره. قعدت في الخيمة وهو في حجري مدة طويلة. وقلت: إن أبصرته وحدي، ثم أخبرتكِ، فستسألينني: ماذا رأيتِ؟ وأقول. وتصدقينني أو لا. وإن قرأناه معًا، فكلانا يرى ما على الرق، ولا تحتاجين أن تصدقيني.»

ولم تقل قيلة شيئًا. لكن وردة رأت وجهها يتغير. رأت فيه شيئًا لم تره فيه قبل. شيء يشبه الدهشة.

ثم انحنت قيلة على الرق، وقرأت.

كانت السطور ستة. أو سبعة، إن عُد الأخير، وهو كلمة واحدة.

وكان الرق ممزقًا بالطول، فلم يبق من كل سطر إلا أوله. أول كل سطر، لأن لسان الميثاق يُكتب من اليمين. وكأن ظميان أراد ذلك: أن يبقى في كل نصف ما لا يُفهم إلا بالآخر. أو كأنه لم يرد شيئًا، ومزقه كما يمزق الرجل شيئًا خاف عليه.

وقرأته قيلة بصوت عال، بطيئًا، والكلمات تقف في حلقها كما وقفت في حلق وردة يوم الحجر:

إلى ستمارا الثالثة، صاحبة قلمير، من ظميان بن

إنكِ كتبتِ إليّ تسألين، وأنا أجيبكِ بما لم

إن أوقفتِ الآلات التي تحت الوادي، وأغلقتِ

أعلنتُ في المجلس، أمام القبائل كلها، أن آبار

ولا تُعطى بشرط، ولا تُحرس إلا بالفرسان، وأن

ويحمل هذا إليكِ من لا تشكين فيه، ابن

الحياد

ثم لا شيء.

بعد كلمة «الحياد» كان الرق فارغًا. نصف السطر الأخير، والسطر الذي بعده، والذي بعده، إلى آخر الرق. فارغة. لا خط، ولا أثر قلم.

ونظرت وردة إلى الكلمة.

كانت أكبر من باقي الكلمات قليلًا، وخطها أثقل، كأن اليد ضغطت على القلم أكثر. وكانت وحدها في سطرها، في أوله، حيث يبدأ الكاتب جملة جديدة. وكان الحبر في آخر حرف منها، في الدال، قد سال قليلًا، وصار نقطة صغيرة كالدمعة.

«الحياد،» قالت قيلة. «وماذا بعد؟»

«لا شيء.»

«لا. في النصف الآخر.» ونظرت إلى الطرف الممزق. «السطور كلها مقطوعة. أوائلها هنا، وأواخرها هناك. لكن هذا...» ووضعت إصبعها قرب الكلمة، دون أن تلمسها. «هذا في أول السطر. وهو آخر ما كتب. فلم يكمله. لا هنا، ولا هناك.»

ونظرت وردة إليها. وفكرت أن قيلة ليست كما يظنها الناس. فارسة، نعم. صامتة، نعم. لكنها تقرأ. تقرأ كما يقرأ الحفظة، تنظر إلى ما ليس مكتوبًا.

«قال لي ليلتها،» قالت قيلة، بصوت خفيض، «إن الكلام إذا قيل لا يرجع. وإن بعض الكلام إذا قيل في الوقت الخطأ قتل صاحبه. فكتب أول كلمة من الكلام الذي يقتل. ثم وقف.»

جلستا مدة.

وكان النهار يميل في الخارج، والضوء الذي يدخل من الباب صار أصفر، ثم برتقاليًّا. وسمعت وردة الفرسان الجرحى في خيام المداواة، أحدهم يئن أنينًا منتظمًا كأنه يعد. وسمعت امرأة تبكي في مكان بعيد، ثم تسكت.

ثم قالت قيلة: «أبصريه.»

ونظرت إليها وردة.

«الآن. وأنا هنا.» ونظرت قيلة في عينيها. «ما على الرق رأيناه معًا. أريد ما ليس على الرق. ماذا كان في رأسه حين كتب الحياد ووقف.»

ونزعت وردة القفاز الأيسر.

لم يكن الرق كالبساط.

البساط كان سنين. كان أبًا وابنًا، وجرحًا قديمًا، ورجالًا جلسوا عليه، وامرأة سقطت عليه دمعة منها، وقطًّا نام عليه مرة. كان طبقات كثيرة، كل طبقة تتكلم، وكان على وردة أن تسير فيها كما يسير المرء في سوق مزدحم، تبحث عن وجه واحد.

أما الرق، فكان ليلة واحدة.

ليلة واحدة، ويد واحدة، ورجل واحد. وكان أثره قويًّا، أقوى مما توقعت، لأن الرجل كتب وهو خائف. والخوف يحفر في المادة كما يحفر الماء في الحجر. ودخلت وردة فيه دفعة واحدة، كمن يسقط في بئر.

كان ظميان يكتب.

وكانت يده ترتجف. ليس من الكبر. كانت يدًا قوية، يدًا ثابتة. كانت ترتجف من شيء آخر. وكانت وردة تحس الارتجاف في أصابعها هي، كأنه انتقل إليها من

الرق.

وكان يفكر.

لم تكن وردة تسمع أفكار الموتى. لم يكن ذلك ممكنًا، ولم يقل أحد في إلسوم قط إنه ممكن. لكنها كانت تحس ما يحسه الرجل الذي ترك الأثر، كما يحس المرء البرد في حجر بارد. وكانت تحس الآن، في يد ظميان وهو يكتب، أشياء.

ثقلًا. ثقلًا كبيرًا، قديمًا، كحجر حمله سنين على ظهره، ويريد أن يضعه.

وخوفًا. لا على نفسه. كان في الخوف وجه. وجه شاب. ابنه. خردش. وكان الخوف يقول: إن أعلنتُ هذا، قال إن أباه خان. وإن لم أعلنه، مات في الحرب.

وشيئًا ثالثًا، أصغر، ولم تفهمه أول الأمر. ثم فهمته.

أمل.

ثم كتب ظميان: «ويحمل هذا إليكِ من لا تشكين فيه، ابن».

ووقف القلم.

وأحست وردة في يد الرجل، وهو يكتب «ابن»، وجهًا آخر. لم يكن خردش. كان وجهًا نحيلًا، غائر العينين، بفم مطبق. ولم تكن قد رأت هذا الوجه في حياتها. لكنها رأت عينيه. ورأت مثلهما الليلة الماضية، والليلة التي قبلها، تنظران إليها من فوق القوس.

ابن نوقار.

ثم كتب: «الحياد».

وفي تلك اللحظة، وهو يكتب الدال، سمع شيئًا.

وأحست وردة الصوت لا كصوت. أحسته كما أحسه ظميان: كبرودة في الظهر. كيد على الكتف لا يد فيها. ورفع ظميان رأسه عن اللوح، ونظر إلى الباب. والقلم في يده. والحبر على رأسه ينزل، قطرة، على آخر الحرف.

ولم يكن عند الباب أحد.

ثم، في رأسه، شيء كالفكرة، لكنه لم يكن فكرته. أحسته وردة يدخل كما يدخل الهواء البارد من شق في الخيمة: إن أكملتَها، لن تصل.

وتجمد ظميان.

ثم وضع القلم.

وتناول الرق، ونظر إليه. ونظر إلى الكلمات الست، والكلمة السابعة. ثم شقه. بيدين قويتين، ببطء، من الأعلى إلى الأسفل. ووضع نصفًا تحت الرق الكبير على اللوح. وقال لنفسه، دون أن يتكلم، بصوت أحسته وردة كأنه صوتها هي: إن أخذوا الكبير، أخذوا هذا معه، وظنوه كل شيء.

والنصف الآخر لفه في قماش الخبز الذي كان إلى جانبه، وفيه بقية من خبز العشاء. وزحف إلى الطرف المرقع من البساط. وفتق غرزتين بإبهامه. وأدخله.

وقال لنفسه: وهذا يبقى. حتى يجيء من يقرأ الأرض.

ثم كان الفراغ.

وكانت وردة تعرفه هذه المرة. عرفته قبل أن تصل إليه. أحست حافته كما يحس المرء حافة جرف في الظلمة. وأرادت أن ترجع. لكن الأثر كان قويًّا، وكانت فيه، تسقط فيه.

ودخلت الفراغ.

وكان أملس. باردًا. لا شيء فيه. لا ظلمة، لأن الظلمة شيء. كان لا شيء. كان المكان الذي يكون فيه الشيء حين يُنزع منه. كالفجوة في الفم بعد خلع السن. يعرف اللسان شكل السن من شكل الفجوة.

وعرفت وردة شيئًا من شكل الفراغ هذه المرة.

كان على شكل إنسان.

خرجت منه وهي تلهث.

كانت قيلة ممسكة بكتفيها، بقوة، كما يمسك المرء غريقًا. وكان وجهها قريبًا، وعيناها واسعتين.

«وردة.»

«أنا هنا.»

«كنتِ تصرخين.»

«لا أذكر.» وأحست الدمع على وجهها، وفي فمها طعم ملح. «كم؟»

«طويلًا. الشمس غابت.»

ونظرت وردة إلى الباب. وكان الضوء رماديًّا، أزرق. وكان القنديل في الخيمة مضاءً. لم تذكر أن أحدًا أضاءه.

ورفعت يدها اليسرى العارية، ونظرت إليها. وكانت ترتجف. ولبست القفاز.

ثم بحثت عن الثمن.

كانت تفعل ذلك كل مرة الآن. منذ زقاق الخبز. تبحث في رأسها كما يبحث المرء في جيبه بعد أن يمر في زحام: ما الذي نقص؟ وكانت تمر على أشياء. اسمها.

اسم نوسم. الطريق من باب المكتبة إلى غرفتها. وجه هدران. لون القفازين. طعم الخبز بالسمسم في حي الصباغين. كلها هنا.

ثم مرت على شيء، ولم تجده.

كانت هناك امرأة. في الكتاب الذي لمسته بيدها العارية، قبل أيام، أو أسابيع، في إلسوم. امرأة عجوز تنسخ وتبكي. كانت وردة تعرف أنها رأتها. تعرف ذلك كما يعرف المرء أنه حلم، دون أن يذكر الحلم. لكن الوجه لم يكن هناك. كانت تعرف أنها عجوز، وأنها كانت تبكي. لكنها لم تعد تعرف كيف بكت. ولا كيف كان وجهها.

ولم تقل لقيلة.

قالت لها ما رأته. كله. اليد المرتجفة، والثقل، والخوف على خردش، والأمل. والوجه النحيل الذي أحسته وهو يكتب «ابن». والصوت الذي لم يكن صوتًا، والفكرة التي لم تكن فكرته: إن أكملتَها، لن تصل. والرق الممزق، والنصف تحت الرق الكبير، وقماش الخبز. وحتى يجيء من يقرأ الأرض.

ولم تقل شيئًا عن شكل الفراغ.

لم تكن متأكدة. قالت لنفسها ذلك. لم تكن متأكدة، والفراغ لا شكل له، وكانت تصرخ، كما قالت قيلة، والذي يصرخ يرى ما ليس هناك.

لكنها كانت تعرف أن هذا ليس السبب.

سكتت قيلة طويلًا بعد أن انتهت.

ثم قالت: «فاقد.»

«نعم.»

«كان ظميان سيرسل الرسالة مع أخي. إلى ستمارا. ابن نوقار. من لا تشك فيه. لأن أخي مع قلمير، ونثق به. ولأن أخي...» وسكتت. «ولأن أخي، إن حملها، صار هو الذي جاء بالصلح.»

«هذا الذي يخفيه.»

«هذا بعضه.» ونظرت إليها قيلة. «قال لي في بئر الغرين: آل نوقار ينتظرون. هو ينتظر. ينتظر أن يعرف من قتل ظميان، لأنه إن كان القاتل من قلمير، فقد قتلت قلمير الصلح الذي كان يحمله. وإن كان من الأوفياء...» ولم تكمل.

«وإن كان من غيرهما؟»

ونظرت إليها قيلة. ولم تجب.

جاء تيلم الناسخ بعد العشاء.

سمعت وردة صوته عند باب الخيمة، يسأل الحارس عنها بلهجة إلسوم المهذبة، التي تمد الكلمات قليلًا. وقبل أن تقوم، كانت قيلة قد أخذت النصف الممزق، ولفته في قماش الخبز، ووضعته في صدر ثوبها. بحركة واحدة، سريعة، كأنها فعلت ذلك من قبل.

ودخل تيلم.

كان طويلًا، أطول من باب الخيمة، فانحنى. ووقف، ونظر إلى القائدة، ثم إلى المبصرة، ثم إلى القنديل. وابتسم.

«أزعجتكما.»

«لا،» قالت قيلة.

«المبصرة لم تأت إلى خيمتنا منذ الحجر.» ونظر إلى وردة. «ورأس المجلس سيسأل. طلب أن أكتب إليه كل سبعة أيام بما جرى. وقد مضت سبعة. هل عندك ما تزيدينه على ما قلته عند الحجر؟»

ونظرت وردة إليه.

إلى وجهه الطويل، الهادئ، وعينيه البنيتين. وإلى يديه. وكانت أصابعه زرقاء، كما هي دائمًا، وظفر الإبهام الأيمن مكسور. وفكرت: كل الحفظة أصابعهم زرقاء. وفكرت: أنا لا أعرف هذا الرجل. التقيته في إلسوم ثلاث مرات، في الممرات، وقال لي صباح الخير. وفكرت: وأنا لا أعرف من في إلسوم يكتب إليه تيلم، ومن يقرأ ما يكتبه.

وأحست قيلة ساكنة إلى جانبها. ساكنة كما يسكن الحجر.

«لا،» قالت وردة. «لا شيء.»

وكانت أول مرة في حياتها تكذب على حافظ.

بعد أن ذهب، لم تتكلما مدة.

ثم قالت قيلة: «الرسالة التي كتبتِها إلى نوسم.»

«لم أرسلها.»

«أعرف. سأسألكِ شيئًا، ولا تجيبي الآن.»

«اسألي.»

«لو كان ظميان قد أكمل الكلمة. لو وصلت رسالته إلى ستمارا، وأوقفت الآلات. من في دَيْمار كان يخسر؟»

ونظرت إليها وردة.

«خردش لا يخسر،» قالت قيلة. «يكسب أباه، وإن خسر صورته. وأخي لا يخسر. يصير هو الذي جاء بالصلح. والأوفياء لا يخسرون. تتوقف الآلات، وهذا ما يريدونه. وأهل الوحدة يخسرون الماء، نعم. لكن الآبار تُفتح لهم. فهم لا يموتون.» وسكتت. «والإمبراطورة؟ ربما تخسر. وربما لا. لم أرها قط. لا أعرف ماذا تريد.»

«فمن؟»

«لا أعرف.» ونظرت قيلة إلى القنديل. «لهذا سنذهب إليها.»

جاء هدران قبل منتصف الليل، ودخل دون أن يستأذن، كما يفعل العميان والأصدقاء القدامى. وجلس على الأرض، وعصاه على ركبتيه، ورأسه مائل، كأنه يسمع الخيمة.

وأخبرته قيلة.

ولم يقل شيئًا مدة. ثم قال: «إلى قلمير.»

«نعم.»

«على أي طريق؟ الطرق كلها الآن لأحد. طريق الشعب للأوفياء، بحبالهم. وطريق الوادي لأهل الوحدة، بجنودهم. فإن مرت قائدة الفرسان في أحدهما، قال الآخر إنها مالت.»

«أعرف.»

«فلا طريق.»

«هناك طريق.» ونظرت إليه قيلة. «لا لأحد.»

وسكت هدران. ورأت وردة وجهه يتغير. شيء انقبض، ثم انبسط، كما ينقبض وجه الرجل حين يلمس جرحًا قديمًا ليعرف إن كان قد برئ.

«الخلاء،» قال.

«الخلاء.»

«سبعة أيام بلا بئر. ورمل يتحرك. وزجاج. وأشياء أخرى. لم يمر فيه أحد من القبائل منذ...» ولم يكمل.

«مررتَ فيه أنت.»

«مررتُ فيه.» وابتسم، ولم يكن في الابتسامة فرح. «وانظري ما أعطاني.» ورفع يده إلى عينيه البيضاوين.

ولم تنم وردة تلك الليلة.

قعدت في زاوية الخيمة، والقفازان في يديها، والرسالة التي كتبتها إلى نوسم في حجرها. ثلاث صفحات، بخطها الصغير المنتظم، كتبتها ليلة الحجر. وفيها كل شيء. الفراغ، والصوت، والأصابع الزرقاء التي رأتها في القوس.

وقرأتها مرة أخرى.

وفي آخرها، كانت قد كتبت، كما يكتب الحفظة لأساتذتهم: «وما لم أفهمه، كتبته لك أولًا، كما أمرتني.»

ونظرت إلى السطر.

ثم تذكرت يد نوسم ترتجف وهو يقول: اكتبيه لي أولًا. وتذكرت أنها لم تفهم لماذا ارتجفت. وتذكرت أن نوسم، حين أرسلها، قال لها إن الفرسان لا يُصدَّقون. ولم يقل لها لماذا لا يُصدَّقون.

ثم مدت يدها إلى القنديل، وأدنت طرف الرسالة من اللهب.

ولم تحرقها.

طوتها أربع طيات، ووضعتها في كيس صغير من جلد، وربطته في حزامها، تحت الثوب. حيث لا يراه أحد. حيث كانت تحمل، منذ كانت في السادسة، شيئًا آخر لا تعرف لماذا تحمله: حجرًا صغيرًا من الملح، أبيض، أعطتها إياه امرأة لا تذكر وجهها، وقالت لها: لا تضيعيه.

من الميثاق: البند الثاني

لا دم إلا بحكم، ولا ثأر بعد الميثاق.

ومن قُتل له قتيل، فحقه عند المجلس، لا عند سيفه. فإن حكم المجلس، فالحكم عليه وعلى القاتل سواء. وإن لم يحكم المجلس في أربعين يومًا، فقد حمل المجلس الدم.

— من نسخة الشعاب، التي يتلوها الحفظة عند بئر العهود. وفي حاشيتها بخط أزرق صغير، لا يُعرف كاتبه: «وقرأها أهل الحلقة الشمالية: فقد حلّ الدم. والفرق بين حمل وحلّ حرف، وبين القراءتين حرب.»

الجزء الثاني: الخلاء

9. الطريق

قال هفير: «لا.»

وقالها قبل أن تكمل. كانت قد قالت: سأذهب إلى قلمير، ولم تقل بعد على أي طريق، ولا مع من، ولا متى. لكن هفير كان قد خدم أباها عشرين سنة، وخدمها عشرًا، وكان يعرف من وجهها ما ستقوله قبل أن تقوله، كما يعرف الراعي من لون السماء ما سيأتي.

«بقي خمسة عشر يومًا،» قال. «من الأربعين.»

«أعرف.»

«إلى قلمير على الخلاء سبعة أيام. إن نجوتِ. وسبعة في الرجوع. وما بينهما. فترجعين بعد أن تنقضي المهلة.»

«أعرف.»

«وحين تنقضي، يأخذ خردش الحكم بيده. وأنتِ لستِ هنا.» ونظر إليها، بعينيه الصغيرتين في الوجه المجعد، الذي لم تره قط غاضبًا. ولم يكن غاضبًا الآن. كان خائفًا. «والفرسان يا قيلة. انشق منهم ثلاثة وستون في خمسة وعشرين يومًا. فإن ذهبتِ...»

«فأنت هنا.»

وسكت هفير.

«أنت هنا يا عم.» ولم تكن قد قالت له يا عم منذ كانت صغيرة. «وأنت تعرف ما أعرف، وأكثر. والفرسان يسمعون منك قبل أن يسمعوا مني. وإن جاء اليوم الأربعون، ولم أرجع، فقل لخردش...» وسكتت.

«ماذا أقول له؟»

ونظرت إلى الرق الملفوف في قماش الخبز، في صدر ثوبها. ولم تخرجه.

«قل له إن قائدة الفرسان ذهبت تسأل عن آخر ما كتبه أبوه.»

خرجوا في الليلة السابعة والعشرين، بعد منتصف الليل، حين نام السهل.

ثلاثة جمال، وثلاثة أنفس. وعلى الجمال ماء لعشرة أيام، في قرب مزدوجة من جلد الماعز، مدهونة بالقطران من الداخل. وتمر وسمن ودقيق. وحطب قليل، لأن الخلاء لا حطب فيه. وأكسية من صوف للبرد، لأن الخلاء في الليل أبرد من أي مكان في سُرْدان، وفي النهار أحر.

ولم تأخذ قيلة فارسًا. أرادت أن تأخذ اثنين، وقال هدران: لا. قال: الخلاء لا يحب الجماعات. ثلاثة يكفون. ولم تسأله لماذا. كانت تعرف أن في الكلام شيئًا لا يقوله.

وخرجوا من السهل إلى الشرق، ثم انحرفوا إلى الشمال الشرقي، حيث تنتهي الأرض المعروفة.

كان الخلاء يبدأ بلا علامة.

لم يكن هناك حد. لا جبل، ولا وادٍ، ولا صخرة يقول الناس إن ما وراءها خلاء. كانت الأرض تتغير ببطء، كما يتغير وجه الرجل حين يشيخ، فلا يعرف أحد اليوم الذي صار فيه شيخًا. كان الحصى يصغر، ويقل، ويصير رملًا. وكان الرمل يفتح لونه، من الأحمر إلى البرتقالي إلى الأصفر الشاحب. وكانت شجيرات الشوك تقل، ثم تقل، ثم كانت هناك واحدة، وحدها، على كثيب، يابسة، ثم لا شيء.

وفي الصباح الأول، حين طلعت الشمس، نظرت قيلة حولها، ولم تر شيئًا تعرفه.

كان الرمل في كل جهة. أبيض تقريبًا. وكان على سطحه، حيث تضربه الشمس، لمعان خفيف، كالملح. ولم يكن ملحًا. أو كان فيه ملح. لم تعرف.

«ملح،» قال هدران، وكأنه رأى ما تنظر إليه. «الخلاء كله ملح تحت الرمل. كان هنا بحر، يقولون. قبل الغمر. أو بعده. لا أحد يعرف.»

«من يقول؟»

«الحفظة.» ومال برأسه نحو وردة. «اسأليها.»

ونظرت قيلة إلى وردة. وكانت الفتاة على جملها، منحنية قليلًا، ويداها في القفازين على مقدمة الرحل، ووجهها شاحب. أشحب مما كان في السهل.

«لا أعرف،» قالت وردة. «في المكتبة كتب تقول هذا. وكتب تقول غيره.» وسكتت. ثم قالت، بصوت أخفض: «لكن الأرض هنا... ثقيلة.»

لم تفهم قيلة ما قالته حتى نزلوا للقيلولة.

كان هدران قد اختار المكان: كثيبًا كبيرًا، له ظل في جانبه الشمالي، يتسع لثلاثة. وأناخوا الجمال. ونزلت قيلة، ونزل هدران، يتحسس الأرض بعصاه قبل أن يضع قدمه. ونزلت وردة.

ووقفت.

ولم تتحرك.

كانت قد وضعت قدميها على الرمل، وبقيت واقفة، كأنها تنتظر شيئًا. وكانت عيناها مفتوحتين، لكنهما لا تنظران. ثم رأتها قيلة تنحني، ببطء، وتمد يديها إلى الأرض، في القفازين، كمن يريد أن يتأكد أن الأرض هناك.

«وردة؟»

«لحظة.»

ثم قامت. وكانت يداها ترتجفان.

«ماذا؟»

«لا شيء.» وأمسكت المبصرة يديها، الواحدة بالأخرى. «القفازان. لا يكفيان هنا.»

ونظرت إليها قيلة.

«الملح يحفظ الأثر،» قالت وردة. وكانت تتكلم كما يتكلم من يعيد درسًا قديمًا، ليمسك نفسه به. «هذا ما يعلّمونه في أول يوم. الماء يمحو، والملح يحفظ. ولهذا القبو

تحت المكتبة من ملح. ولهذا القفازان مدبوغان بالملح، حتى يحفظا يديّ من الأثر كما يحفظ الملح الأثر. الملح يمسك الأثر، فلا يمر.» وسكتت. «لكن هنا...»

«هنا كل الأرض ملح.»

«كل الأرض ملح. وكل الأرض تحفظ.» ونظرت وردة إلى الرمل الأبيض حولها، إلى ما لا نهاية. «كل شيء جرى هنا منذ... منذ لا أعرف. كله هنا. محفوظ. ولا أحد يمحوه. لا ماء، ولا مطر. كله.» وأغمضت عينيها. «أسمعه من خلال القفازين. من خلال النعل. كالبحر.»

ولم تعرف قيلة ماذا تقول.

قال هدران، من الظل، دون أن يرفع رأسه: «لا تقعدي على الرمل. اقعدي على الرحل. ولا تنامي على الأرض. وإن سمعتِ شيئًا يناديكِ باسمكِ، فلا تجيبي.»

قعدت وردة على الرحل في الظل، وركبتاها إلى صدرها، والقفازان على ركبتيها. ولم تأكل. وشربت قليلًا.

وقعدت قيلة إلى جانبها.

ولم تتكلما مدة. كانت الشمس فوقهم، وكان الحر يرتجف على الرمل، فيبدو الأفق كأنه ماء. وكان هدران نائمًا، أو يبدو نائمًا، ورأسه على عصاه.

ثم قالت قيلة: «ماذا نسيتِ؟»

ونظرت إليها وردة.

«حين أبصرتِ الرق،» قالت قيلة. «قلتِ لي ليلة البساط إن الإبصار له ثمن. وإنكِ نسيتِ عدد درجات البرج. وحين أبصرتِ الرق لم تقولي.»

ولم تجب وردة مدة. ثم قالت: «وجهًا.»

«وجه من؟»

«امرأة.» ونظرت إلى يديها. «لا أعرفها. رأيتها في كتاب في إلسوم، قبل أن أجيء. عجوز تنسخ وتبكي. كانت أول ما رأيته. يوم بدأ الثمن. والآن لا أعرف وجهها. أعرف أنها كانت. وأنها بكت. ولا أعرف كيف.»

«وهل يهم؟»

ونظرت إليها وردة. وكان في عينيها، لأول مرة، شيء يشبه الغضب.

«لا أعرف إن كان يهم،» قالت. «هذا هو الأمر. لا أعرف إن كان يهم. لأني لا أذكر لماذا كان مهمًا. في البداية تنسى الأشياء التي لا تهم. اسم زقاق. عدد درجات. ثم تنسى أشياء لا تعرف إن كانت تهم. ثم...» وسكتت.

«ثم؟»

«ثم لا تعرف ما الذي نسيته.» قالتها كمن يكلم نفسه. «في المكتبة رجل، أكبر الحفظة سنًا بعد نوسم. يبصر منذ خمسين سنة. لا يعرف اسم أمه. ولا يعرف أنه لا يعرف. إن سألته، قال لك اسمًا. اسمًا آخر، كل مرة.»

ونظرت قيلة إلى الفتاة الجالسة على الرحل. في السادسة والعشرين. وأخذت يدها، في القفاز، وأمسكتها.

ولم تسحبها وردة.

«لماذا تبصرين إذن؟» قالت قيلة.

«ولماذا تحرسين؟»

في الليلة الأولى، لم تنم وردة.

وفي الليلة الثانية، نامت قليلًا، جالسة على الرحل، ورأسها على جنب الجمل البارك. وكانت قيلة تسمعها، في الظلمة، تتكلم في نومها. كلمات لم تفهمها. ليست كلام سُرْدان، ولا لهجة إلسوم. كلمات أقدم، بحروف ثقيلة، كأنها حجارة تتدحرج.

وفي الصباح، سألتها قيلة.

«لا أذكر،» قالت وردة. ثم: «ماذا قلت؟»

وحاولت قيلة أن تقلد الأصوات. ولم تستطع.

وقال هدران، وهو يشد الرحل على جمله: «لسان النوثار. أو ما بقي منه في الرمل.»

وفي اليوم الثاني رأت قيلة الأعمدة.

كانوا يسيرون في الضحى على كثيب طويل، كظهر حوت. وحين بلغوا قمته، رأتها في الوادي تحتهم. رؤوس حجارة. ثلاثة، أو أربعة، أو أكثر. تخرج من الرمل، كل واحد منها أطول من رجل، رمادية، منحوتة. وكانت متباعدة، على خط مستقيم تقريبًا، يمتد إلى الشمال حتى يغيب في السراب.

ووقفت.

«لا تنزلي،» قال هدران. ولم يكن قد رآها. لكن جمله وقف حين وقف جملها، فعرف.

«ما هي؟»

«رؤوس.» ونزل عن جمله، ببطء، وتحسس الرمل بعصاه. ثم وقف، ووجهه إلى الوادي، كأنه يراه. «رؤوس أعمدة. والأعمدة تحت الرمل. والذي تحت الأعمدة...» وسكت.

«مدينة؟»

«كانت مدينة.» ولم يقل اسمها.

ونظرت قيلة إلى وردة. وكانت المبصرة جالسة على جملها، ويداها مضمومتان إلى صدرها، تنظر إلى الأعمدة. وكانت عيناها مبللتين.

«لا تقتربي منها،» قال هدران. وكان صوته حادًا، كما لم تسمعه قيلة قط. «يا مبصرة. لا هذه، ولا التي بعدها. ستمر بنا أشياء كثيرة في الطريق. لا تلمسي منها شيئًا. ولا تنظري إليها طويلًا.»

«لماذا؟»

وسكت هدران مدة.

«لأن ما فيها ما زال فيها،» قال أخيرًا. «كل شيء. منذ ليلتها الأخيرة.»

مروا بها من بعيد، على ظهر الكثيب، دون أن ينزلوا.

ولم تنظر قيلة إليها. لكنها رأت شيئًا، بطرف عينها، عند العمود الثالث. شكلًا. واقفًا. بحجم رجل، أو أكبر قليلًا. أبيض، كالملح. وكان واقفًا كما يقف رجل ينتظر.

ونظرت إليه.

ولم يكن هناك.

أو كان هناك، ولم يكن رجلًا. كان كتلة من الملح، على شكل رجل، أو على شكل ما كان رجلًا. يدان مرفوعتان إلى الوجه. ورأس منحن. ولم تعرف إن كان نحتًا، أو شيئًا آخر.

وأشاحت بوجهها.

ولم تسأل هدران. وفي تلك الليلة، حين أناخوا في سفح كثيب بعيد، والنجوم فوقهم أكثر مما رأتها قيلة في حياتها، كأن السماء في الخلاء أقرب، سألته.

«الشكل عند العمود الثالث.»

ولم يجب هدران مدة.

«رأيته،» قالت.

«أعرف أنكِ رأيته.» ورفع وجهه إلى السماء، إلى النجوم التي لا يراها. «رآه أبوكِ أيضًا. ووقف ينظر إليه، كما وقفتِ. وقلت له: لا تنظر. ولم يسمع.»

ونظرت إليه قيلة.

«كنتَ هنا مع أبي.»

«كنتُ هنا مع أبيكِ.»

«متى؟»

«قبل عشرين سنة. كنتِ صغيرة. في التاسعة؟ العاشرة؟ أذكر أنكِ بكيتِ حين خرج.» وابتسم، ولم يكن في الابتسامة فرح. «لم يقل لكِ أحد؟»

«قالوا إنه ذهب إلى قلمير. يرعى جمالًا لتاجر. سنة.»

«ذهب إلى قلمير.» وأومأ هدران. «على الخلاء. معي ومع رجلين آخرين، لا تعرفينهما. لا يرعى جمالًا.» ومال برأسه، كأنه لم يقصد، نحو حيث تنام وردة على الرحل.

«فماذا كان يفعل؟»

وسكت هدران.

وانتظرت قيلة. وكانت تعرف هذا السكوت. كان سكوت أبيها. السكوت الذي لا يقول: لا، ولا يقول: نعم. يقول: ليس الآن.

«كنا نبحث عن شيء،» قال هدران أخيرًا. «لرجل في إلسوم. كان يدفع جيدًا. وكان أبوكِ يحتاج المال. كان بيت نوقار قد سقط، وكانت القبيلة جائعة، وكان رجل من الرابطة يطالبه بدين لم يقترضه. وكنتُ أنا... كنت مبصرًا.»

ونظرت إليه قيلة.

«مبصرًا؟»

«كنت مبصرًا. من الحفظة. أصابعي زرقاء، كأصابع كل حافظ. وأنظف.» ورفع يديه، ونظر إليهما بعينيه البيضاوين. وكانتا يدين عاديتين، متشققتين، بنيتين، بلا حبر. «ثم دخلنا الخلاء. ومشينا أربعة عشر يومًا، إلى مكان في أعماقه، له باب. ووجدنا ما بحثنا عنه. ولمستُه.» وسكت. «والعاصفة جاءت بعد أن لمسته. لا قبل.»

«ماذا كان؟»

«لا أذكر.»

ونظرت إليه قيلة.

«لا أذكر،» قال هدران مرة أخرى، بهدوء. «هذا ما أخذه. لا عينيّ. العاصفة أخذت عينيّ. الشيء أخذ... ما كان. لا أذكر ماذا كان. ولا أذكر ماذا رأيت حين لمسته. أذكر أني لمسته. وأذكر أني صرخت. وأذكر أن أباكِ حملني على ظهره ثلاثة أيام.» ورفع وجهه. «هذا كل ما بقي. ولم أعد إلى إلسوم إلا بعد عشر سنين. ولم يعرفني فيها أحد. إلا واحد.»

«من؟»

لكن هدران كان قد أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، ولف الكساء على رأسه.

«نامي يا بنت نوقار. غدًا بحر الزجاج.»

لم تنم قيلة.

قعدت تحت النجوم، والقوس على ركبتيها، وفكرت في أبيها.

كانت تذكره كما يُذكر الصامتون: قليلًا. رجلًا كبيرًا، بلحية سوداء، ويدين لا تتعبان. وكان صامتًا. كان أصمت رجل في القبيلة، وكان الناس يحبون صمته، لأنهم كانوا يقولون إنه لا يتكلم إلا بالحق. وكانت تذكر أنه غاب سنة، حين كانت صغيرة، ورجع نحيلًا، بلحية فيها بياض لم يكن. ولم يتكلم عن السنة. ولم يسأله أحد. ثم مات بعد خمس سنين، في الحرب الصغيرة على بئر الشعاب الرابعة، بسهم من بني قيظ. وكانت هي في الرابعة عشرة.

ولم تكن تعرف أنه دخل الخلاء.

وتذكرت، ولم تعرف لماذا، الأغنية التي كانت جدتها تغنيها للقوس في الليل، بصوت خفيض كصوت الريح في الطلح:

سبعة أختام على سبعة أبواب، والطوق على الماء، والماء على الملح، فإن انفرط الطوق في ليلة، خرج الذي تحت الملح يسأل عن اسمه.

كانت تظنها أغنية للنوم. وكانت جدتها تقول إن أهل الطوق صنعوها قبل الميثاق، حين كانوا يأمرون الديازن فيطيعون، وإن الليلة التي انفرط فيها الطوق تسمى ليلة الانفراط. ولم تشرح أكثر. والآن، تحت هذه النجوم، وعلى بعد يوم من بحر الزجاج، لم تعد تبدو لها أغنية للنوم.

ولم تكن تعرف أنه عمل لرجل في إلسوم.

وفكرت: كل الرجال في حياتي كان عندهم سر. أبي. وأخي. وظميان. وهدران. وفكرت: وأنا. أنا عندي سر أيضًا. وكان سرها في صدر ثوبها، ملفوفًا في قماش الخبز، وكان في عيني وردة حين قرأت القوس.

ونظرت إلى وردة. كانت نائمة على الرحل، رأسها على جنب الجمل، وفمها يتحرك قليلًا، كأنها تتكلم بلغة الحجارة.

قبيل الفجر، حين كان البرد في أشده، أحست قيلة شيئًا.

لم يكن صوتًا. لم يكن ريحًا. كان في الأرض، تحتها. كما يحس المرء في الخيمة رجلًا يمشي في الخارج، قبل أن يسمع خطوته.

ووضعت كفها على الرمل.

وكان الرمل دافئًا.

لم يكن ينبغي أن يكون دافئًا. كان الليل كله باردًا، والرمل حولهم بارد كالحجر، وأصابعها متيبسة من البرد. لكن الرمل تحت كفها كان دافئًا. دفئًا خفيفًا، بعيدًا، كدفء ظهر نائم.

ورفعت يدها.

ونظرت إلى الجمال. وكانت الجمال الثلاثة قد قامت، كلها، في الظلمة، دون أن يقيمها أحد. وكانت واقفة، ورقابها ممدودة إلى الشمال، وآذانها مرفوعة.

ولم يرغ أي منها.

ثم، ببطء، بركت مرة أخرى. واحدًا بعد واحد.

ونظرت قيلة إلى هدران. وكان مستيقظًا. كان جالسًا، والكساء على كتفيه، ووجهه إلى الشمال. ولم يقل شيئًا. ولم تسأله.

في اليوم الثالث، قبل الغروب بقليل، صعدوا آخر كثيب.

ورأت قيلة بحر الزجاج.

لم تكن قد رأت بحرًا قط. كانت تعرفه من الحكايات، ومن كلام التجار. ماء لا نهاية له، يتحرك، ويلمع. وحين رأت ما تحتها، فكرت أول الأمر: هذا هو. هذا هو البحر.

ثم رأت أنه لا يتحرك.

كان يمتد من سفح الكثيب إلى الأفق، في كل جهة، أملس، مستويًا، لامعًا. وكانت الشمس الغاربة عليه، فكان أحمر، وبرتقاليًا، وذهبيًا، ككأس كبيرة من الشراب. وكانت السماء فيه. كل السماء. الغيوم الرقيقة في الغرب، والنجمة الأولى في الشرق، وكانت فيه مقلوبة، كأن الأرض انقلبت، وصار الأعلى أسفل.

ولم يكن ماء.

كان زجاجًا. رملًا ذاب يومًا، ثم جمد. وحين نظرت قيلة إلى حافته، تحت الكثيب، رأت فيه فقاعات صغيرة، محبوسة، كأنفاس توقفت.

«كم عرضه؟» قالت، وصوتها خافت.

«يوم،» قال هدران. «إن مشينا في الليل.»

«ولماذا في الليل؟»

«لأن الشمس عليه في النهار تحرق الجمال من تحتها. ولأن ما تحته ينام في الليل أعمق.»

ونظرت إليه قيلة.

ثم نظرت إلى وردة.

وكانت المبصرة قد نزلت عن جملها، ووقفت على حافة الكثيب، حيث ينتهي الرمل ويبدأ الزجاج. ونظرت إلى أسفل. وكان وجهها، في الضوء الأحمر المنعكس من الزجاج، كوجه من يقف على باب بيت قديم يعرفه، ولا يذكر متى كان فيه.

ورأتها قيلة تنزع القفاز الأيسر.

«وردة!»

ونظرت إليها المبصرة. وكانت في عينيها دموع، ولم تكن تبكي.

«إنه يناديني،» قالت. «لا باسمي. بشيء آخر.»

وقبل أن تصل إليها قيلة، كانت قد جثت، ووضعت كفها العارية على الزجاج.

10. بحر الزجاج

لم يكن الزجاج باردًا.

كان هذا أول ما عرفته وردة، قبل أي شيء. وضعت كفها عليه، وانتظرت البرد، برد الحجر في الغروب، برد الأشياء الصلبة الملساء. ولم يأت. كان الزجاج دافئًا تحت كفها، كجلد.

ثم انفتح.

لم يكن كالبساط، ولا كالرق، ولا كالقوس.

في تلك كلها، كانت وردة تدخل في الأثر كما يدخل المرء في غرفة: هناك باب، وهناك داخل، وهي تعرف أين هي. أما هنا فلم يكن باب. كان الأثر في كل مكان، تحتها، وحولها، وفوقها، وكانت فيه منذ البداية، كأنها لم تكن قط في مكان آخر. كمن يغطس في بحر، ثم يفتح عينيه، فلا يعرف أين السطح.

ورأت مدينة.

كانت المدينة على سهل، والسهل أخضر.

لم تكن قد رأت في حياتها خضرة مثلها. لا في الدلتا، حيث النخل والقصب والأرز. كانت هذه خضرة أخرى، عشباً طويلًا يتموج في الريح، وأشجارًا لا تعرف أسماءها، عريضة الأوراق، وماء يجري في جداول بين الحقول. ماء كثير. وكانت تسمعه.

وفي وسط السهل، كانت الأعمدة.

مئات منها. أو آلاف. لم تستطع أن تعدها. كانت رمادية، ملساء، منحوتة من حجر واحد كل منها، وكانت أطول من أي شيء رأته وردة، أطول من برج نوسم، أطول من أبراج إلسوم كلها مجتمعة. وكانت تقوم في صفوف، صفًا وراء صف، كأنها غابة من حجر. وبينها بيوت، وشوارع، وأسواق، وناس.

وكان الناس طوالًا.

هذا ما رأته ثانيًا. كانوا أطول من أهل الدلتا، ومن أهل سُرْدان، ومن أي أحد. وكانوا يمشون ببطء، كأنهم لا يستعجلون شيئًا، كأن الوقت كله لهم. وكانت ثيابهم بيضاء، طويلة، وعلى رؤوسهم شيء كالتيجان الصغيرة من معدن لامع.

ولم يكونوا ينظرون إلى الأرض.

ثم سمعت الطنين.

كان يأتي من الأعمدة. ليس من كلها. من بعضها. الأطول، التي في وسط المدينة، حول ساحة كبيرة مرصوفة بحجر أبيض. وكان في أعلى كل عمود منها شيء يلمع، كالبلور، أو كالماء المتجمد. وكان الطنين يأتي منها، منخفضًا، ثابتًا، كصوت النحل في خلية بعيدة.

وكانت وردة تعرف هذا الطنين.

كانت قد سمعته. لم يكن قد مضى عليها وقت طويل منذ سمعته. في قبو الملح، تحت المكتبة، عند الباب الحديدي الصغير في الجدار الشمالي. البرد، والطنين. لم يكن الصوت نفسه تمامًا. لكنه كان من الجنس نفسه، كما يكون صوت الأخ من جنس صوت أخيه.

ورأت شيئًا آخر.

كانت الأعمدة الطنانة تشرب.

لم يكن هناك ماء يدخل فيها. لم يكن هناك شيء يُرى. لكن وردة كانت في الأثر، والأثر لا يكذب في هذا. كانت تحس أن الأعمدة تأخذ. من الأرض. من تحت الأرض. من العشب، ومن الشجر، ومن الماء في الجداول. كانت تأخذ شيئًا لا اسم له، شيئًا يشبه ما تأخذه هي حين تبصر، لكنها لا تأخذه من المادة وحدها. كانت تأخذه من الحياة نفسها التي في المادة.

ورأت العشب في أطراف الساحة.

كان أصفر.

ثم انتقل الأثر، كما ينتقل في الأحلام، دون أن تعرف كيف.

كانت في سوق. وكان الناس الطوال يمرون من حولها، ولا يرونها، لأنها ليست هناك. وكان في السوق كل شيء: فاكهة لا تعرفها، وأقمشة بألوان لم ترها، وأدوات من معدن لامع، وكتب. كتب كثيرة، على ألواح من حجر رقيق، منقوشة بحروف ثقيلة، كالحروف التي تكلمت بها في نومها، ولم تكن تعرف ذلك.

وفي وسط السوق، كانت امرأة.

لم تكن طويلة كالآخرين. كانت أقصر، وأنحف، وفي ثوب رمادي، لا أبيض. ولم يكن على رأسها شيء. وكانت واقفة على حجر في وسط السوق، وتتكلم.

ولم تفهم وردة ما تقوله. كانت الكلمات بالحروف الثقيلة، تتدحرج كالحجارة. لكنها فهمت شيئًا من وجه المرأة، ومن يديها. كانت تشير إلى الأعمدة. ثم إلى الأرض. ثم إلى العشب الأصفر. ثم إلى السماء. ثم تضع يديها على صدرها، وتنحني.

وكان الناس يمرون من حولها.

بعضهم ينظر إليها، ثم يكمل طريقه. وبعضهم يضحك. وواحد، رجل طويل بتاج من معدن أحمر، وقف أمامها، ونظر إليها من فوق، وقال شيئًا قصيرًا. ثم بصق على الحجر الذي تقف عليه، ومشى.

ولم تتوقف المرأة.

ولم تعرف وردة اسمها. لم يكن في الأثر اسم. كانت امرأة واحدة، في ثوب رمادي، في سوق مدينة كبيرة، تقول شيئًا لا يسمعه أحد.

ثم انتقل الأثر مرة أخرى.

وكان ليلًا.

وكانت الأعمدة الطنانة كلها تطن، كلها معًا، وكان الصوت أعلى، أعلى بكثير، حتى صار كالزئير. وكان البلور في أعلى كل عمود يلمع بضوء أبيض مزرق، كضوء القمر على الماء. وكانت الساحة مليئة بالناس الطوال، في ثيابهم البيضاء، واقفين في دوائر، ووجوههم إلى الأعلى.

وكانت الأرض تحت الساحة دافئة.

أحست وردة الدفء في قدميها، وهي ليست هناك. دفء يصعد من الأعماق، دفء حي، كدفء ظهر كبير نائم. ثم أحست شيئًا آخر. أحست الدفء يتحرك.

كأن النائم تقلب.

ولم يتوقف الطنين.

وأحست وردة الأرض تحت الساحة تنشق. لم ترها تنشق. أحستها، كما يحس المرء العظم ينكسر في جسده. شقًّا طويلًا، عميقًا، من وسط الساحة إلى الأعمدة. ورأت الناس الطوال يرفعون رؤوسهم، ويرون. ولم يتحركوا. كانوا واقفين في دوائرهم، ووجوههم إلى الأسفل الآن، إلى الشق.

ثم خرج من الشق نفَس.

لم يكن نارًا بعد. كان نفَسًا حارًا، كنفَس الفرن حين يُفتح بابه. ومر على الساحة، وعلى الناس، وعلى الأعمدة. وأحست وردة الحر، وأحست الحجر الأبيض في الساحة يتشقق تحت أقدام الناس. وسمعت صوتًا.

كان أول صوت في الأثر كله لم تسمع مثله في حياتها.

لم يكن صراخًا، ولا زئيرًا، ولا ريحًا. كان كلمة. كلمة واحدة، طويلة، من مقاطع ثلاثة، بحروف أثقل من حروف الناس الطوال، أثقل من أي حروف. كأن الجبل تكلم. وكانت الكلمة تخرج من الشق، وتملأ الساحة، وتملأ المدينة، وتملأ السهل.

ثم كان الضوء.

لم تر وردة النار.

رأت الضوء. أبيض. ثم أحمر. ثم أبيض مرة أخرى. ورأت الأعمدة، في الضوء، تقف لحظة، سوداء، كأصابع ممدودة إلى السماء. ورأت الناس الطوال في الساحة، في الضوء، يرفعون أيديهم إلى وجوههم.

ثم، في وسط الضوء الأبيض، كان الفراغ.

وكانت وردة تعرفه. كانت قد رأته مرتين. في الخيمة، وفي الرق. الفراغ الأملس، البارد، الذي ليس ظلمة لأن الظلمة شيء. لكن هذا لم يكن فراغًا بحجم رجل. كان بحجم الساحة. كان بحجم المدينة. كان يبدأ حيث يكون الضوء أشد بياضًا، ويمتد، ويأكل الأثر من أطرافه، كما تأكل النار الورقة من حافتها.

وكان يأكلها هي.

أحسته يقترب. لا كشيء يجيء. كحافة. كمن يقف على شاطئ والماء يأكل الرمل تحت قدميه. وكانت كل خطوة من الفراغ تقترب، يذهب معها شيء. صوت. ثم صورة. ثم...

وأحست يدًا على كتفها.

يدًا حقيقية. يدًا من هنا، لا من هناك.

«وردة.»

كانت في الظلمة.

لم تكن ظلمة الفراغ. كانت ظلمة الليل، ظلمة حقيقية، فيها نجوم. وكانت تتحرك. كانت على شيء يتحرك تحتها، يتأرجح، بإيقاع منتظم. جمل. كانت على جمل.

«وردة. أتسمعينني؟»

وأدارت رأسها.

كانت قيلة على الجمل الآخر، إلى جانبها، قريبة، ويدها ممدودة إلى كتفها. وكانت تمسكها، كأنها تخاف أن تسقط.

«أسمعكِ،» قالت وردة. وكان صوتها غريبًا في أذنيها، خشنًا، كأنها صرخت طويلًا.

«الحمد للبارئ.» وأرخت قيلة يدها، لكنها لم ترفعها. «كم إصبعًا؟»

ونظرت وردة إلى يدها الأخرى، المرفوعة أمامها، في ضوء النجوم.

«ثلاثة.»

«ما اسمي؟»

«قيلة. قيلة بنت نوقار.»

«ما اسمه؟» وأشارت إلى الأمام، حيث كان جمل ثالث يمشي، وعليه شكل منحن، ملفوف في كساء.

«هدران.»

وأرخت قيلة يدها أخيرًا.

كانوا على الزجاج.

رأت وردة ذلك حين نظرت إلى الأسفل. كانت الجمال تمشي على سطح أسود لامع، يعكس النجوم. كل النجوم. فكانت النجوم فوقهم وتحتهم، وكانوا يمشون بينها، في وسط السماء، كأن الأرض اختفت.

وكانت أخفاف الجمال على الزجاج لا تصدر صوتًا تقريبًا. فقط حفيف خفيف، كحفيف الحرير.

«كم...» قالت وردة. «منذ متى؟»

«منذ الغروب.» ونظرت قيلة إليها. «لمستِه في الغروب. وصرختِ. ولم تسمعيني. سحبتكِ عنه، وكنتِ تقاومين.» وسكتت. «لم أرَ أحدًا يقاوم هكذا.»

«ثم؟»

«ثم سكتِّ. وكانت عيناكِ مفتوحتين. ولم تريني. فحملناكِ على الجمل، وربطناكِ، ونزلنا.» ونظرت قيلة إلى الأمام، إلى هدران. «قال هدران: لا ننتظر. قال: إن انتظرنا حتى تفيق، فقد لا نعبر الليلة. وإن لم نعبر الليلة، فقد لا نعبر.»

«وهذا...»

«منتصف الليل.» ونظرت قيلة إلى السماء. «أكثر قليلًا.»

ولم تتكلما مدة.

ثم قالت وردة: «رأيت المدينة.»

«أي مدينة؟»

«التي تحت الأعمدة.» ونظرت إلى الأسفل، إلى الزجاج الأسود الذي تمشي عليه الجمال. «ليست تحت الأعمدة. هنا. كانت هنا. هذا...» ولم تكمل.

ونظرت قيلة معها إلى الأسفل.

«كان سهلًا،» قالت وردة. «أخضر. فيه ماء. أكثر من ماء الدلتا. وكان فيه ناس. طوال. كانوا... كانوا يأخذون من الأرض. بالأعمدة. كما نأخذ نحن. كما

يأخذ المستنطق. لكنهم كانوا يأخذون أكثر. وكان العشب يصفر. ولم ينتبهوا. أو انتبهوا ولم يهتموا.»

«ثم؟»

«ثم استيقظ شيء.» ونظرت وردة إلى قيلة. «تحت الأرض. كان نائمًا، والأعمدة أيقظته. وتكلم.»

ولم تقل قيلة شيئًا. لكن وردة رأت يدها، على رسن الجمل، تشتد.

«ثم كانت نار. والنار أذابت الرمل.» ونظرت وردة إلى الزجاج. «هذا. هذا ما بقي. والريح جاءت بعدها، ودفنت ما لم يذب. الأعمدة التي رأيناها أمس. والمدينة.»

«والناس؟»

ولم تجب وردة.

ثم قالت: «كانت امرأة. في السوق. تقول لهم شيئًا. وكانوا يضحكون.»

«ماذا كانت تقول؟»

«لا أعرف. لم أفهم لغتها.» ونظرت وردة إلى يديها. «لكني أعرف.»

قبيل الفجر، وصلوا إلى حافة الزجاج.

لم تكن الحافة كحافة الكثيب، حيث يبدأ الزجاج فجأة. كانت هنا تدريجية. صار الزجاج أخشن، ثم صار فيه رمل، ثم صار رملًا فيه زجاج، كقطع مكسورة من إناء. ثم كان رملًا.

وأناخوا الجمال تحت أول كثيب، في الظلمة الزرقاء التي تسبق الفجر.

ونزلت وردة. وكانت ساقاها ترتجفان، وكادت تسقط، فأمسكتها قيلة. وجلست على الرحل، ونظرت إلى الوراء، إلى بحر الزجاج.

وكان في أول الضوء رماديًا، فضيًا، كمرآة قديمة.

ثم سألت قيلة.

كان سؤالًا صغيرًا. ولم تفكر فيه وردة قبل أن تسأله. كانت جالسة على الرحل، وقيلة تفك الأحمال عن الجمل، وهدران قد قعد في ظل الكثيب، ورأسه على عصاه. وفكرت وردة: غريب. كنت قبل أيام لا أعرف هذه المرأة. وأردت أن أعرف متى عرفتها.

«متى التقينا أول مرة؟»

ووقفت قيلة.

ونظرت إليها.

«عند البئر،» قالت. «في الغروب. جئتِ مع هدران.»

«عند البئر،» كررت وردة. ثم: «وماذا قلتِ لي؟»

ولم تجب قيلة مدة.

ثم وضعت الحمل الذي في يدها على الرمل، ومشت إلى وردة، وجلست أمامها. ونظرت في عينيها.

«ماذا تذكرين يا وردة؟ عن ذلك اليوم؟»

وفكرت وردة.

وتذكرت الطريق. من إلسوم إلى البئر. اثني عشر يومًا، على جمل، مع هدران. وتذكرت الليلة الأخيرة على الطريق، حين قال لها هدران: غدًا تصلين. وتذكرت أنها لم تنم تلك الليلة. وتذكرت...

تذكرت الخيمة. ليلًا. البساط. الإبصار.

وبينهما لا شيء.

لم يكن فراغًا. لم يكن أملس ولا باردًا. كان لا شيء فقط، كما يكون في الحلم حين تنتقل من مكان إلى مكان ولا تعرف كيف. كانت الليلة الأخيرة على الطريق، ثم كانت الخيمة. وما بينهما، يوم كامل، الوصول، والبئر، وأول ما رأت من السهل، وأول ما قالت، وأول ما قيل لها، ووجه قيلة أول مرة، لا شيء.

«لا أذكر،» قالت.

وأحست شيئًا ينزل في صدرها. ثقيلًا. باردًا.

«لا أذكر ذلك اليوم يا قيلة. لا أذكر أنكِ... لا أذكر أني رأيتكِ أول مرة.»

لم تقل قيلة شيئًا مدة طويلة.

وكان الضوء يطلع. ورأت وردة وجهها في الضوء. ولم يكن فيه شيء من الصلابة التي في وجه قائدة الفرسان. كان وجه امرأة متعبة، في التاسعة والعشرين، لم تنم منذ يومين، تنظر إلى صديقة.

ولم تكن وردة تعرف أنها صديقة، حتى رأت ذلك في وجهها.

«تلعثمتِ،» قالت قيلة أخيرًا.

«ماذا؟»

«حين سألتكِ: أنتِ المبصرة؟ قلتِ: نـ... نعم. ثم أغمضتِ عينيكِ كأنكِ تعدّين في رأسكِ، وقلتِ اسمكِ.» وابتسمت قيلة. ابتسامة صغيرة، حزينة، أول ابتسامة رأتها وردة على وجهها. «وكدتِ تسقطين عن الجمل حين أناخ. وكان عليكِ هذا المنديل الرمادي. وسألتكِ عن عمركِ، فقلتِ: ستة وعشرون. وقلت لهدران: أرسلوا أصغرهم. فقال: أرسلوا أقواهم.» وسكتت. «وكنتُ أظنكِ منهم. من الحفظة. كنتُ أظن أنكِ جئتِ لتغطي على ما رأيته.»

«وماذا قلتُ أنا؟»

«قلتِ: أريد أن أرى الخيمة. ولم تتلعثمي.» ونظرت قيلة إليها. «وفي الليل، عند النار، قلتِ: لا أقرأ أثر الأحياء إلا بإذنهم. وصدقتكِ. لا أعرف لماذا. كنتُ أظنكِ منهم، وصدقتكِ.»

بكت وردة.

لم تبك من قبل على شيء نسيته. لا على الزقاق، ولا على الدرجات، ولا على وجه العجوز الناسخة. كانت تحس كل مرة بالثقل، بالبرد، لكنها لم تبك. كانت تقول لنفسها: هذا هو الثمن، وكل مبصر يدفعه، ونوسم دفعه، وكل الحفظة دفعوه.

لكنها بكت الآن.

ولم تمد قيلة يدها إليها. جلست أمامها، ونظرت إليها، وانتظرت. كما ينتظر المرء المطر أن ينتهي.

وحين انتهت، أخرجت وردة من حزامها دفترًا صغيرًا. دفترًا من ورق الدلتا الرقيق، مجلدًا بجلد رقيق، كانت تكتب فيه ما تبصره، لتقرأه لنوسم. وفتحته على صفحة فارغة في آخره. وأخرجت القلم.

ونظرت إليها قيلة.

«ماذا تكتبين؟»

«ما ضاع.» ورفعت وردة عينيها إليها. «من الآن. كل شيء. حتى إن نسيته، أعرف أنه كان.»

وكتبت، بخطها الصغير المنتظم، في أول الصفحة:

اسم الزقاق الذي أشتري منه الخبز.

عدد درجات برج نوسم.

وجه العجوز الناسخة.

ثم توقفت. ونظرت إلى قيلة.

«قولي لي مرة أخرى. كيف كان اليوم؟»

وقالت لها قيلة. كله. الغروب، والبئر، والفرسان الأربعون الذين رحلوا ذلك الصباح، والمنديل الرمادي، والتلعثم، وهدران يتحسس الأرض عند باب الخيمة، ويقول: وقف أحد هنا طويلًا. ولم يدخل.

وكتبت وردة:

اليوم الذي عرفتُ فيه قيلة. قالت إني تلعثمت، وإني كدت أسقط عن الجمل. وقالت إنها صدقتني.

جاء صوت هدران من ظل الكثيب، دون أن يرفع رأسه عن العصا.

«الكلمة التي سمعتِها،» قال. «في الأثر. من الشق.»

ونظرت إليه وردة. لم تكن قد قالت له شيئًا عن الكلمة. كانت قد قالتها لقيلة، على الجمل، في الليل، وكان هدران أمامهما، بعيدًا.

«سمعتُكِ،» قال هدران. «الخلاء يحمل الصوت. لا تقوليها. لا الآن ولا بعد. ولا في نومكِ إن استطعتِ.»

«لماذا؟»

ورفع هدران رأسه، أخيرًا، ووجه عينيه البيضاوين نحوها.

«لأن الذي قالها ما زال يسمع.»

11. صوت تحت الرمل

فقدوا الجمل الثالث في الليلة الخامسة.

لم يكن ذنب أحد. هكذا قالت قيلة لنفسها بعد ذلك، مرات كثيرة، ولم تصدق نفسها مرة. كانوا قد أناخوا في منخفض بين كثيبين كبيرين، بعد مسيرة يوم طويل، والجمال متعبة، والناس أتعب. وعقلت قيلة الجمال الثلاثة بيدها، كما تعقلها كل ليلة، عقالًا على الركبة اليسرى، وربطت الثالث، جمل هدران، إلى رحل الثاني. وكان على الثالث أربع قرب من الماء. نصف ما بقي.

ونامت.

وأيقظها الصوت.

لم يكن صوتًا تسمعه الأذن أولًا. كان صوتًا تسمعه العظام. كان في الأرض، تحتها، يصعد من الرمل إلى ظهرها، إلى أضلاعها، إلى أسنانها. وكان منخفضًا، أعمق من أي صوت سمعته. أعمق من رعد بعيد. أعمق من صوت البحر الذي لم تسمعه. كأن الأرض تتنفس.

وفتحت عينيها.

وكان الرمل يتحرك.

لم يكن ريحًا. لم تكن هناك ريح. كان الليل ساكنًا، والنجوم ثابتة، والهواء باردًا لا يتحرك. لكن الرمل على سفح الكثيب الكبير، فوقهم، كان يجري. ينزل، ببطء، في خيوط رقيقة، كالماء ينزل على حجر. وكان يُسمع له حفيف، كأنفاس كثيرة.

وقامت الجمال.

قام الجملان الأولان على ثلاث، لأن العقال في الركبة. ورغا أحدهما، رغاء طويلًا، ممدودًا، لم تسمع قيلة مثله من جمل قط. رغاء كالبكاء. وجذب الآخر رأسه إلى الوراء، وعيناه بيضاوان في الظلمة.

والثالث كسر الحبل.

رأته قيلة يقوم، ويجذب، والحبل الذي ربطته بيدها ينقطع، لا من العقدة، من وسطه، كأنه كان قديمًا. ثم ركض. ولم يركض كما تركض الجمال، بتلك المشية المتأرجحة. ركض كما يركض الحيوان الذي يعرف أن الموت وراءه. على ثلاث، يعرج بالعقال، إلى الجنوب، إلى الظلمة.

«الماء!» صرخت قيلة.

وركضت خلفه.

وأمسكتها يد.

كانت يد هدران. أمسك معصمها، بقوة لم تعرف أنها فيه، وجذبها. «لا.»

«الماء يا هدران! أربع قرب!»

«لا تركضي.» وكان صوته منخفضًا، لكنه ثابت. «لا تركضي على الرمل. الآن.»

«لماذا؟»

«لأنها تسمع الخطى.»

ووقفت قيلة.

وكان الجمل قد غاب في الظلمة. سمعت صوته مدة، صوت أخفافه على الرمل، وصوت العقال يجر، ثم لا شيء. ثم، من بعيد، رغاء واحد. ثم لا شيء.

وكان الصوت تحت الأرض قد تغير.

لم يكن أعلى. كان أقرب. أو كان يتحرك. لم تعرف. كان كما يتغير صوت النائم حين يتقلب في نومه، فيصير أنينه من جهة أخرى. وكان الرمل على سفح الكثيب ما زال يجري، والخفيف ما زال يُسمع.

ونظرت قيلة إلى هدران.

وكان واقفًا، ويده ما زالت على معصمها، ووجهه مائل إلى الأرض. كأنه يسمع. وكان ساكنًا كما لم تره ساكنًا قط. حتى أنفاسه، لم تكن تسمعها.

«ما هذا؟» قالت، وصوتها لا يكاد يخرج.

ولم يجب هدران مدة.

ثم قال: «إنها تتقلب في نومها.»

لم تسأله من.

جلست على الرمل، ببطء، حيث كانت، وجلس إلى جانبها. ولم يتكلما. وكانت وردة جالسة على رحلها، قريبًا، ويداها على أذنيها. لا على أذنيها. على صدغيها. كأنها تمسك رأسها حتى لا يتشقق.

ومر وقت.

لم تعرف قيلة كم. ساعة؟ أكثر؟ كان الصوت تحت الأرض يجيء ويذهب، كالموج. يعلو حتى تحسه في أسنانها، ثم يخفت حتى تظن أنه انتهى، ثم يعلو. وفي كل مرة يعلو، يجري الرمل على السفح، وتقوم الجمال، ثم تبرك.

ثم، في إحدى المرات، لم يعد.

خفت، كما يخفت كل مرة. وانتظرت قيلة أن يعلو. ولم يعلُ. وسكن الرمل على السفح. وبركت الجمال، ومدت رقابها على الأرض، كأنها ميتة من التعب.

وسمعت قيلة، لأول مرة منذ استيقظت، أنفاسها.

«كان هنا.»

قالتها وردة. وكانت قد أنزلت يديها عن صدغيها، وكان وجهها في ضوء النجوم أبيض كالملح.

«ماذا؟»

«كان هنا،» قالت مرة أخرى. «تحتنا. ليس بعيدًا. أحسستُه. كما أحسستُه في الزجاج. في المدينة. الشيء الذي كان نائمًا تحت الساحة.»

«ليس الشيء نفسه،» قال هدران.

ونظرت إليه الاثنتان.

«ليس نفسه،» قال. «ذاك أعمق. وأبعد. في الشمال. هذا آخر.» وسكت. «هناك أكثر من واحد.»

«كم؟» قالت قيلة.

«لا أحد يعرف.»

«الحفظة؟»

«الحفظة يعرفون أنهم لا يعرفون.» وابتسم هدران، تلك الابتسامة التي لا فرح فيها. «وهذا أكثر مما يعرفه غيرهم.»

ثم قالها.

كانت قيلة تعرف الكلمة. كل أحد في سُرْدان يعرفها. لكنها كانت كلمة من كلمات العجائز، كالغول والسعلاة، يخوّفون بها الصغار في الليل. لا تنام خارج الخيمة، وإلا أكلك. لا تمش في الرمل وحدك، وإلا سمعك. ولم تكن قد سمعتها في حياتها من رجل كبير، بصوت جاد، في الليل، في الخلاء.

«الشغادر،» قال هدران.

ولم يقل أحد شيئًا.

«هكذا يسمونها في إلسوم،» قال. «في الكتب القديمة. والقبائل تقول: النائمون. أو: أهل الرمل. أو لا تقول شيئًا، وهذا أحسن.» ونظر إلى الأرض، بعينيه البيضاوين، كأنه يراها. «نامت منذ زمن طويل. منذ عصر الأعمدة. ومنذ أن صار الزجاج زجاجًا. نامت، ولم يوقظها أحد.»

«حتى الآن،» قالت وردة.

ولم يجب هدران.

في الصباح، بحثت قيلة عن الجمل.

لم تبحث بعينيها فقط. وكانت تعرف ذلك قبل أن تبدأ، وكانت تعرف أنها لن تقوله لأحد.

مشت إلى حيث انقطع الحبل، ورأت الأثر على الرمل. أخفافًا عميقة، غير منتظمة، وخطًا يجر بينها، خط العقال. وكان الأثر يمتد إلى الجنوب، ثم ينحني، ثم يغيب في الرمل الذي جرى من السفح في الليل، فغطاه.

ووقفت عند آخر ما يُرى منه.

وجثت.

ووضعت يدها على الرمل، عارية. لا قفاز عليها. لم يكن لها قفاز. ولم تكن قد فعلت هذا منذ كانت في الثالثة عشرة، يوم ماتت جدتها، ولمست قيلة يدها الباردة، ورأت شيئًا لم تقله لأحد، ولم تعد إليه.

وأغمضت عينيها.

لم يكن كما تصفه وردة.

لم يكن غرفة، ولا بحرًا، ولا سوقًا. كان أضعف من ذلك بكثير. كان كما ترى الشيء بطرف عينك في الظلمة، ثم تنظر إليه فيذهب. ظل. خيط. إحساس في الكف كدفء خفيف، يميل إلى جهة.

جهة الجنوب الغربي.

وكان معه خوف. خوف الجمل. ليس خوف الإنسان. كان أبسط، وأكبر. كان خوفًا لا يعرف ما يخافه، ولا يعرف إلا أن يركض.

ثم كان شيء آخر.

لم تعرف ما هو. كان في أطراف الخيط، كظل أكبر. دفئًا آخر، أعمق، أبعد. لم يكن الجمل. ولم يكن يخاف.

وسحبت يدها.

قامت. ودارت حول نفسها، حتى وجهت وجهها إلى الجنوب الغربي. ومشت.

ولم تمش طويلًا. وجدته بعد أقل من ساعة، في منخفض بين كثيبين، حيث كان يجب أن تجده. كان باركًا. والقرب الأربع على رحله.

لكنها لم تقترب منه فورًا.

وقفت على حافة المنخفض، ونظرت.

كان الجمل باركًا، ورقبته ممدودة على الأرض، ورأسه على الرمل. وكانت عيناه مفتوحتين. ولم يكن يتحرك. ولم يكن ميتًا. كانت تراه يتنفس، بطيئًا، صدره يعلو ويهبط. لكنه كان ساكنًا كما تسكن الأشياء التي لا تريد أن يراها أحد.

وكان الرمل حوله أملس.

ليس كالرمل في كل مكان، بتموجاته الصغيرة التي تتركها الريح. كان أملس، كأن يدًا كبيرة مرت عليه. دائرة كاملة، حول الجمل، بعرض عشرين خطوة. وفي وسطها، الجمل. ولا أثر خف واحد فيها.

لا أثر خف واحد.

ونظرت قيلة إلى الأثر الذي جاءت عليه، أثر الجمل الهارب، يجيء من الشمال الشرقي، وينتهي عند حافة الدائرة الملساء. ثم لا شيء. ثم الجمل، في وسطها، بارك.

كأنه لم يمش إليها. كأنه وُضع.

نزلت إليه.

ولم تفكر. كانت تعرف أنها لو فكرت، لما نزلت. نزلت كما ينزل المرء في ماء بارد، دفعة واحدة. ومشت على الرمل الأملس، وكان تحت قدميها دافئًا. دافئًا

كجلد. ووصلت إلى الجمل، وفكت العقال، وأمسكت الرسن.

وقام الجمل.

قام فورًا، كأنه كان ينتظرها. ونظر إليها بعينيه الكبيرتين، الرطبتين. وفيهما شيء لم تره في عيون الجمال قط. شيء يشبه الامتنان.

ومشت به خارج الدائرة.

ولم تلتفت.

حين رجعت، كان هدران جالسًا حيث تركته، ووردة إلى جانبه.

ورأى هدران الجمل قبل أن تصل. لم يره. سمعه. ورفع رأسه.

«وجدتِه.»

«وجدتُه.»

«والماء؟»

«على رحله. أربع قرب.»

ولم يقل هدران شيئًا مدة. ثم قال، بصوت خفيض: «كيف وجدتِه يا بنت نوقار؟»

ونظرت إليه قيلة. ثم إلى وردة. وكانت المبصرة تنظر إليها، وفي عينيها شيء تعرفه قيلة. السؤال الذي لا يُقال.

«تبعتُ أثره،» قالت.

«الأثر غطاه الرمل في الليل.»

«تبعتُ أثره،» قالت قيلة مرة أخرى.

وسكت هدران.

ونظرت إليها وردة طويلًا. ثم أشاحت بوجهها، ولم تقل شيئًا. لكن قيلة رأتها تنظر إلى يدها اليمنى. العارية. وكانت فيها رعشة خفيفة، لم تستطع قيلة أن توقفها.

لم تقل لهما عن الدائرة الملساء.

مشوا ذلك اليوم كله، في الحر، بلا كلام. وكانت قيلة على جملها، ويدها في حجرها، تحت الكساء، حيث لا يراها أحد. وكانت تفكر.

لم تكن تعرف ما الثمن.

كانت وردة قد قالت لها: الثمن يكون من الذاكرة، أو العمر، أو الرحمة. وقد يكون من الأرض. وكانت قيلة قد أبصرت مرة واحدة، يوم موت جدتها، ولم تعرف يومئذ ما دفعت. كانت صغيرة. وكان الحزن أكبر من أن تبحث فيه عن شيء ضاع.

والآن بحثت.

كما تبحث وردة. في رأسها، كما يبحث المرء في جيبه بعد زحام. أبوها: هنا. أمها: هنا، وجهها، وصوتها، وطريقتها في ربط الشعر. أخوها. الفرسان، أسماؤهم، المئتان وسبعة وثلاثون. هفير. البئر. الحبل الذي كان أقصر مما ينبغي. ليلة القتل، والجمرة، والأصابع الزرقاء.

كلها هنا.

ثم بحثت في دفترها.

لم يكن معها. كانت قد تركته في خيمتها، في السهل، في صندوق صغير تحت الفراش، حيث يكون دائمًا. دفتر صغير، أسود الجلد، تكتب فيه في الليل، حين لا

يراها أحد، ثم تمزق الصفحات وتحرقها. لم يقرأه أحد قط. ولا هفير. وكانت تعرف ما فيه. كل كلمة. لأنها كانت تكتب الكلمة ثم تحرقها، فتبقى في رأسها وحده.

وكانت هناك قصيدة. عن أمها. كتبتها بعد موتها، بثلاثة أشهر. ثمانية أبيات. وكانت قد أحرقتها، كما تحرق كل شيء. لكنها كانت تعرفها، كما يعرف المرء صلاة.

وقالتها في نفسها.

البيت الأول. والثاني. والثالث. والرابع.

والخامس...

لم يكن هناك.

كان الرابع، ثم كان السادس. وبينهما مكان. تعرف أن فيه شيئًا. تعرف أنه كان بيتًا، وأنه كان عن يدي أمها. لكن الكلمات لم تكن هناك.

ولم يكن هناك دفتر تنظر فيه. لأنها أحرقته.

في الليلة السادسة، لم يأت الصوت.

أناخوا على ظهر كثيب، لا في منخفض، كما قال هدران. وعقلت قيلة الجمال، وربطت كل واحد إلى الآخر بحبلين. ولم تنم. قعدت والقوس على ركبتيها، وأذنها إلى الأرض.

ولم يأت شيء.

لكنها في منتصف الليل سمعت وردة تتكلم.

لم تكن نائمة. كانت جالسة على رحلها، مستيقظة، وعيناها مفتوحتان. وكانت شفتاها تتحركان. وحين أصغت قيلة، سمعت الحروف الثقيلة، كالحجارة تتدحرج. لكن ليس كلها. كانت تسمع وسطها كلمة، مقطعًا، ثم آخر.

ثلاثة مقاطع.

وقامت قيلة، ومشت إليها بسرعة، وجثت أمامها، ووضعت يدها على فمها.

ونظرت إليها وردة. وكانت عيناها واسعتين، كعيني من يستيقظ من حلم ولا يعرف أين هو.

ولم ترفع قيلة يدها.

«لا،» قالت. «لا تقوليها.»

وأومأت وردة، ببطء، تحت يدها.

وأنزلت قيلة يدها. ولم تقم. جلست أمامها، على الرمل، وأخذت يديها في القفازين، وأمسكتهما.

«كانت تناديني،» قالت وردة، بصوت كالهمس. «لم أكن أريد أن أجيب. لكن الكلمة كانت في فمي. كأنها لي.»

«ليست لكِ.»

«أعرف.» ونظرت إليها وردة. «لكن كيف أعرف ما هو لي، يا قيلة، وأنا أنسى كل يوم شيئًا؟»

ولم تجب قيلة.

وبقيتا هكذا حتى الفجر. يداها في يدي وردة. ولم تقل أي منهما شيئًا.

في الصباح السابع، صعدوا آخر كثيب.

ورأت قيلة الأرض تتغير، كما تغيرت عند الحد الآخر للخلاء، لكن بالعكس. صار الرمل أصفر، ثم برتقاليًا. وصار فيه حصى. ثم كانت شجيرة. ثم أخرى. ثم كان

في الأفق خط.

أخضر.

لم يكن كالخضرة التي في سُرْدان، بقعًا متفرقة حول الآبار. كان خطًا كاملًا، يمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، كأن أحدًا رسمه بقلم. وفوقه، في الضباب الخفيف، أشكال. طويلة. نحيلة. كأصابع ممدودة إلى السماء.

«الصوامع،» قال هدران. ولم يكن قد رآها.

«كيف تعرف؟»

«أسمعها.»

وأصغت قيلة.

وسمعتها. خفيفة، بعيدة، كصوت النحل في خلية وراء الجبل.

ولم تكن قد سمعت هذا الصوت قبل. لكن وردة، إلى جانبها، على جملها، رفعت يديها في القفازين إلى صدرها، وضمتهما، كأنها تحمي شيئًا.

«أعرفه،» قالت وردة.

ونظرت إليها قيلة.

«من المدينة. في الزجاج.» وكانت تنظر إلى الأصابع الطويلة في الأفق. «الأعمدة. كانت تطن هكذا.»

12. قلمير

كان الماء يجري.

وقفت قيلة على حافة القناة، ولم تستطع أن تتقدم خطوة.

كانت قد رأت قناة مرة واحدة قبل اليوم. قبل سنة، من بعيد، حين ركبت إلى خيام أخيها في الشرق تحمل إليه خبرًا من المجلس، ورأت على حافة خيامه خطًا لامعًا في الأرض، يتحرك. ولم تقترب منه. قالت لنفسها يومئذ إنها لا تريد أن ترى ماء الآلات. ولم يكن هذا هو السبب.

والآن كانت القناة تحت قدميها.

كانت من حجر رمادي مصقول، بعرض أربعة رجال، وعمق رجلين. وكان الماء فيها يملؤها إلى ثلثيها، ويجري. لا كما يتحرك الماء في الدلو حين تهزه. كان يجري كله، إلى جهة واحدة، بسرعة رجل يمشي مستعجلًا. وكان سطحه يتموج، ويلمع، ويتكسر عند الحجارة، ويصدر صوتًا. صوتًا لا يتوقف. كحديث كثير لا تفهمه.

وكان لا ينتظر.

هذا ما أخافها. فكرت فيه بعد ذلك، وعرفت أنه هذا. الماء في سُرْدان ينتظر. في البئر، في القربة، في الحوض. ينتظر الحبل والدلو واليد. يُؤخذ منه بقدر، ويبقى

ما يبقى، ويُحسب. وكانت قيلة قد عاشت عمرها كله تحسبه. كم في البئر. كم نزل. كم يكفي. كم بقي.

وهذا الماء لا يُحسب. يجري ويذهب. ولو وقفت هنا يومًا كاملًا، لمر أمامها من الماء أكثر مما في كل آبار سُرْدان.

ولم تعرف لماذا أرادت أن تبكي.

ومن موضعها رأت في الجنوب تلًّا أجرد، أبيض، لا نخلة عليه ولا عشبة، والقنوات تدور حوله ولا تقربه. وسألت عنه رجلًا من أهل القرية، فلمس جبينه وقال: «تل الصوامع.» ولم يزد.

وقال هدران بعد ذلك، وهو لا يراه: «هناك بنى النوثار صوامعهم الأولى، قبل أن يغرقوا. والمبصرون يقولون إن الملح هناك لا يحفظ شيئًا. ولا يذكره أحد في قلمير أمام الإمبراطورة.»

جثت وردة إلى جانبها.

ولم تنظر قيلة إليها. لكنها رأتها، بطرف عينها، تنزع القفاز الأيسر. وأرادت أن تقول: لا. ثم رأت الفتاة تمد يدها العارية إلى الماء، وتضعها فيه.

ولم يحدث شيء.

لم تصرخ وردة. لم ترتجف. لم تغمض عينيها. بقيت جاثية على حافة القناة، ويدها في الماء الجاري، إلى المعصم. وكان وجهها يتغير. ببطء. كما يتغير وجه من كان يحمل حملًا ثقيلًا طويلًا، ثم وضعه.

«وردة؟»

«لا شيء.» وكان صوتها هادئًا كما لم تسمعه قيلة. «لا شيء يا قيلة. لا أسمع شيئًا.»

ونظرت إليها.

«الماء يمحو،» قالت وردة. «الماء الجاري أكثر من كل شيء. لا يبقى فيه أثر. ولا ثانية.» وأخرجت يدها، ونظرت إليها، والماء يقطر من أصابعها. ثم أدخلتها مرة أخرى. «منذ خرجنا من السهل، وأنا أسمع. الرمل، والملح، والزجاج. كل شيء. حتى من خلال القفازين.» وأغمضت عينيها. «وهنا لا شيء. هنا ساكت.»

وجلست قيلة على الحجر إلى جانبها.

ولم تقل شيئًا. لكنها فكرت: الماء الذي أخافني، أراحها. وفكرت: وكلانا لم يره قبل اليوم.

جاء الجنود قبل أن يقوما.

كانوا خمسة، على خيل، من الطريق المرصوف الذي يجري بحذاء القناة. ورآهم هدران قبل أن تراهم قيلة، أو سمعهم، وقال: «لا تمدي يدك إلى القوس.» ولم تمد يدها.

ووقفوا على مسافة. وكانت دروعهم كدروع الجنود في الشعب الشمالي: صفائح مصقولة، وعلى الصدر عين تقطر منها قطرة. ورأت قيلة الجندي الشاب الأشقر في الشعب، على ظهره، وعيناه مفتوحتان. وأبعدت الصورة.

ونزل أحدهم، وتقدم.

كان كهلًا، قصيرًا، عريض الكتفين، بوجه أحمر من الشمس، ولحية رمادية مقصوصة. وكان على يده اليمنى خاتم من فضة، فيه حجر أزرق.

ونظرت قيلة إلى الخاتم. ثم إلى وجهه.

«من الخلاء؟» قال. بلسان الميثاق، بلهجة قلمير، يقلب القاف همزة. ونظر إلى الجملين، والجمل الثالث، والقرب الفارغة تقريبًا على الرحال. ونظر إلى هدران، وعينيه البيضاوين. ثم إلى وردة، والماء يقطر من يدها. ثم إلى قيلة. وإلى عباءتها الرمادية، وإلى الحبل الأخضر على معصمها.

ووقفت عيناه على الحبل.

«من فرسان البئر.»

«قائدتهم.»

ورفع حاجبيه. ثم نظر إلى الخلاء وراءهم، إلى الكثبان البيضاء التي تمتد إلى الأفق.

«عبرتِ الخلاء.»

«عبرناه.»

«سبعة أيام؟»

«سبعة.»

«وبحر الزجاج؟»

«ليلة.»

ونظر إليها الرجل مدة. ثم إلى هدران. ثم ضحك. ضحكة قصيرة، فيها شيء يشبه الإعجاب. «لم يعبره أحد من جهتكم منذ عشرين سنة. نعرف ذلك، لأننا نعد.» ونظر إلى القرب الفارغة. «اشربوا.»

لم تتحرك قيلة.

«لم نقبل،» قالت.

ونظر إليها الرجل.

«الماء لمن قبل.» قالتها كما قالها أخوها، عند بئر الغرين، والصبي بين يدي رجله. «هذا عهدكم. ونحن لم نقبل. لم نأت لنقبل.»

ورأت في وجه الرجل شيئًا تغير. ثم رجع كما كان. ثم ابتسم.

«هذا في سُرْدان،» قال. «حيث الماء عهد. هناك نعطي القبائل حصصًا، والحصة لمن قبل، لأن القبيلة التي تقبل تأخذ ماءً يُؤخذ من غيرها، فلا بد من حساب.» وأشار إلى القناة. «وهذه أرض قلمير. والإمبراطورة تقول: لا يعطش أحد على قناة. لا غريب، ولا عدو، ولا من لم يقبل. ولا فارسة.»

ونظرت إليه قيلة.

«لماذا؟»

«لأنها تقول ذلك.» ورفع كتفيه. «وأنا أفعل ما تقول.»

ونزل جنديان آخران، وأخذا القرب، ونزلا إلى درج صغير محفور في جدار القناة، وملآها. ولم يسأل أحد عن شيء.

وشربت قيلة.

كان الماء باردًا. أبرد من ماء البئر. وكان طعمه... لم تعرف. كان ماء. لكن كان فيه شيء، في آخره، كطعم الحجر. كطعم الملح، وليس ملحًا.

ونظرت إلى وردة. وكانت المبصرة تنظر إلى قربتها، ولم تشرب منها بعد.

سار الرجل معهم حتى المخفر.

كان المخفر بيتًا من حجر مصقول، صغيرًا، مربعًا، على تقاطع قناتين. وفي جانبه برج قصير، وعلى البرج راية، عليها العين والقطرة. ومن البرج، حين صعدت قيلة إليه بإذن الرجل، رأت الأرض.

ولم تكن قد رأت مثلها.

كانت القنوات تمتد من الخلاء إلى الشرق، كالعروق في ظهر اليد. واحدة كبيرة، ثم تتفرع، ثم تتفرع. وبينها حقول. خضراء، وصفراء، وبنية حيث حُرثت. قمح، وشعير، وكتان، وأشجار صغيرة في صفوف. وبيوت من طين أبيض، قرى صغيرة، على حواف القنوات. ودخان يصعد من بعضها. ورجال ونساء في الحقول، صغارًا من البعد، كالنمل.

«كان هذا كله رملًا،» قال الرجل، وقد صعد إلى جانبها. «قبل ثلاث سنين. حافة الخلاء. رمل وحصى، وبعض الشوك. والناس الذين في تلك القرى كانوا يموتون. في وادي زهراد وفي غيره. كان النهر قد نقص في الجفاف، والحقول على ضفتيه لم تعد تكفي، والقرى البعيدة عن النهر... أنا من قرية بعيدة عن النهر.»

ونظرت إليه قيلة.

«ماتت أمي في السنة الثانية من الجفاف،» قال. ولم يكن في صوته شيء. «وأختي. وابن أختي. وكنا ندفن الموتى في حقول لم تعد حقولًا.» ونظر إلى الأرض الخضراء تحتهم. «والآن، انظري.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

ثم رأت، في الأفق الجنوبي، على حافة الخلاء، ما لم تكن قد رأته من بعيد في الصباح، لأن الضباب كان يغطيه.

كانت أطول من أي شيء.

أطول من البرج، ومن كل ما في سُرْدان، ومن كل ما تخيلته. كانت تقوم على حافة الخلاء، حيث ينتهي الأخضر ويبدأ الأبيض، وحدها. برج من حجر داكن، أسطواني، يضيق كلما صعد، وفي أعلاه شيء يلمع في الشمس. كالبلور. كالماء المتجمد.

ومنه كان يأتي الطنين.

لم تسمعه قيلة هنا، في المخفر. كان بعيدًا. لكنها أحسته. في أسنانها. كما أحست الصوت تحت الرمل.

«صومعة الحافة،» قال الرجل، وكان صوته قد تغير. فيه شيء من الفخر، وشيء آخر. «أولى الصوامع. وأكبرها. منها يجري كل هذا.» وأشار إلى القنوات. «وهناك المستنطق الأعظم. أمنوثار.»

«وحولها؟»

ونظرت قيلة إلى قاعدة البرج. وكانت هناك، صغيرة من البعد، أشكال كثيرة. خيام. وحيطان. ونقاط لامعة تتحرك. دروع.

«جيش،» قال الرجل.

«لماذا يحرسون الصومعة بجيش؟»

ولم يجب مدة.

«الإمبراطورة تحرس ما تحبه،» قال أخيرًا. ثم نزل عن البرج.

في المساء، وضعهم الرجل في قارب.

كان قاربًا طويلًا، مسطحًا، من خشب أسود، يسير في القناة الكبرى، يجره بغلان على الطريق المرصوف إلى جانبها. وفيه أكياس قمح، وجرار زيت، وثلاثة فلاحين، وامرأة مع طفلين. وكان القارب يمضي إلى الشرق، إلى النهر، ثم في النهر إلى العاصمة.

«يومان،» قال الرجل. «ستمار الكبرى. والإمبراطورة تعرف أنكم آتون. أرسلتُ طائرًا.»

«ولماذا تأخذنا إليها؟» قالت قيلة.

ونظر إليها الرجل.

«لأنكِ قلتِ إنكِ قائدة فرسان البئر. ولأنكِ عبرتِ الخلاء. ولأن الفرسان لا يميلون، هكذا يقولون.» وابتسم. «والإمبراطورة تريد أن ترى شيئًا لا يميل.»

ثم أعطاها كيسًا صغيرًا من جلد.

وكان فيه خاتم. فضة، وحجر أزرق.

«لا،» قالت قيلة.

«ليس لكِ.» وأشار إلى القارب. «للحراس على النهر. إن سألوكِ من أنتِ، فأريهم إياه. يعرفون أنكِ من عندي.» وسكت. «ثم أعيديه إليّ إن رجعتِ من هنا.»

ونظرت قيلة إلى الخاتم. ثم أغلقت الكيس، ووضعته في صدر ثوبها، إلى جانب نصف الرق. ولم تعرف لماذا شعرت أنها خانت شيئًا.

لم تنم قيلة في القارب.

كان الماء تحتها. يجري. وكانت تسمعه طول الليل، يتكسر على جانب القارب، ويصدر ذلك الصوت الذي لا يتوقف. وكان القارب يتأرجح قليلًا، لا كما يتأرجح الجمل. تأرجحًا آخر، أخف، لا إيقاع له.

ونامت وردة.

كانت أول مرة منذ خرجوا من السهل تنام نومًا حقيقيًا. على أكياس القمح، ويداها في القفازين على صدرها، وفمها مغلق. ولم تتكلم في نومها. وكانت قيلة تنظر إليها، في ضوء القمر، وتفكر: هنا ترتاح. على الماء الذي يمحو.

وقعد هدران إلى جانبها، ورأسه مائل.

«لا تنامين.»

«لا.»

«الماء؟»

ولم تجب.

«أبوكِ كان مثلكِ،» قال هدران. «حين رأى النهر أول مرة، وقف على ضفته يومًا كاملًا. ولم يشرب. قال لي: يا هدران، الماء الذي لا يُحسب، من يحرسه؟»

ونظرت إليه قيلة.

«ماذا قلت له؟»

«قلت: لا أحد. ولهذا لا يحتاج حارسًا.» وابتسم. «فقال: أو لهذا يحتاج.»

في الصباح، رأت قيلة الناس.

كان القارب قد دخل النهر في الليل. وكان النهر عريضًا، أعرض من أي شيء، ضفته الأخرى خط بعيد من الشجر. وكان الماء فيه بنيًّا، لا صافيًا كماء القناة. وكان بطيئًا، ثقيلًا، كأنه يفكر. وكانت عليه قوارب أخرى كثيرة، بأشرعة بيضاء، وأخرى تجرها البغال على الضفة.

وعلى الضفة قرى.

ورأت قيلة الأطفال. يسبحون في الماء، عراة، يصرخون، ويضحكون، ويرش بعضهم بعضًا. ورأت النساء على الدرج الحجري، يغسلن الثياب. ورأت الرجال في الحقول. ورأت الدخان من التنانير، وشمت رائحة الخبز.

ولم يكن أحد يموت.

لم تر في سُرْدان، منذ سبع سنين، أطفالًا يلعبون في الماء. كانت قد نسيت أن هذا شيء يمكن. ورأتهم الآن، وفكرت في أخيها. وفي ابنه، الذي كان في الرابعة. وفي العشرين طفلًا في قبيلته. وفي قوله: هذا ما قبلته.

ثم رأت شيئًا آخر.

كان على الدرج الحجري صبي، في العاشرة، أو أقل. وكان معه كلب صغير، أصفر، نحيف. وكان الكلب يقفز حوله، ويريد شيئًا في يده. خبزًا.

وضرب الصبي الكلب.

لم يكن هذا غريبًا. الصبيان يضربون الكلاب. لكن قيلة رأت وجه الصبي وهو يضربه. ولم يكن فيه غضب. ولم يكن فيه ضحك، كما يضحك الصبيان حين يؤذون شيئًا. كان فيه لا شيء. كان يضربه كما يضرب المرء ذبابة. مرة، ومرتين، وثلاثًا. والكلب يصرخ. والصبي يأكل خبزه.

ولم ينظر إليه أحد.

لا النساء على الدرج. ولا الرجال. ولا الأطفال في الماء. كأنهم لم يسمعوا الكلب يصرخ.

ونظرت قيلة إلى وردة. وكانت المبصرة قد استيقظت، وكانت تنظر إلى الصبي أيضًا. وفي وجهها شيء.

«رأيتِ؟» قالت قيلة.

«رأيت.»

ولم تقل أي منهما أكثر من ذلك. لكن قيلة تذكرت فم أخيها. الشفتين المطبقتين. الشيء الذي كان في وجهه، ولم يكن فيه قبل. كأن أحدًا آخر يسكنه.

ثم تذكرت أخاها وهو يقول: عشر جلدات. ثم: خمس.

ثم تذكرت أنه قالها، أول مرة، بلا شيء في وجهه.

دخلوا ستمار الكبرى في عصر اليوم الثاني.

ولم تكن قيلة قد رأت مدينة. رأت قيظان، سوق القوافل الكبير في سُرْدان، ببيوته الطينية وأسواقه المسقوفة بسعف النخل. وكانت تظنها مدينة. ثم رأت ستمار الكبرى، وعرفت أنها لم تكن قد رأت شيئًا.

كانت على الضفة الشرقية للنهر، تصعد من الماء إلى تل كبير، طبقة فوق طبقة، كالدرج. وكانت كلها من حجر. حجر أبيض، ورمادي، ووردي، مصقول، يلمع في الشمس. وكانت فيها أبراج، وقباب، ودرج عريض ينزل إلى الماء. وكانت فيها قنوات أيضًا، تجري بين البيوت، وعليها جسور صغيرة. وكان فيها ناس أكثر مما رأت في حياتها كلها.

وفي أعلى التل، كان القصر.

لم يكن قصرًا. كان معبدًا. رأت قيلة ذلك فورًا، حتى من بعيد. كانت أعمدته الضخمة، وواجهته المثلثة، وتماثيله الكبيرة التي تقف على جانبي الدرج، كلها أقدم من باقي المدينة. أقدم بكثير. كان الحجر فيها أدكن، والنقوش عليها أعمق، وكأن الريح أكلت منها أكثر.

«بيت الملوك الآلهة،» قال هدران. ولم يكن قد رآه. «كانوا يُعبدون فيه. الآن تسكنه الإمبراطورة.»

ونزلوا عند الدرج الحجري الكبير، حيث ترسو القوارب.

وكان في انتظارهم رجل في ثوب أزرق، أصلع، مهذب، لا يكف عن الانحناء. قال إنه من بيت الإمبراطورة، وإن لهم دارًا في الطبقة الثالثة، وإن الإمبراطورة ستراهم بعد ثلاثة أيام، لأنها في المجلس. ثم قال شيئًا آخر، وهو ينظر إلى وردة.

«والمستنطق الأعظم يطلب المبصرة. غدًا. إن أذنت.»

ونظرت وردة إليه. ثم إلى قيلة.

«أمنوثار؟» قالت قيلة.

«المستنطق الأعظم،» قال الرجل، وانحنى. «سمع أن حافظة من إلسوم عبرت الخلاء. وهو يريد أن يسألها عن الخلاء.»

«ولماذا لا يسأل قائدة الفرسان؟»

ونظر إليها الرجل، وابتسم ابتسامة مهذبة.

«لأن قائدة الفرسان لا تبصر.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

مشوا في المدينة إلى دارهم، والرجل الأصلع أمامهم.

ومروا في ساحة كبيرة، مرصوفة بالحجر الأبيض، وفي وسطها جدار طويل. حائط من حجر وردي، عليه نقوش. وتوقفت قيلة عنده، دون أن تقرر أن تتوقف.

كانت النقوش صورًا. ناس، صفوف منهم، يمشون. وكانوا في أول الجدار مقيدين، ينحنون تحت أحمال. ثم كانوا يمشون في ليل، والقمر فوقهم. ثم كان هناك ماء، نهر، وكانوا على الضفة الأخرى. وفي الماء، رجال على خيل، وعربات، يغرقون. ورجل كبير، أكبر من كل من في الصور، بتاج طويل، في وسط الماء.

وتحت الصور سطر من الكتابة. قلمير القديمة. لم تستطع قيلة قراءتها.

وقرأتها وردة.

«هرب العبيد الآبقون في الليل،» قالت ببطء، تترجم. «سرقوا ذهب الملك وقمحه، ولحق بهم الملك الإله ليرد ما سُرق، فغدر بهم النهر.» وسكتت. «هذا ما تقوله.»

ونظرت قيلة إلى الجدار.

كانت تعرف هذه الحكاية. كل من في سُرْدان يعرفها. كانت حكاية بني قيظ، الذين يقولون إن أجدادهم كانوا التيرميين، الذين خرجوا من قلمير قبل ثلاثة آلاف سنة. وكانت حكايتهم تقول: كنا عبيدًا، وكان الملك يقول إنه إله، ويقتل أطفالنا، نخرجنا في الليل، ولم نأخذ إلا ما كان لنا، وتبعنا ليقتلنا. فسكتت الأرض تحت النهر، ونزل ماؤه في شقوقها ليلة واحدة، فعبرنا على الطين، ثم صعد الماء من الشقوق على من تبعنا.

وكانت الحكاية تُروى في الخيام، في الليل، للصغار. وكان ظميان يرويها. وكان خردش يرويها.

«كذب،» قالت قيلة.

ونظرت إليها وردة.

«ليس كله،» قالت المبصرة، بهدوء. «الصور تقول إنهم كانوا مقيدين. وإنهم خرجوا في الليل. وإن الملك لحقهم. وإنه غرق. هذا ما تقوله حكاية بني قيظ أيضًا.»

«والذهب؟ والقمح؟ والغدر؟»

«لا أعرف.» ونظرت وردة إلى الجدار. «لم أكن هناك.»

ثم قالت، بعد لحظة، بصوت أخفض: «ولا أحد منهم كان هناك. لا من كتب هذا، ولا من يرويه في الخيام. كلهم سمعوه من غيرهم.»

في الليل، في الدار، لم تنم قيلة مرة أخرى.

كانت الدار من حجر، باردة، وفيها نافذة كبيرة على النهر. وكانت تسمع الماء. لم يتوقف. طول الليل. يجري تحت المدينة، ويجري في القنوات بين البيوت، ويجري في النهر، ويتكلم بذلك الحديث الكثير الذي لا يُفهم.

وجلست عند النافذة، وأخرجت من صدر ثوبها نصف الرق. وفتحت القماش، ونظرت إليه في ضوء القمر.

إلى ستمارا الثالثة، صاحبة قلمير...

وفكرت: بعد ثلاثة أيام أقف أمامها، وأسألها. ولم تعرف ماذا ستسأل.

ثم أخرجت الكيس الآخر، وفتحته، ونظرت إلى الخاتم. فضة، وحجر أزرق.

ولبسته.

ونظرت إلى يدها، والخاتم عليها، في ضوء القمر، فوق الحبل الأخضر.

ثم نزعته، ووضعته في الكيس، وأغلقته.

ولم تعرف أي الحركتين كانت هي.

13. المستنطق الذي ينسى

سألها أمنوثار ثلاث مرات من أين جاءت.

في المرة الأولى، حين دخلت، وقام لها عن كرسيه، ببطء، كمن يقوم من بئر، وأشار إلى الكرسي المقابل، وقال: «من إلسوم، أليس كذلك؟ من المكتبة؟» وقالت: نعم. وابتسم، وجلس.

وفي المرة الثانية، بعد أن تكلما مدة عن الطريق، ورفع إليها عينيه من الدفتر المفتوح أمامه، وقال: «وأنتِ من أين يا ابنتي؟» وقالت: من إلسوم. ونظر إليها لحظة، ثم إلى الدفتر، وقلب صفحة، وقرأ شيئًا، ثم قال: «نعم. نعم. من إلسوم.»

وفي المرة الثالثة لم تجب.

نظرت إليه فقط. ونظر إليها. ثم أطرق إلى الدفتر، وكتب سطرًا قصيرًا، بخط صغير مرتجف. وقرأته وردة مقلوبًا، لأن الحفظة يتعلمون قراءة المقلوب في السنة الأولى: من إلسوم. سألتُها ثلاثًا.

ثم رفع رأسه، وابتسم ابتسامة فيها اعتذار.

«أنسى،» قال. «تعرفين لماذا.»

«أعرف.»

«طبعًا تعرفين.» ونظر إلى قفازيها. «أنتِ أيضًا تدفعين.»

كانت الدار في الطبقة الخامسة من المدينة، قريبًا من القصر، لكنها لم تكن قصرًا. كانت دار عالم. غرفة واحدة كبيرة، سقفها عالٍ، وجدرانها كلها رفوف، والرفوف كلها كتب ودفاتر وألواح وصناديق صغيرة مقفلة. وفي وسطها طاولة طويلة، عليها أدوات لم تعرف وردة أسماء أكثرها: موازين صغيرة، وقوارير، وقطع من البلور مصقولة، وكرة من نحاس فيها حلقات تدور. وعلى الطاولة، أمام أمنوثار، الدفتر.

كان كبيرًا، سميكًا، بجلد بني متآكل الأطراف، كأن يدًا واحدة أمسكته كل يوم سنين كثيرة. وكانت أوراقه مختلفة: بعضها أبيض جديد، وبعضها أصفر، وبعضها موج كأن ماء أصابه.

ولم يغلقه أمنوثار مرة طوال اللقاء.

وكان هو نفسه كما قالوا عنه، وأكثر. كان في الستين، كما تقول سجلات إلسوم. وكان يبدو في الثمانين، أو أكبر. نحيلًا، منحنيًا، بجلد رقيق كورق الدلتا، تظهر تحته العروق الزرقاء. وكان شعره أبيض، خفيفًا، ولحيته بيضاء مقصوصة. لكن عينيه لم تكونا عيني شيخ. كانتا حادتين، رماديتين، تنظران إلى كل شيء كأنهما تقيسانه.

وكان صوته صوت معلم. دقيقًا، هادئًا، لا يرتفع.

«الخلاء،» قال. «حدثيني عن الخلاء.»

وحدثته وردة. لم تحدثه بكل شيء. كانت قد قررت ذلك قبل أن تجيء، وقالت لها قيلة في الصباح، وهي تشد لها المنديل الرمادي على رأسها، كما تشده الأم لابنتها: لا تقولي له ما لا يعرفه. قولي ما يعرفه، وانظري ماذا يسأل.

فحدثته عن الملح. وعن القفازين اللذين لا يكفيان. وعن الأعمدة من بعيد. ولم تحدثه عن الشكل عند العمود الثالث، ولا عن الرمل الدافئ، ولا عن الجمل في الدائرة الملساء.

وكان يكتب. كل ما تقوله. بخطه الصغير المرتجف. وكان يسأل أسئلة صغيرة، دقيقة: كم كان عمق الملح تحت الرمل؟ هل كان الأثر أقوى في الليل أم في النهار؟ هل أحست بالأثر في القدمين أولًا أم في اليدين؟ وكانت أسئلة لم يسألها أحد في إلسوم قط. أسئلة رجل يقيس.

ثم قال: «وبحر الزجاج.»

ونظرت إليه وردة.

«عبرتموه،» قال. «في ليلة. أخبرني الضابط في المخفر. وقال إن المبصرة كانت مربوطة على جملها، مغمى عليها.» ونظر إليها بعينيه الرماديتين الحادتين. «لمستِه.»

ولم تجب.

«لا بأس،» قال. «كل من يبصر يلمسه. لا يستطيع ألا يلمسه. إنه...» وسكت، وبحث عن الكلمة. «ينادي.»

«نعم.»

«وماذا رأيتِ؟»

وقررت وردة، في تلك اللحظة، أن تقول له.

لم تعرف لماذا. ربما لأنه قال: ينادي. ولم يقلها أحد قبله. لا هدران، ولا قيلة. كانت هي التي قالتها، على حافة الكثيب، والقفاز في يدها: إنه يناديني. وكان هذا

الرجل، في هذه الغرفة، على بعد أيام من الخلاء، يعرف ذلك. كمن يعرف الطريق لأنه مشى فيه.

فحدثته عن المدينة.

عن السهل الأخضر، والماء الكثير. وعن الأعمدة، صفًا وراء صف. وعن الناس الطوال في ثيابهم البيضاء، الذين لا ينظرون إلى الأرض. وعن الأعمدة الطنانة في وسط المدينة، والبلور في أعلاها. وعن العشب الأصفر في أطراف الساحة.

ولم يكتب أمنوثار.

كان قلمه في يده، فوق الدفتر، ولم ينزل. وكان ينظر إليها. وكان وجهه ساكنًا. ساكنًا كما يسكن وجه من يسمع شيئًا يعرفه، ولا يريد أن يُرى أنه يعرفه.

وحدثته عن الليلة. وعن الطنين الذي صار زئيرًا. وعن الأرض الدافئة تحت الساحة، والنائم الذي تقلب. وعن الشق، والنفَس، والكلمة.

ثم سكتت.

ولم تقل له عن الضوء الأبيض. ولا عن الفراغ الذي أكل المدينة من أطرافها.

سكت أمنوثار مدة طويلة.

ثم أنزل القلم على الطاولة، إلى جانب الدفتر. ببطء. كمن يضع شيئًا قد ينكسر.

«عاصفة ملح،» قال.

ونظرت إليه وردة.

«هذا ما حدث لإرواث،» قال، وكان صوته هادئًا، دقيقًا، كصوت معلم يصحح لتلميذ. «في كتبكم في إلسوم، وفي كتبنا. النوثار بنوا أبراجًا للاستنطاق، نعم،

وأخذوا من الأرض أكثر مما ينبغي، نعم. وجفت الأرض. وجاءت عاصفة ملح عظيمة، في سنة جفاف، ودفنت المدينة. والزجاج من حر الشمس على الملح والرمل، في قرون كثيرة. ما رأيتِه في الأثر... الأثر في الملح قوي، يا ابنتي. قوي جدًا. والمبصر الشاب يرى فيه أحيانًا ما يخافه هو، لا ما كان.»

ولم تقل وردة شيئًا.

لكنها رأت يده. يده اليسرى، على الطاولة، إلى جانب الدفتر. وكانت ترتجف. لا كما ترتجف يد الشيخ. كما ترتجف يد نوسم حين قال لها: اكتبيه لي أولًا.

ورأت أنه رأى أنها رأت.

وسحب يده إلى حجره.

ثم قال شيئًا لم تتوقعه.

«أتعرفين ما هذا؟» ووضع يده اليمنى على الدفتر المفتوح.

«دفترك.»

«ذاكرتي.» وابتسم، تلك الابتسامة التي فيها اعتذار. «كل صباح، يقرؤه عليّ طالب. من أوله. ما كتبته أمس، وما قبله، وما قبله. لأعرف من أنا، وماذا أفعل، ولماذا. وفي كل صباح، أسمع أشياء لا أذكرها. عن رجل اسمه أمنوثار. فعل كذا. وقال كذا. وأراد كذا. وأصدقه. لأنه خطي.»

ونظرت إليه وردة.

«في أول صفحة،» قال، وقلب الدفتر إلى أوله، «كتبتُ هذا.»

وأدار الدفتر إليها.

وكان في أول صفحة، في أعلاها، بخط أثبت من خطه الآن، وأكبر، وأشد سوادًا: فعلتُ هذا لأجلهم.

وتحتها، بخط أصغر: زوجتي: نِيسَا. ابني الأكبر: هِرْمار. ابني الأصغر: تُوثَيْس.

ثم لا شيء.

«لا أعرفهم،» قال أمنوثار. ولم يكن في صوته شيء. «أعرف أسماءهم. أقرؤها كل صباح. ولا أعرف وجوههم. ولا أعرف أين هم. أحياء؟ موتى؟ لم أكتب. أو كتبت، ونسيت أين. ولا أعرف ما هو هذا الذي فعلته لأجلهم. أعرف أنه الصوامع. لأن كل ما بعد هذه الصفحة عن الصوامع. لكني لا أعرف لماذا كانت الصوامع لأجلهم.»

ثم رفع عينيه إليها.

«أنتِ مبصرة.»

«نعم.»

«فأبصريه.»

لم تجب وردة فورًا.

نظرت إلى الدفتر. إلى الجلد البني المتآكل. إلى الأوراق المختلفة. وفكرت في البساط، الذي كان سنين. وفي الرق، الذي كان ليلة واحدة. وفي بحر الزجاج، الذي كان مدينة. وهذا... هذا رجل. عمر رجل. كل يوم منه، منذ بدأ ينسى.

وفكرت في الثمن.

«لماذا؟» قالت.

«لأني أريد أن أعرف.»

«تعرف ماذا؟»

«وجوههم.» وسكت. ثم قال، بصوت أخفض: «لا. ليس هذا. أريد أن أعرف إن كنتُ... إن كان الرجل الذي كتب هذه الصفحة الأولى يرضى عما يفعله الرجل الذي يقرؤها اليوم.»

ونظرت إليه وردة.

«لا أقرأ أثر الأحياء إلا بإذنهم،» قالت.

«أذنتُ.» ووضع يده على يدها، في القفاز. وكانت يده باردة، خفيفة، كورقة. «أذنتُ يا ابنتي. وسأكتب أني أذنت. حتى إن نسيت.»

وكتب، في سطر جديد، تحت من إلسوم. سألتُها ثلاثًا: أذنتُ للمبصرة أن تقرأ الدفتر.

نزعت القفاز الأيسر، ووضعت كفها على الصفحة الأولى.

وكان الأثر... لم يكن كأي شيء.

كان في طبقات، كالبساط. لكن الطبقات لم تكن سنين. كانت أيامًا. آلاف الأيام. وكل يوم منها كان فيه الشيء نفسه: صباح، ويد طالب تقلب الصفحات، وصوت يقرأ، ورجل يسمع. يسمع بدهشة. ثم يسمع بفهم. ثم يقوم، ويذهب إلى عمله. ثم يكتب في المساء. ثم ينام. ثم صباح. ويد طالب. وصوت يقرأ. ورجل يسمع بدهشة.

وكانت الدهشة في كل يوم أضعف قليلًا.

لا لأنه كان يتذكر. لأنه كان يعتاد. كما يعتاد المرء أن يسمع اسمه من غيره.

ونزلت وردة في الطبقات. أعمق. أقدم. حتى وصلت إلى الصفحة الأولى نفسها، يوم كُتبت.

كان أمنوثار شابًا.

لا شابًا جدًا. في الأربعين، ربما. لكن شعره كان أسود، ويده ثابتة. وكان يكتب: فعلتُ هذا لأجلهم. بقلم سميك، وحبر أسود قلميري. وكان يبكي.

ولم يكن وحده.

كانت معه امرأة. لم ترها وردة. أحستها. كما يحس المرء من يقف وراءه. وكانت يدها على كتفه. وكان دفء يدها في الأثر أقوى من كل شيء. أقوى من البكاء. وكانت تقول شيئًا، بصوت هادئ، وكان أمنوثار يكتب ما تقوله.

زوجتي: نيسا.

وأحست وردة اليد على الكتف تشتد قليلًا. كضحكة صغيرة.

ابني الأكبر: هرمار. ابني الأصغر: توثيس.

ثم...

ثم لا شيء.

لم يكن الفراغ. لم يكن أملس ولا باردًا. كان... لم تعرف. كانت الطبقات تحت الصفحة الأولى، كل ما قبلها، كل ما قبل اليوم الذي بدأ فيه الدفتر، لم تكن في الدفتر. لأن الدفتر لم يكن موجودًا قبل ذلك. الأثر يبدأ حيث تبدأ المادة. وكل ما قبل الصفحة الأولى، كل حياة الرجل قبل أن يبدأ ينسى، لم يكن هنا.

كان في رأسه. وذهب.

وخرجت وردة.

ونظرت إلى أمنوثار. وكان ينظر إليها، وعيناه الرماديتان واسعتان.

«ماذا؟»

«كانت معك،» قالت وردة. «حين كتبتها. زوجتك. كانت يدها على كتفك.» وسكتت. «كانت حية.»

ولم يقل أمنوثار شيئًا.

«وكانت تضحك قليلًا،» قالت وردة. «حين كتبت أسماء ابنيك.»

ورأت وجه الرجل يتغير. ليس كثيرًا. شيء في الفم، في الشفتين الرقيقتين. ثم أطرق إلى الدفتر.

ولم يقل شيئًا مدة طويلة.

ثم قلبت وردة الصفحات.

لم تقرر ذلك. يدها فعلت. يدها العارية، وهي ما زالت في الأثر، وما زالت تحس الطبقات. وكانت تقلب، صفحة بعد صفحة، والأثر يمر تحت أصابعها كالماء. الصوامع. الحسابات. رسوم الأبراج. أسماء المستنطقين. الإمبراطورة. الإمبراطورة. الإمبراطورة.

ثم توقفت يدها.

كانت صفحة في وسط الدفتر. ملتصقة بالتي بعدها. أوراقها مموجة، كأن ماء أصابها. وكان لونها أفتح قليلًا من الصفحات حولها. وكانت وردة تحس فيها شيئًا. لا الأثر. غياب الأثر.

وفصلت الصفحتين، بإصبعها، ببطء.

وكانت الصفحة من الداخل مكتوبة. في أعلاها، بخط أمنوثار. خطه في سنين وسطى، أثبت من الآن، أضعف من الصفحة الأولى. سطر واحد، بحبر أسود:

إذا قرأتَ هذا، فأوقف كل شيء.

وتحته... كان هناك خط آخر. كتابة أخرى. سطور كثيرة، بخط ليس خطه. خط أرق، أميل، نخط امرأة، أو خط شاب. لكن الماء كان قد مر عليها. وكانت الكلمات قد سالت، وذابت، وصارت بقعًا رمادية على الورق المموج. ولم يبق منها شيء يُقرأ.

لا شيء.

ووضعت وردة كفها على البقع الرمادية.

وكان الأثر... كان هناك أثر. ضعيف. محفور بعمق، لأن من كتبه كتبه وهو خائف، أو حزين، أو يحب. كانت تحس يدًا. يدًا تكتب. وكانت اليد ترتجف قليلًا. وكان فيها خاتم. خاتم من فضة. ولم تستطع أن ترى الحجر.

ثم الماء.

لم يكن الماء فراغًا. كان شيئًا آخر. كان كالريح على الرمل، تمحو الأثر ولا تأكله. كانت تحس الكلمات هناك، تحت الماء، كما يحس المرء الحجارة تحت الرمل. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقرأها. الماء يمحو. هذا أول ما يُعلَّم.

وأحست، في آخر الأثر، يدًا أخرى. يدًا تمسك كأسًا. وتميله. ببطء. على الصفحة.

ولم تعرف يد من.

خرجت من الأثر وهي ترتجف.

ونظرت إلى أمنوثار. وكان ينظر إلى الصفحة. إلى السطر في أعلاها.

إذا قرأتَ هذا، فأوقف كل شيء.

وكان وجهه ساكنًا. ساكنًا تمامًا. لا شيء فيه.

«هذا خطي،» قال.

«نعم.»

«لم أره قبل.» ولمس الصفحة بإصبع مرتجف. «الصفحتان كانتا ملتصقتين. والطالب يقلبهما معًا كل صباح. ماذا تحته؟»

«لا أعرف. محاه الماء.»

«وفي الأثر؟»

«يد. تكتب. وخاتم فضة. ثم يد أخرى، بكأس.»

ولم يقل أمنوثار شيئًا.

ثم قال: «لماذا؟»

«لماذا ماذا؟»

«لماذا أوقف كل شيء؟» ونظر إليها، وكانت عيناه الرماديتان، لأول مرة، عيني شيخ. «إن كان هناك سبب، فقد ذهب. والسبب الذي يذهب ليس سببًا. أليس كذلك؟ إن قلت لكِ: أوقفي، ولم أقل لماذا، فهل توقفين؟»

ولم تجب وردة.

«في الوادي ألف قرية،» قال أمنوثار. «في كل قرية أطفال. كانوا يموتون. والآن لا يموتون. هذا سبب. أعرفه. أراه كل يوم من نافذتي.» ووضع يده على

الصفحة. «وهذا؟ سطر. وبقعة. ويد لا تعرفين يد من.»

ثم أغلق الصفحتين، ببطء، كما كانتا.

وبحثت وردة عن الثمن، كما تبحث كل مرة.

ومرت على الأشياء. اسمها. قيلة. هدران. الطريق. المدينة في الزجاج. الكلمة التي لا تقال. كلها هنا.

ثم مرت على نوسم.

وكان هنا. وجهه، ويداه، ونبتة الملح، والقفازان اللذان أهداهما، والبرج. وصوته، يقول: ما لم تفهميه فاكتبيه لي أولًا.

وتوقفت.

كانت تذكر أنه قالها. تذكر الكلمات. تذكر الغرفة، والضوء الأخضر. لكن كان هناك شيء آخر، مع الكلمات. شيء كانت تعرفه، ولماذا كانت تعرفه، ولماذا كان مهمًا. شيء جعلها لا ترسل الرسالة. وكانت تحس مكانه، كما يحس اللسان مكان السن.

ولم يكن هناك.

وأخرجت الدفتر الصغير من حزامها، بيد مرتجفة، وفتحته على الرسالة المطوية التي كتبتها لنوسم. ووجدت السطر. بخطها: وحين قلتَ لي: اكتبيه لي أولًا، كانت يدك ترتجف. ولم أفهم لماذا.

وقرأته.

وعرفت أنها كتبته. وعرفت أنه صحيح، لأنها لا تكتب ما ليس صحيحًا.

ولم تحس شيئًا.

لم تحس الشك الذي كان. لم تحس البرد الذي كان في ظهرها حين رأت يده ترتجف. كانت كلمات. كلمات على ورق، بخطها، عن رجل اسمه نوسم. وكانت تصدقها لأنها خطها.

كما يصدق أمنوثار دفتره.

وكتبت، في آخر الدفتر الصغير، في صفحة الضائعات، تحت اليوم الذي عرفتُ فيه قيلة:

لماذا خفتُ حين ارتجفت يد نوسم. كتبتُه في الرسالة. لا أحسه.

ورفعت عينيها.

وكان أمنوثار ينظر إليها. وإلى الدفتر الصغير في يدها. ورأت في وجهه شيئًا. لم يكن شفقة. كان شيئًا أقرب إلى المعرفة.

«بدأتِ،» قال بهدوء.

«بدأت.»

«كم عمرك؟»

«ستة وعشرون.»

وأومأ. ثم أطرق إلى دفتره الكبير، وكتب سطرًا. ولم تقرأه هذه المرة. أشاحت بوجهها.

حين قامت لتذهب، قام معها، ومشى بها إلى الباب. ببطء.

وعند الباب، وضع يده على كتفها. كما وضعت امرأة اسمها نيسا يدها على كتفه، قبل عشرين سنة.

«يا ابنتي.»

«نعم.»

«من أين جئتِ؟»

ونظرت إليه وردة.

ولم يكن في عينيه شيء. لا مزاح، ولا خبث. كان يسأل. لأنه لا يعرف.

«من إلسوم،» قالت.

«من إلسوم.» وابتسم. «جميل. إلسوم جميلة. لم أرها منذ زمن.» ثم أنزل يده. «تعالي مرة أخرى. أريد أن أسألكِ عن الخلاء.»

ومشت وردة في الممر الحجري، ولم تلتفت.

وفي آخر الممر، حيث ينعطف إلى الدرج، سمعت وراءها صوت قلم على ورق.

14. الإمبراطورة

سجد الناس للإمبراطورة، ولم تمنعهم.

رأت قيلة ذلك قبل أن تراها. كانت قد صعدت مع وردة وهدران الدرج الطويل إلى بيت الملوك الآلهة، والرجل الأصلع في الثوب الأزرق أمامهم، يلتفت كل عشر درجات ليتأكد أنهم وراءه. وكان على جانبي الدرج تماثيل. كبيرة، أكبر من ثلاثة رجال، من حجر داكن. رجال جالسون على عروش، بأيد على الركب، وتيجان طويلة. ولم تكن لها وجوه.

كانت الوجوه قد نُحتت. لا نُحتت: كُشطت. ضُربت بالأزاميل حتى لم يبق منها إلا سطح خشن، أفتح لونًا من باقي الحجر. كأن أحدًا أراد أن تبقى التماثيل، وأن تذهب الوجوه.

«بعد وقعة الضفتين،» قال هدران، بصوت خفيض، حين سألته. «حين آمن أكثرهم. كشطوا الوجوه. وتركوا الأجساد.»

«لماذا تركوها؟»

«لأنها أثقل من أن تُنقل.» وسكت. «ولأن الناس لا يحبون أن يهدموا ما بناه أجدادهم. يكتفون بأن يمحوا وجهه.»

وفي أعلى الدرج، في الساحة أمام الأعمدة الكبيرة، كان الناس.

مئات منهم. فلاحون، بثياب الكتان الخشن، وأيد سود من الطين. ونساء، ومعهن أطفال. وشيوخ. جاؤوا من القرى، قال الرجل الأصلع. كل عشرة أيام، يجيء أهل قرية من القرى الجديدة، التي على القنوات، ليشكروا. وكانوا يقفون في صفوف، وفي أيديهم أشياء: سلال من القمح، وجرار من الزيت، وأكاليل من سعف أخضر.

ثم خرجت الإمبراطورة من بين الأعمدة.

ولم تكن قيلة قد تخيلت شكلها. لكنها لو تخيلت، لما تخيلت هذه. كانت امرأة في الخمسين، أو فوقها، متوسطة الطول، ممتلئة قليلًا، بوجه عريض، هادئ، وشعر رمادي مضفور ملفوف على رأسها. ولم يكن على رأسها تاج. وكانت تلبس ثوبًا أبيض بسيطًا، ككل نساء المدينة، وعلى كتفيها شال أزرق. ولم يكن معها إلا امرأتان، وراءها، وجنديان، بعيدًا.

ووقفت في أعلى الدرج.

وسجد الناس.

لم يأمرهم أحد. لم يقل أحد شيئًا. خرجت، فسجدوا. كلهم، معًا، كما ينحني الزرع في الريح. وجوههم على الحجر الأبيض، وأيديهم ممدودة، والسلال والجرار والأكاليل أمامهم.

وبقيت قيلة واقفة.

ووقفت وردة إلى جانبها. وهدران.

ونظرت الإمبراطورة إلى الناس الساجدين. ولم يكن في وجهها شيء. لا فرح ولا ضيق. نظرت إليهم كما ينظر المرء إلى المطر. ثم رفعت عينيها.

ورأت ثلاثة واقفين.

ونظرت إلى قيلة. مدة. ثم إلى الحبل الأخضر على معصمها.

ثم قالت شيئًا للمرأة التي وراءها، بالقلميرية. ورفعت يدها. وقام الناس.

لقيتهم بعد ساعة، على شرفة.

كانت الشرفة في الجانب الغربي من البيت القديم، تطل على النهر والمدينة وأرض القنوات وراءه، والخلاء في الأفق. وكان عليها كراس من خشب، وطاولة صغيرة عليها ماء وتمر وخبز. وكانت الإمبراطورة جالسة، وحدها. وأشارت إلى الكراسي.

وجلسوا.

ولم تتكلم الإمبراطورة أولًا. نظرت إليهم، واحدًا بعد واحد. إلى هدران، وعينيه البيضاوين. إلى وردة، والقفازين. ثم إلى قيلة. وكانت عيناها بنيتين، صغيرتين، ثابتتين.

«لم تسجدي،» قالت. بلسان الميثاق، بلهجة قلمير، لكن ألطف من لهجة الضابط.

«لا أسجد إلا للبارئ.»

«ولا أنا.» وأشارت الإمبراطورة إلى الساحة تحتهم، حيث كان الناس يتفرقون. «ولم أطلب منهم.»

«ولم تمنعيهم.»

ونظرت إليها الإمبراطورة. ولم تغضب. ابتسمت قليلًا.

«لا،» قالت. «لم أمنعهم. أتعرفين لماذا؟»

«لا.»

«ولا أنا. أقول لنفسي: إنهم لا يسجدون لي. يسجدون شكرًا على الماء. والشكر للبارئ، وأنا يده. أقول هذا كل عشرة أيام.» ونظرت إلى قيلة. «وكل عشرة أيام، أخرج.»

ثم سألت.

لم تسأل عن الخلاء، ولا عن الطريق. سألت عن البئر. عن الاجتماع، والليلة، والقتل. وعن خردش، وحبله الأحمر، والشعب الشمالي. وعن فاقد. وكانت تعرف أشياء كثيرة. قيلة رأت ذلك. كانت تعرف عدد العربات، وعدد القتلى، واسم القبيلة التي فيها ابن عم خردش. وكانت تسأل لا لتعرف، بل لترى ماذا تقول قيلة.

وقالت قيلة.

ثم سألت الإمبراطورة: «ولماذا جئتِ؟»

وأخرجت قيلة من صدر ثوبها قماش الخبز. ووضعته على الطاولة، بين الماء والتمر. وفتحته.

قرأته الإمبراطورة مرتين.

في المرة الأولى، بسرعة. وفي الثانية، ببطء. وكانت شفتاها تتحركان قليلًا، كمن يقرأ بلغة ليست لغته. ثم وضعت إصبعها على السطر الأخير. على الكلمة.

«الحياد،» قالت.

ولم يقل أحد شيئًا.

ثم قامت الإمبراطورة. وذهبت إلى الباب الذي خلفها، وقالت شيئًا لمن وراءه. ورجعت. وجلست. وانتظرت. ولم تتكلم. ونظرت إلى النهر.

وجاءت إحدى المرأتين بصندوق صغير من خشب أسود. ووضعته على الطاولة، وذهبت.

وفتحته الإمبراطورة، وأخرجت منه ورقة.

«نكتب كل شيء مرتين في قلمير،» قالت. «مرة لمن نرسل إليه، ومرة لنا. هذا من دواوين أجدادي. لا أحبهم، لكن الدواوين كانت جيدة.» ووضعت الورقة إلى جانب نصف الرق. «هذا ما أرسلتُه إلى ظميان بن خردش. قبل موته بعشرين يومًا.»

وكانت الورقة بلسان الميثاق، بخط الدواوين المنتظم.

وقرأتها قيلة.

كانت قصيرة.

من ستمارا الثالثة، صاحبة قلمير، إلى ظميان بن خردش، كبير القبائل في سُرْدان. أما بعد. فإن الحرب بيننا وبين قبائلكم لم تبدأ بعد، وإني لا أريد أن تبدأ. وقد بلغني أنك تحتكر آبار الشعاب، وبلغك أني أحتكر ماء القنوات. وكلانا يقول إنه يسقي الناس. فإن أعلنت أن سُرْدان على الحياد، فلا تكون مع قلمير ولا عليها، وفتحت آبار بني قيظ لكل قبيلة بلا ثمن، أوقفتُ بناء الصوامع عند الثلاث التي على حافة الخلاء، ولم أمد قناة واحدة إلى أرضكم إلا بإذن مجلسكم. ولا أطلب منكم أن تقبلوا حكمي. أطلب أن لا يموت الناس عطشًا بيننا ونحن نتجادل في من يسقيهم. وجوابك مع من تثق به.

ونظرت قيلة إلى الورقة. ثم إلى نصف الرق.

إن أوقفتِ الآلات التي تحت الوادي، وأغلقتِ...

أعلنتُ في المجلس، أمام القبائل كلها، أن آبار...

ولا تُعطى بشرط، ولا تُحرس إلا بالفرسان...

وكانت الكلمات تتجاوب. كصوتين في ليل، يرد أحدهما على الآخر من بعيد.

«قال نعم،» قالت الإمبراطورة. ولم يكن في صوتها شيء. ثم قالتها مرة أخرى، أخفض: «قال نعم.»

«قال نعم،» قالت قيلة.

«ولم يصلني.» ونظرت الإمبراطورة إلى الكلمة الأخيرة. «ثم قُتل. ثم جاءني الضابط في الوادي يقول إن الأوفياء يعلقون الحبال. ثم جاءني خبر الشعب الشمالي، وثلاثة موتى، ومستنطق أحرق رجلين.» وسكتت. «وكنتُ أظن أنه رفض. كنتُ أظن أنه قرأ رسالتي، وضحك، وقتله رجاله لأنه لم يرفض بقوة كافية. هذا ما قاله لي مستشاريّ.» ونظرت إلى قيلة. «وأنتِ تقولين لي إنه قال نعم.»

«أقول لكِ ما على الرق.»

«ومن مزقه؟»

«هو.»

«لماذا؟»

ونظرت قيلة إلى وردة. ونظرت وردة إلى يديها.

«لأن أحدًا قال له إنه إن أكملها، لن تصل،» قالت المبصرة، بصوت خفيض. «ولم يكن في الخيمة أحد.»

لم تسأل الإمبراطورة ماذا يعني ذلك. نظرت إلى وردة مدة. ثم إلى القفازين. ثم أطرقت.

«والنصف الآخر؟»

«أخذه من أخذ الرق الكبير.»

«ومن أخذ الرق الكبير؟»

ولم تجب قيلة. ورأت الإمبراطورة لا تجيب. ورأتها تنظر إلى القفازين مرة أخرى. ثم إلى الأفق، إلى الجنوب الشرقي، حيث لم يكن شيء يُرى إلا النهر يمضي في الضباب.

«إلسوم،» قالت الإمبراطورة.

ولم يقل أحد شيئًا.

«لا أقول إنهم هم،» قالت. «أقول: من يخسر إن وصلت هذه الرسالة؟ أنا لا أخسر. أنا أردتها. ظميان لا يخسر. هو كتبها. أخوكِ لا يخسر.» ونظرت إلى قيلة. «نعم، أعرف. كان سيحملها. أخوكِ يكتب إليّ كل عشرة أيام، ولم يكتب عن هذا. وهذا ما قاله لي.»

ونظرت إليها قيلة.

«الأوفياء يخسرون قليلًا،» قالت الإمبراطورة. «يخسرون حربهم. لكن الحرب ليست ما يريدونه. يريدون أن تتوقف الآلات. وهذه الرسالة توقفها عند الثلاث.

فهم لا يخسرون كثيرًا. ومن يخسر إن توقفت الصوامع عند الثلاث، ولم تبلغ الدلتا أبدًا؟»

«لا أحد.»

«لا أحد يخسر.» وابتسمت الإمبراطورة، ولم يكن في الابتسامة فرح. «ومن يخسر إن تحارب سُرْدان وقلمير سنين، وضعفت قلمير، ولم تبلغ صوامعها الدلتا أبدًا، ولم يجرؤ أحد بعدها أن يبني صومعة؟»

ولم تجب قيلة.

«المكتبة تريد كتبي،» قالت الإمبراطورة. «وأنا أريد كتبها. كتب النوثار عندهم، ودفاتر الأعمدة. ونحن نعرف ذلك. وهم يخافون الصوامع. يقولون إنها توقظ ما تحت الأرض. ويقولون إنها إن بلغت الدلتا...» وسكتت. «لا أعرف ماذا يقولون. لا يقولون لي. يقولون: الخطر. ولا يقولون ما هو.»

ونظرت قيلة إلى وردة.

وكانت المبصرة جالسة، ساكنة، تنظر إلى الإمبراطورة. وكان في وجهها شيء رأته قيلة مرة واحدة قبل. في الخيمة، ليلة الرسالة، حين قال تيلم: هل عندكِ ما تزيدينه؟ ولم تكن قيلة تعرف ما هو.

ثم قالت وردة: «إنها توقظ ما تحت الأرض.»

ونظرت إليها الإمبراطورة.

«رأيتُه،» قالت وردة. «لا ما تحت الصوامع. ما تحت الزجاج. في الأثر. مدينة كاملة، بأعمدة تشبه صوامعكِ، تطن مثلها، وتأخذ من الأرض كما تأخذ. واستيقظ

تحتها شيء. وفي الطريق إلى هنا، تحت الرمل، كان شيء يتقلب. لا في الأثر. في الليل. حقيقة. أحسستِه يا قيلة.»

«أحسستُه.»

ولم تتكلم الإمبراطورة مدة.

ثم قالت: «أمنوثار يقول عاصفة ملح.»

«قال لي ذلك أيضًا،» قالت وردة. «وكانت يده ترتجف.»

قامت الإمبراطورة.

ومشت إلى حافة الشرفة، ووقفت تنظر إلى الأرض تحتها. إلى القنوات، والحقول، والقرى البيضاء. وإلى الخلاء في الأفق، وفي حافته، صغيرًا من البعد، كإصبع، البرج الداكن.

وتكلمت دون أن تلتفت.

«كان لي أخ،» قالت. «أكبر مني بسنتين. اسمه لا يهم. كان جدي، ستمار الأول، قد أعاد في هذا البيت، في قاعة تحتنا الآن، ما كان الملوك يفعلونه. سرًّا. لا يعرفه إلا الأسرة وبعض الكهنة. كان يجلس على كرسي، والكهنة يبخرون له، والأسرة تسجد.» وسكتت. «وكنتُ في التاسعة. وسجدت. لأن الجميع سجدوا. وأخي لم يسجد.»

ولم يقل أحد شيئًا.

«وقف كما وقفتِ اليوم،» قالت الإمبراطورة. «وقال: لا أسجد إلا للبارئ. هكذا. بالكلمات نفسها. وفي الصباح لم يكن في غرفته. ولم يكن في القصر. وقال جدي: سافر.» ونظرت إلى البرج الداكن في الأفق. «لم يسافر.»

ثم التفتت.

«حين صرتُ إمبراطورة، هدمت تلك القاعة. بيدي. أخذت فأسًا، ونزلت، وكسرت الكرسي. وقلت: لا يُعبد في هذا البيت إلا البارئ، ولا يسجد أحد لأحد.» وابتسمت. «واليوم، رأيتِ.»

«رأيتُ.»

«أعرف ما رأيتِ.» وجلست الإمبراطورة مرة أخرى. «رأيتِ امرأة تكره جدها، وتقف حيث كان يقف، وتنظر إلى الناس يسجدون، ولا تمنعهم. وتقول: هذا شكر. وتصدق. وأنا أرى ذلك أيضًا. كل عشرة أيام. ولا أعرف ماذا أفعل به.»

ثم سألتها قيلة.

«أتوقفين الصوامع؟»

ونظرت إليها الإمبراطورة.

«إن قلت لكِ إنها توقظ الشغادر،» قالت قيلة. «إن قالت لكِ المبصرة إنها رأت. إن قلتُ لكِ إني أحسستُ الأرض دافئة تحتي في الليل. أتوقفينها؟»

«الثلاث التي بنيتها؟»

«نعم.»

ولم تجب الإمبراطورة مدة طويلة. ونظرت إلى الأرض الخضراء تحتها.

«في الوادي ألف قرية،» قالت أخيرًا. وكانت الكلمات نفسها التي قالها أمنوثار لوردة. ورأت قيلة وردة تسمعها، وتطرق. «لا. لا أوقفها. لا لأني لا أصدقكِ. لأني رأيت الأطفال يموتون، ولم أرَ ما رأته المبصرة.» ونظرت إلى قيلة. «لو أوقفتها

اليوم، لمات في السنة القادمة عشرة آلاف. أعرف ذلك، لأني عددتهم قبل الصوامع. ولو لم أوقفها، فربما يستيقظ شيء. ربما. هذا ما تقولينه. ربما.»

«تل الصوامع.»

وتغير وجه الإمبراطورة.

«قالوا لي إنها عاصفة ملح،» قالت.

«عاصفة ملح لا تترك أثرًا؟» قالت وردة. «في الخلاء، الملح يحفظ كل شيء. وتل الصوامع ليس فيه أثر. هذا ما يقوله كل مبصر في إلسوم. لا أثر. الشيء الوحيد في دَيْمار الذي لا يقرؤه مبصر.» وسكتت. «العاصفة لا تفعل ذلك يا صاحبة قلمير. لا شيء يفعل ذلك إلا...» ولم تكمل.

«إلا ماذا؟»

ونظرت وردة إلى قيلة. ثم قالت: «إلا ما رأيتُه في الزجاج. في آخره. الضوء الأبيض.»

سكتت الإمبراطورة.

ثم نادت. وجاءت المرأة. وقالت لها شيئًا بالقلميرية، طويلًا. وذهبت المرأة.

«بعد يومين،» قالت الإمبراطورة، «يذهب أمنوثار إلى صومعة الحافة. يذهب كل شهر. يرى الحساب، والبلور، والمستنطقين. وأنتم تذهبون معه.» ونظرت إلى وردة. «تبصرين الصومعة. بإذني. تحتها. وتقولين لي ماذا رأيتِ. لا لأمنوثار. لي.»

ونظرت وردة إليها.

«وإن رأيتُ؟»

«إن رأيتِ ما تقولين، أوقفتُ الرابعة. التي نبنيها الآن في الجنوب. الرابعة. لا الثلاث. لا أستطيع الثلاث. لا أستطيع أن أقتل عشرة آلاف لربما.»

«والخامسة؟» قالت قيلة. فقد سمعت في القنوات أن قلمير لا تقف عند أربع.

ونظرت إليها الإمبراطورة، ولم تنكر. «في الدلتا. في السنة القادمة. الأرض هناك أطرى، والماء أقرب، ولا يموت أحد عطشًا وهو ينتظر.»

وأحست قيلة بوردة تتحرك إلى جانبها. ولم تفهم لماذا شحب وجه المبصرة، ولا لماذا ذهبت يدها إلى حزامها، حيث تحمل حجر الملح.

ثم أخرجت من الصندوق الأسود ورقة أخرى. بيضاء. وقلمًا. وكتبت عليها، أمامهم، بخطها هي، لا بخط الديوان. خطًا كبيرًا، غير منتظم، نخط من لا يكتب كثيرًا.

وطوتها. وختمتها بخاتم في إصبعها، على شمع أزرق. عين تقطر منها قطرة.

ومدتها إلى قيلة.

«إلى خردش بن ظميان،» قالت. «ما كتبته لأبيه. والمزيد. إن قبل الحياد، أوقفت الرابعة، وفتحت القنوات لكل من يشرب بلا شرط، حتى من لم يقبل. وإن لم يقبل...» وسكتت. «فلا شيء. يبقى ما هو.»

وأخذت قيلة الورقة. ولم تقل شيئًا.

«أنتِ لا تميلين،» قالت الإمبراطورة. «هكذا يقولون. فاحمليها كما هي. لا تقولي له إنها جيدة، ولا إنها سيئة. أعطيه إياها. ودعيه يقرأ.»

وحين قاموا ليذهبوا، جاء رجل مسرعًا على الشرفة.

كان جنديًا، وفي يده ورقة صغيرة، ملفوفة، مما يُربط في أرجل الطيور. وانحنى، وأعطاها للإمبراطورة، وقال شيئًا بالقلميرية. وفتحت الإمبراطورة الورقة، وقرأتها.

وتغير وجهها.

ثم رفعت عينيها إلى قيلة.

«كم يومًا مضى منذ قُتل ظميان؟»

وحسبت قيلة. في رأسها. الليالي على الطريق. الأيام في القارب. الأيام هنا.

ولم تكن قد حسبت منذ دخلت قلمير.

«أربعون،» قالت. وأحست شيئًا ينزل في صدرها. «اليوم الأربعون.»

ونظرت إليها الإمبراطورة. ثم إلى الورقة.

«هذا من مخفر القنوات عند خيام أخيكِ،» قالت. «أرسلوه أمس في الليل. في الفجر، أحرق الأوفياء رأس القناة السابعة. ودخلوا الخيام.»

ولم تتنفس قيلة.

«أخوكِ حي،» قالت الإمبراطورة. «هذا ما يقولون. حي.» ونظرت إلى الورقة مرة أخرى. «وتحت اسمه سطر آخر. يقولون: وقائد الأوفياء أقسم أن يأخذ الحكم بيده، وقال: انقضت المهلة، والفرسان لم يأتوا.»

15. صومعة الحافة

عرف أمنوثار وردة حين رآها، لأنه قرأ عنها.

كان ذلك على الرصيف الحجري عند القارب الكبير، في فجر اليوم الثاني والأربعين. وكان المستنطق الأعظم جالسًا على كرسي على سطح القارب، تحت مظلة من كتان، والدفتر الكبير على ركبتيه، مفتوحًا. وحين صعدت المبصرة إلى القارب، ورأته قيلة يرفع عينيه، رأت فيهما لحظة فراغ. ثم أطرق إلى الدفتر. وقلب صفحة. وقرأ. ثم رفع عينيه مرة أخرى، وكان فيهما شيء آخر.

«المبصرة،» قال. «قرأتِ دفتري.»

«نعم.»

«وجدتِ صفحة.» وكانت يده على الدفتر. «مكتوب هنا: وجدت المبصرة صفحة ملتصقة. لا تفتحها. كتبتُ ذلك لنفسي. بخطي. لا تفتحها.» وسكت. «لماذا كتبتُ ذلك؟»

ولم تجب وردة.

وأومأ أمنوثار، كأنها أجابت. ثم أطرق إلى الدفتر، ولم يرفع عينيه مرة أخرى حتى وصلوا.

قالت وردة لقيلة في الليل، على سطح القارب، وهما جالستان على أكياس القمح والنهر يجري تحتهما: «لم يفتحها.»

«كيف تعرفين؟»

«لأنه كتب: لا تفتحها. وهو يصدق دفتره. كتبها بعد أن خرجتُ. سمعتُ القلم.»

«لماذا؟»

«لأنه إن فتحها كل صباح، وقرأ: أوقف كل شيء، فسيسأل كل صباح: لماذا. ولن يجد. وسيبقى السؤال. والرجل الذي يعيش بدفتر لا يستطيع أن يعيش بسؤال كل صباح.»

ونظرت قيلة إليها. وفكرت: إنها تفهمه. لأنها تصير مثله.

ولم تقل ذلك.

وصلوا إلى صومعة الحافة في الضحى من اليوم الرابع والأربعين.

وكانت قيلة قد رأتها من المخفر، من بعيد، إصبعًا في الأفق. ورأتها الآن من تحتها.

كانت أكبر من أي شيء صنعه إنسان. هذا ما فكرت فيه أولًا. أكبر من بيت الملوك الآلهة، ومن الجبال الصغيرة في سُرْدان. برج أسطواني من حجر داكن، يكاد يكون أسود، مصقول، بلا نوافذ، يصعد من الأرض كجذع شجرة لا نهاية لها، ويضيق، ويضيق، حتى ينتهي في الأعلى بشيء يلمع. البلور. بحجم بيت، من هنا. وكانت الشمس فيه، فكان يلقي على الأرض حوله ضوءًا متكسرًا، ألوانًا كثيرة، كالضوء الذي يمر في الماء.

والطنين.

لم يعد صوتًا بعيدًا. كان هنا. في كل شيء. في الأرض تحت قدميها، وفي الهواء، وفي أسنانها. منخفضًا، ثابتًا، لا يتوقف. وكان الجنود حول البرج، والعمال، والمستنطقون في ثيابهم السود، يمشون فيه كأنهم لا يسمعونه. كما لا يسمع أهل البحر البحر.

ومن قاعدة البرج كان الماء يخرج.

من فتحة كبيرة، مقوسة، في الجدار الداكن، يخرج دفقًا. دفقًا أبيض، ثقيلًا، صاخبًا، ينزل في حوض كبير من حجر، ثم يجري من الحوض في القناة الكبرى إلى الشرق. وكان صوته أعلى من الطنين.

ووقفت قيلة تنظر إليه.

وفكرت: هذا ماء بئر العهود. وماء آبار الشعاب. وماء كل الآبار التي جفت في سُرْدان في سبع سنين. هذا ماؤنا.

ولم تعرف إن كان هذا صحيحًا.

دخلوا البرج من باب صغير في جانبه، وراء أمنوثار والمستنطقين.

وكان الداخل مظلمًا، باردًا، والطنين فيه أعلى. وكان هناك درج ينزل. حجري، ضيق، يدور حول عمود في الوسط. ونزلوا. ونزلوا. وكان الهواء يبرد، والطنين يعلو، والجدران تصير رطبة. وكان على الجدران، كل عشرين درجة، قنديل في كوة. وكانت قيلة تعد الكوى، كما تعد الآبار. عشرون. ثلاثون. أربعون.

ثم انتهى الدرج.

وكانوا في قاعة.

مستديرة، واسعة، سقفها عالٍ تحمله أعمدة. وفي وسطها، في الأرض، فتحة. بئر. أعرض من أي بئر رأتها. عرضها عرض الخيمة الكبيرة في الاجتماع. وحولها حاجز من حجر، بارتفاع الخصر. ومنها كان يصعد الطنين. ومن جوانبها كانت قنوات صغيرة تأخذ الماء، وتجري به في جدران القاعة، إلى أعلى، إلى الفتحة التي في الخارج.

وحول البئر، على الأرض، كان المستنطقون.

اثنا عشر. جالسين في دائرة، بأثوابهم السود، وأيديهم العارية على حجارة الحاجز. وعيونهم مغمضة. وكانوا لا يتحركون.

«يستمدون،» قال أمنوثار. بصوت المعلم. «من الأرض. من العروق في الصخر. والصومعة تجمع ما يستمدونه، وترفعه إلى البلور. والبلور يعيده إلى الأرض، أعمق. ويدفع الماء. هكذا.» وأشار بيده المرتجفة. «دائرة. كالقلب.»

«وما يدفعون؟» قالت قيلة.

ونظر إليها.

«الثمن،» قالت. «كل استنطاق له ثمن. هذا ما قالته المبصرة. فمن يدفع ثمن هذا؟»

وسكت أمنوثار مدة.

«هم،» قال، وأشار إلى الاثني عشر. «يتبدلون كل سبعة أيام. ويرتاحون.» ثم سكت. «وبعض الثمن...» ونظر إلى الدفتر في يده، كمن يبحث فيه عن الجواب. «بعض الثمن تدفعه الأرض.»

وقفت وردة عند الحاجز.

ولم تنزع القفاز بعد. وقفت تنظر إلى البئر. إلى الظلمة فيها. وكانت قيلة إلى جانبها، وهدران وراءهما، وأمنوثار بعيدًا قليلًا، يكلم أحد المستنطقين بالقلميرية.

«بإذن الإمبراطورة،» قالت وردة، بصوت خفيض.

«بإذنها،» قالت قيلة.

ونزعت وردة القفاز الأيسر. ووضعت كفها على الحجر. على الحاجز. حيث كانت أيدي المستنطقين، بين اثنين منهم.

وأغمضت عينيها.

ونظرت قيلة إلى وجهها. وكان يتغير، كما يتغير دائمًا. لكن ليس كما يتغير دائمًا. كان ينقبض. وينقبض. كمن ينزل في ماء بارد جدًا، ويحبس نفسه.

ثم فتحت وردة عينيها.

ولم تنزع يدها.

«إنه لا ينام،» قالت.

وفي تلك اللحظة رأت قيلة الرجل.

لم تكن تبحث عنه. لم تكن تعرف أنه هنا. كانت تنظر إلى وردة، ثم رفعت عينيها، لأن شيئًا تحرك على الطرف الآخر من القاعة، عند الأعمدة، حيث كان العمال يحملون سلالًا من حجر مكسور إلى درج آخر.

ورأت رجلًا يمشي.

كان من العمال. في ثوب العمال الرمادي، المغبر. ويداه ملفوفتان بخرق، كأيدي العمال الذين يحملون الحجر. وكان يحمل سلة على كتفه. وكان يمشي إلى الدرج الآخر.

ولم تر قيلة وجهه.

رأت مشيته.

أقصر من أهل الخلاء، وأنحف. يمشي كمن لا يعرف الرمل. يرفع قدميه أكثر مما ينبغي، ويضعهما بحذر، كأنه يمشي على شيء لا يثق به. وكان كتفه الأيسر أعلى قليلًا من الأيمن. ثم رفع دلوًا، فانحلّ طرف الخرقة عن يده اليسرى، فرأت في باطن الكف أثر حرق قديم، مستديرًا، بحجم جمرة. وتحت الأظفار زرقة لم تذهب.

ورأت ذلك من قبل.

في ليلة. في الظلمة. على بعد عشرين خطوة. والسهم بين أصابعها، والقوس غير مشدود. ورجل يخرج من خيمة ظميان، ويمشي نحو الحجر والخيمة البيضاء. بهذه المشية. بهذا الكتف. ويده اليسرى مرفوعة قليلًا، كأنه يحمي ما فيها من الريح.

ولم تفكر.

«أنت!»

التفت الرجل.

ورأت وجهه. لم يكن فيه شيء تعرفه. وجه رجل في الثلاثين، أو أكثر قليلًا. أسمر، كأهل الدلتا. بلحية قصيرة. وعينين واسعتين.

ورأت العينين تراها. وترى العباءة الرمادية، والحبل الأخضر.

ورأتهما تعرفانها.

ثم رمى السلة، وركض.

ركضت قيلة خلفه.

سمعت وردة تقول شيئًا وراءها، ولم تسمع ما هو. وسمعت أمنوثار يقول شيئًا بالقلميرية، بصوت عال لأول مرة. ولم تقف. كان الرجل قد بلغ الدرج الآخر، ونزل.

نزل. لا صعد.

ونزلت خلفه.

كان هذا الدرج أضيق، وأظلم، بلا قناديل. وكان رطبًا، زلقًا. وكان الطنين فيه أعلى، أعلى بكثير، حتى صار كالزئير، وكانت قيلة تحسه في صدرها، في ضلوعها، كأن قلبها يدق بإيقاعه. وكانت تسمع الرجل تحتها. خطواته. وأنفاسه.

وكان الدفء يصعد.

لم تنتبه له أول الأمر. ثم انتبهت. الجدران الرطبة صارت دافئة. ثم حارة. والهواء صار ثقيلًا، يصعب تنفسه. ورأت تحتها، في الظلمة، ضوءًا. أحمر. خفيفًا. كضوء الجمر.

ووقفت.

وسمعت الرجل تحتها يقف أيضًا.

ثم سمعت الصوت.

لم يكن الطنين. كان تحته. كان الصوت الذي سمعته في الخلاء، في الليلة الخامسة، الصوت الذي في العظام. لكنه لم يكن بعيدًا الآن. كان هنا. كان في الدرج، وفي الجدران، وفيها. وكان أعلى من كل شيء.

وكان يتحرك.

لا كما يتقلب النائم. كما يقوم.

وانطفأ الطنين.

فجأة. كما ينقطع الحبل. وكان الصمت بعده أفظع من كل صوت. لحظة واحدة. لحظة سمعت فيها قيلة أنفاسها، وأنفاس الرجل تحتها، وقطرة ماء تسقط في مكان ما.

ثم تكلم.

ثلاثة مقاطع.

لم تفهمها قيلة. لم يكن هناك ما يُفهم. كانت كلمة أثقل من الجبال، تخرج من تحت الأرض، وتصعد في الدرج، وفي البئر، وفي البرج كله. وكانت قيلة تحسها في جلدها. وفي عظامها. وفي أسنانها، حتى ظنت أنها ستتكسر.

وسمعت وراءها، فوقها، بعيدًا، صرخة. صرخة امرأة.

وردة.

واستدارت. وصعدت.

لم تذكر بعد ذلك كيف صعدت.

ذكرت الحر، يصعد وراءها، كأنفاس فرن. وذكرت الضوء، الأحمر، ثم البرتقالي، ثم الأبيض، يملأ الدرج تحتها. وذكرت أنها لم تلتفت. وذكرت أنها سمعت الرجل وراءها، يصعد أيضًا، يلهث، ثم سمعته يصرخ.

ثم لم تسمعه.

ووصلت إلى القاعة.

وكانت القاعة كلها ضوءًا.

كان الضوء يخرج من البئر.

أبيض. ليس كضوء الشمس، ولا كضوء النار. أبيض كالملح، كالعظم، كلا شيء. وكان يصعد من البئر عمودًا، ويضرب السقف، وينتشر. وكانت الأعمدة في القاعة سوداء فيه، كأصابع. وكان المستنطقون الاثنا عشر...

لم تنظر.

رأت وردة. كانت على الأرض، عند الحاجز، حيث كانت. وكانت يدها ما زالت على الحجر. ويدها الأخرى على فمها. وكانت تصرخ، وراء يدها. ولم تنطق.

وركضت قيلة إليها.

ولم تر شيئًا. كان الضوء في عينيها، أبيض، يملأ كل شيء. وكانت تركض نحو ما تذكره. الحاجز. وردة. ومدت يدها، وأمسكت شيئًا. ثوبًا. وجذبت.

وجذبت.

وكان الحاجز حارًا كالجمر. وكانت يد وردة عليه. وجذبتها قيلة، وسمعت صوتًا، كصوت جلد ينفصل عن حجر. وصرخت وردة، صرخة أخرى، مختلفة.

ثم كانت في ذراعيها.

«اتبعيني!»

كان صوت هدران.

لم تكن تراه. لم تكن ترى شيئًا. كان الضوء الأبيض في كل مكان، وكانت عيناها مغمضتين، وما زالت تراه. لكنها سمعت صوته. على اليسار. بعيدًا قليلًا.

«اتبعي صوتي يا بنت نوقار! لا تفتحي عينيكِ! اتبعي صوتي!»

ومشت.

ووردة في ذراعيها، خفيفة كطفل. وعيناها مغمضتان. وكان الحر وراءها، يدفعها، كيد على ظهرها. وكانت الأرض تحتها ترتجف. وكانت تسمع، في كل مكان، أشياء تتكسر. حجارة. أعمدة. وصراخًا. ولم تلتفت.

«هنا! الدرج! اصعدي!»

وصعدت.

وكان صوت هدران أمامها. لا يتوقف. يقول: هنا. يقول: درجة. يقول: انعطاف. يقول: أنا هنا. وكان هادئًا. أهدأ صوت سمعته في حياتها. صوت رجل يمشي في الظلمة منذ عشرين سنة، ولا يحتاج إلى ضوء.

وعرفت قيلة، وهي تصعد، أنها في هذه اللحظة عمياء مثله.

وأنه هو الذي يرى.

خرجوا من الباب الصغير إلى الشمس.

ولم تعرف قيلة أنها الشمس حتى سقطت على الرمل، ووردة فوقها، وفتحت عينيها، ورأت السماء. زرقاء. والضوء أصفر، عاديًا، ضوء شمس.

ثم نظرت إلى البرج.

كانت الصومعة تحترق.

لا. لم تكن تحترق. لم يكن هناك دخان، ولا لهب، كالنار التي تعرفها. كان البرج الداكن واقفًا، كما كان. لكن البلور في أعلاه لم يعد يلمع. كان أبيض. أبيض

كالضوء الذي في القاعة. وكان البياض ينزل. من البلور، على جدار البرج، إلى الأسفل. ببطء. كما ينزل الماء على حجر.

وحيث ينزل، لم يكن الحجر.

لم يذب. لم يتشقق. لم يسقط. كان هناك، ثم لم يكن. كما تمحو يد كلمة عن لوح. وكان البرج يقصر، من الأعلى، ببطء، والبياض ينزل فيه، ويأكله.

ولم يكن للبياض صوت.

ذلك ما تذكرته قيلة أكثر من أي شيء. أن الصومعة كانت تُمحى، وكانت المدينة الصغيرة حولها، خيام الجيش وبيوت العمال، تصرخ، والجنود يركضون، والخيل تجري، والماء من الفتحة في القاعدة قد توقف، والحوض يفرغ، والقناة تجف. وكل ذلك له صوت. وأما البياض، فلا صوت له.

ثم رأت ما تحت البرج.

لا. لم تره. رأت الأرض حول قاعدة البرج تتحرك. كما تتحرك الكثبان في الريح. لكن لم تكن ريح. كانت الأرض ترتفع، وتنخفض، كظهر يتنفس. وفي موضع، عند جانب البرج، انشقت.

ورأت في الشق شيئًا.

لمعانًا. كلمعان الزجاج. كبحر الزجاج في الغروب. أحمر، وذهبيًا. لكن يتحرك. يتحرك كما يتحرك جلد شيء حي. وكان كبيرًا. أكبر من أن تعرف أين ينتهي.

ثم انغلق الشق.

وسكنت الأرض.

ولم يتكلم أحد مدة طويلة.

كانت قيلة جالسة على الرمل، ووردة في حجرها، وهدران واقف إلى جانبهما، ووجهه إلى البرج الذي لا يراه. وكان البرج قد صار نصف ما كان. ثم ثلثه. ثم توقف البياض. فجأة. كما بدأ. وبقي من الصومعة جذع قصير، داكن، مقطوع من أعلاه قطعًا مستقيمًا، أملس، كأن سكينًا مرت فيه.

وكانت وردة ترتجف.

ونظرت قيلة إلى يدها. اليسرى. العارية. التي كانت على الحاجز. وكان الجلد في باطنها أحمر، ملتهبًا، وفيه بثور. وكان في وسط الكف موضع أبيض.

لا. لم يكن أبيض. كان... لم تعرف. كان جلدًا. لكنه كان أملس. أملس تمامًا. بلا خطوط. بلا تلك الخطوط التي في كل كف، والتي يقرأ فيها العجائز في سُرْدان الأعمار.

«لا أحس به،» قالت وردة، وشفتاها بيضاوان. ونظرت إلى الموضع الأملس في كفها. «لا أحس به يا قيلة. ولا أحس فيه شيئًا. لا أثر. كأنه ليس من يدي.»

جاء أمنوثار بعد ساعة.

حمله جنديان، من الطرف الآخر من المدينة الصغيرة. كان قد خرج من القاعة قبلهم، قال الجنديان. حمله مستنطق شاب على ظهره حين بدأ الضوء. وكان المستنطق الشاب قد رجع ليحمل غيره.

ولم يرجع.

ووضع الجنديان أمنوثار على الرمل، قرب قيلة. وجلس. ونظر إلى البرج المقطوع.

وكان الدفتر في يده.

ولم يتكلم مدة. ثم فتح الدفتر. وأخرج القلم من ثوبه. ونظرت إليه قيلة، وانتظرت أن يكتب: عاصفة ملح.

وكتب سطرًا. بخطه الصغير المرتجف. ثم أدار الدفتر إليها، دون أن يقول شيئًا.

رأيتُ. لا تصدق إن قيل لك غير ذلك. حتى إن قلتُه أنا.

وفي المساء، حين بدأ الجنود يجمعون الموتى، ذهبت قيلة إلى الباب الصغير في جانب الجذع المقطوع.

لم تدخل. لم يكن هناك ما يُدخل. كان الباب يفتح على درج، والدرج ينزل خطوات، ثم ينتهي. لا يتكسر. ينتهي. كأن ما بعده لم يكن قط. سطح أملس أبيض، كباطن كف وردة.

لكن عند الباب، في الخارج، على الرمل، كان رجل.

كان الجنود قد وجدوه هناك، ووضعوه مع الموتى. لكن قيلة رأته من بعيد، وعرفته. من الكتف. الأيسر أعلى من الأيمن.

ومشت إليه.

كان قد خرج. لم تعرف كيف. ربما من درج آخر، أو من الباب نفسه، وراءها، وهي لا تسمع. خرج، وسقط هنا. وكان نصفه... لم تنظر إلى ذلك النصف. كان الجانب الأيسر منه سليمًا. الوجه، والكتف، والذراع. والجانب الآخر لم يكن.

وكانت على كتفه الأيسر حقيبة صغيرة، من جلد، محترقة الأطراف.

وكانت يده اليسرى ملفوفة بالخرق.

وجثت قيلة. ونزعت الخرق، ببطء، طرفًا بعد طرف، كما نزعت قماش الخبز عن نصف الرق.

وكانت الأصابع تحتها زرقاء.

16. الحبر

لم تستطع وردة أن تبصر الحقيبة بيدها اليسرى.

جربت. في الليل، في خيمة صغيرة أعطاهم إياها الجنود على حافة المدينة الخربة، والقنديل بينها وبين قيلة، والحقيبة المحترقة الأطراف على الأرض. نزعت القفاز الأيسر، ببطء، لأن البثور في باطن الكف كانت تلتصق بالجلد المدبوغ. ووضعت الكف على الحقيبة.

ولم يحدث شيء.

لم يكن الفراغ. لم يكن الماء. كان كما يضع المرء يده على شيء وهو نائم. كانت تحس الجلد الخشن تحت أصابعها، وحرارة القنديل، وثقل الحقيبة. لكن الموضع الأملس في وسط الكف لم يحس شيئًا. لا الجلد ولا الحرارة. وكان الأثر، الذي كان يأتيها دائمًا من الكف أولًا، كالماء من عين، لا يأتي.

ورفعت يدها، ونظرت إليها.

ونظرت إليها قيلة.

«الأخرى،» قالت قيلة.

«لم أبصر باليمنى قط.»

«ولم تبصري في الخلاء، قبل أن تدخليه.»

ونظرت إليها وردة. ثم نزعت القفاز الأيمن.

كانت اليمنى أبطأ.

كأنها لغة تعرفها ولا تتكلمها. كان الأثر يأتي، لكنه يأتي متقطعًا، كماء من دلو مثقوب. وكان عليها أن تمسك به، أن تجذبه، كما تجذب الحبل من البئر. ولم تكن قد فعلت ذلك قبل. كان الأثر دائمًا يجذبها هي.

ثم أمسكت به.

كانت الحقيبة رحلة.

اثنا عشر يومًا على جمل، من إلسوم إلى السهل. ثم ليلة. ثم أيام على جمل آخر، إلى الشرق، إلى أرض القنوات. ثم قارب. ثم أيام في ثوب العمال الرمادي، ويدان ملفوفتان بالخرق، والطنين في كل شيء.

وكان الرجل الذي حملها خائفًا كل تلك الأيام.

لم يكن خوفًا كخوف ظميان، له وجه. كان خوفًا قديمًا، ثابتًا، ككلب يتبع صاحبه. وكان معه شيء آخر، أدهشها حين أحسته. شعور تعرفه. شعور من يحفظ شيئًا لغيره. الحرص الذي يكون في يد الناسخ على الكتاب الذي لا يملكه.

كان حافظًا.

ثم نزلت في الأثر إلى الليلة.

كان على الجمل، في الظلمة، عند حافة السهل.

وكان ينتظر.

أحست وردة البرد في يديه، وأحست الجمل يتململ تحته، وأحست عينيه على الخيام. على خيمة واحدة. الكبيرة، الحمراء، ذات الأعمدة السود. وكان القنديل فيها مضاءً. ثم دخلتها امرأة. ثم خرجت. ثم انطفأ القنديل.

وانتظر.

وكان في رأسه كلام. لم تسمعه وردة كلامًا. أحسته كما يحس المرء أمرًا تلقاه، يحمله معه، يتكرر: تأكد أنه تمّ. وخذ ما كتب. ولا تُرَ.

ثم نزل عن الجمل، ومشى.

دخل الخيمة.

وكان ظميان ميتًا.

أحست وردة صدمة الرجل. كانت أول ما في الأثر، أقوى من الخوف. لم يكن يتوقع ذلك. أو كان يتوقعه، ولم يكن يتوقع أن يراه. الرجل الكبير على البساط، في الظلمة، وجمرة في الموقد الصغير، والخيط الرفيع عند العنق.

ووقف الرجل.

ولم يقترب من الجسد.

أحست وردة أنه يريد أن يخرج. أن يركض. لكنه مشى إلى اللوح. وأخذ الرق الكبير. ورأى تحته شيئًا آخر. نصف رق، صغيرًا، ممزقًا. وأخذه أيضًا. ودسهما في الحقيبة. هذه الحقيبة.

ثم مس شيئًا.

لم يقصد. كان يخرج، في الظلمة، فمست يده الجمرة في الموقد. ولم يصرخ. أطبق فمه، وأمسك يده، وخرج.

وعند الباب، رأى في الظلمة، على بعد عشرين خطوة، شكلًا. واقفًا. وفي يده قوس.

وعرف من هي.

وأحست وردة قلبه يقف. ثم أحسته يمشي. لا يركض. يمشي، كما أُمر. لا تُرَ. لكنه رُئي. فمشى كمن لا يعرف أنه رُئي، نحو الحجر والخيمة البيضاء.

ولم تناده.

وخرجت وردة من الأثر، ونظرت إلى قيلة.

ولم تقل شيئًا مدة. كانت قيلة تنظر إليها، تنتظر. ووجهها في ضوء القنديل ساكن.

«الجمرة،» قالت وردة أخيرًا.

«الجمرة؟»

«كان يرفع يده اليسرى. تذكرين؟ كأنه يحمي شيئًا من الريح.» وسكتت. «لم يكن يحمي شيئًا. كانت يده تحترق. مس جمرة الموقد وهو يخرج، فرفعها إلى الريح لتبرد. ولهذا رأيتِ أصابعه في ضوء الجمر: كان يمدها إليه. دخل بعد أن مات ظميان، يا قيلة. لا قبل. كان ظميان ميتًا حين دخل.»

ولم تتحرك قيلة.

«دخل ليتأكد،» قالت وردة. «وليأخذ الرق. هذا ما أُمر به. لم يقتله. وجده ميتًا.»

لم تبك قيلة.

لكن وردة رأت شيئًا في وجهها لم تره فيه قبل. لا في البئر، ولا في الخلاء، ولا في الصومعة. كان كوجه من حمل حجرًا أربعين يومًا، فوضعه، فلم يعرف ماذا يفعل بيديه.

«سكتُّ،» قالت قيلة. بصوت لا يكاد يُسمع. «أربعين يومًا. سكتُّ عن رجل لم يقتله.»

«سكتِّ عن رجل رأيتِه.»

«سكتُّ لأني ظننتُه القاتل. وظننت أن الحفظة قتلوه. وخفت.» ونظرت قيلة إلى يديها. «وخفت أن يقول الناس إني رأيت ولم أرمِ. وكان هذا هو الخوف الحقيقي. لا الحفظة. أنا. وكان سكوتي عن لا شيء.»

«ليس عن لا شيء.»

ونظرت إليها قيلة.

«أُمر،» قالت وردة. «أحد أمره أن يتأكد أنه تمّ. من يقول تأكد أنه تمّ، يعرف أنه سيتم.»

ثم فتحتا الحقيبة.

كان فيها الرق الكبير، ملفوفًا، وطرفه محترق. ونصف الرق الصغير. وورقة مطوية، من ورق الدلتا الرقيق، مكتوبة بحبر أزرق، بخط صغير مستعجل، بلا توقيع. ولم تكن قد أُرسلت.

وأخرجت قيلة من صدر ثوبها النصف الآخر، في قماش الخبز.

ووضعتا النصفين على الأرض، جنباً إلى جنب، في ضوء القنديل. وكان التمزيق ينطبق على التمزيق. كما ينطبق الحجر المكسور على نصفه.

وقرأته قيلة، كله، أول مرة:

إلى ستمارا الثالثة، صاحبة قلمير، من ظميان بن خردش، كبير القبائل في سُرْدان. أما بعد.

إنكِ كتبتِ إليّ تسألين، وأنا أجيبكِ بما لم أقله لابني ولا لقبيلتي: إني احتكرت، وإني أول من نقض.

إن أوقفتِ الآلات التي تحت الوادي، وأغلقتِ الصوامع عند الثلاث، ولم تمدي قناة إلى أرضنا إلا بإذن المجلس،

أعلنتُ في المجلس، أمام القبائل كلها، أن آبار الشعاب مشتركة كما قال الميثاق، لا تُباع

ولا تُعطى بشرط، ولا تُحرس إلا بالفرسان، وأن سُرْدان لا تقاتل ولا تُحكم.

ويحمل هذا إليكِ من لا تشكين فيه، ابن نوقار، فاقد.

الحياد

ولم يكن بعد الكلمة شيء. لا في هذا النصف ولا في ذاك.

ثم فتحت قيلة الرق الكبير.

وكان كلامًا للمجلس. لم يكن رسالة. كان ما سيقوله ظميان أمام القبائل في الصباح، مكتوباً بخطه، حتى لا يتلعثم. وكانت فيه جمل رأتها وردة في البساط،

تتشكل تحت يده: احتكرتُ آبار الشعاب ثلاث عشرة سنة. أنا أول من نقض البند الأول. ومات على طريق الصفاة من مات، وأنا أعرف أسماءهم.

وكانت تحتها أسماء.

وقرأتها قيلة. وتوقفت عند واحد.

ولم تقل وردة شيئًا. لم تكن تحتاج أن تسأل. رأت إصبع قيلة على الاسم، ورأته يرتجف.

ثم فتحت وردة الورقة الزرقاء.

ولم تبصرها. قرأتها فقط. لأنها عرفت الخط قبل أن تقرأ. لم يكن خط نوسم. كان خط رجل تعلم الكتابة في إلسوم، كألف رجل غيره. لكن الحبر كان حبر الحفظة. والطريقة التي بدأت بها الورقة كانت طريقة الحفظة حين يكتبون إلى رأس المجلس.

إلى الكتّاب.

وصلتُ بعد أن تمّ. وجدته على البساط والقنديل مطفأ. ولم يكن في الخيمة أحد، ولم أرَ أحدًا يخرج. أخذت ما على اللوح كما أمرت. ووجدت معه نصف رق، فيه ما لم تخبرني به: أنه كان سيعلن الحياد. فإن كان هذا ما كان سيقوله، فما الذي أردنا أن نمنعه؟

وعند الباب رأتني قائدة الفرسان، ولم تنادِ.

أمضي إلى الحافة كما أمرت، لأرى البلّور، ثم أنزل في النهر. ولا أعرف إن كنت سأرسل هذه.

قرأتها وردة مرتين.

ثم وضعتها على الأرض، إلى جانب النصفين.

وانتظرت أن تحس شيئًا.

كانت تعرف ما يجب أن تحس. كانت قد كتبته. في الرسالة المطوية في حزامها، بخطها: كانت يدك ترتجف. ولم أفهم لماذا. وكانت تعرف، من رأسها، من الحساب، كما يعرف المرء أن اثنين واثنين أربعة، أن الكتّاب هو نوسم. وأن الحفظة لا يكتبون «إلى الكتّاب» إلا إليه. وأن رجلًا أُمر أن يتأكد أنه تمّ. وأن الأمر جاء من إلسوم. وأن نوسم أرسلها هي بعده، وقال لها: اكتبيه لي أولًا.

وكانت تعرف كل ذلك.

ولم تحس شيئًا.

لا البرد في الظهر. لا الشك. لا الخوف الذي كان. كانت تنظر إلى الورقة الزرقاء كما ينظر أمنوثار إلى دفتره: كلمات، بخط من تصدقه، عن رجل لا تعرفه. وكانت تعرف أن هذا الرجل الذي لا تعرفه رباها منذ كانت في السادسة.

«وردة.»

ورفعت عينيها.

«تبكين،» قالت قيلة.

ولمست وردة وجهها، بيدها اليمنى العارية. وكان مبللًا.

«لا أحس لماذا،» قالت.

لم تنم أي منهما.

جلستا في الخيمة حتى الفجر، والأوراق بينهما على الأرض، والقنديل يخفت. وجاء هدران مرة، ووقف عند الباب، وسمع. ثم دخل، وجلس، ولم يقل شيئًا. ثم مد يده، وتحسس الأوراق، واحدة بعد واحدة، بأطراف أصابعه، كما يتحسس الأرض.

ووقفت أصابعه على الورقة الزرقاء.

«أعرف هذا الحبر،» قال.

«كل الحفظة يعرفونه.»

«لا.» ولم يرفع أصابعه. «أعرف هذه اليد. علمتُها.» وسكت. «كان طالبًا عندي. قبل الخلاء. قبل أن أعمى. كان أذكى من في صفه، وأخوفهم.» ورفع وجهه. «اسمه لا يهم الآن.»

«كان يهم أمس،» قالت قيلة.

ولم يجب هدران.

في الصباح، ذهبت قيلة إلى أمنوثار.

ولم تذهب وردة معها. بقيت في الخيمة، والقفازان في حجرها، والدفتر الصغير مفتوحًا على صفحة الضائعات. وكانت تبحث.

كانت تبحث عن ثمن الحقيبة. ومرت على الأشياء. ثم وجدت.

لم يكن كبيرًا. كان شيئًا عن إلسوم. الضوء في المكتبة. كانت تعرف أنه كان له لون. تعرف أنه كان يمر على شيء قبل أن يصل إلى الرفوف. ماء؟ زجاج؟ وكانت تعرف أنها كانت تحبه. ولم تعرف لونه.

وكتبت: لون الضوء في المكتبة.

ثم توقفت. ونظرت إلى السطر.

ثم كتبت تحته، بخط أصغر، كما يكتب أمنوثار لنفسه:

الرجل الذي رأته قيلة جاء بعد القتل. كتب إلى الكتّاب: وصلتُ بعد أن تمّ. لا أحس هذا. لكني أصدقه، لأنه خطه.

رجعت قيلة في الضحى، ومعها ورقة.

قالت إن أمنوثار قرأ الحقيبة. كل ما فيها. وقرأ دفتره بعدها، ووجد ما كتبه أمس: رأيتُ. وإنه كتب إلى الإمبراطورة بطائر، في الفجر، قبل أن تصل قيلة. وإن الطائر رجع بجواب قبل ساعة.

وأعطت الورقة لوردة.

وكانت بخط الإمبراطورة. الخط الكبير غير المنتظم.

أوقفتُ الرابعة. ولا أستطيع الثلاث بعد. ولا أعرف إن كنت سأستطيع.

وارجعي يا قائدة الفرسان إلى بئرك بالنهر والقنوات، لا بالخلاء. معكِ خاتم الضابط. وأمرتُ أن يُعطى لكِ ما تحتاجين.

واحملي رسالتي إلى خردش كما هي.

ولم يكن في الورقة شيء عن إلسوم.

من «دم الإخوة»، النسخة الإلسومية. حاشية بخط أزرق صغير على الهامش، لا يُعرف كاتبها:

يقول الكتّاب إن الغريب الذي دخل على الأمين الرابع ليلة قُتل لم يره أحد يدخل، ورآه الحارس يخرج، وعلى يده ختم. وأقول: ما

أكثر من رُئي يخرج في هذا الكتاب، وما أقل من رُئي يدخل. ومن يكتب التاريخ يكتب ما رآه الحارس عند الباب. والحارس لا يرى إلا الباب.

الجزء الثالث: المكتبة

17. العودة

رجعوا على الماء.

ثلاثة أيام في القارب على النهر، ثم يومان في القناة الكبرى إلى الغرب، ثم يوم على قناة أصغر، تنحرف إلى الجنوب الغربي، إلى حيث تنتهي أرض قلمير وتبدأ سُرْدان. وكان خاتم الضابط في كيس في صدر قيلة، وأخرجته ست مرات لستة حراس، وفي كل مرة كان الحارس ينظر إليه، ثم إليها، ثم إلى الحبل الأخضر، ثم يفسح الطريق.

ولم تلبسه مرة.

ولم تخف من الماء هذه المرة. أو خافت، ولم تنتبه. كانت تفكر في أشياء أخرى. في اسم على رق كبير، بخط رجل ميت. وفي ورقة زرقاء تقول: وصلتُ بعد أن تمّ. وفي أخيها.

وكانت وردة تنام في القارب، كما نامت أول مرة، ويدها اليسرى ملفوفة بخرقة نظيفة أعطاها إياها أمنوثار، فيها مرهم من شمع وعسل. ولم تكن تلبس القفاز الأيسر. لم تعد تحتاجه. كانت تقول ذلك وهي تبتسم، وكانت الابتسامة أسوأ من البكاء.

وصلوا إلى خيام فاقد في عصر اليوم الحادي والخمسين.

ورأت قيلة الدخان قبل الخيام. لم يكن دخان نار. كان دخانًا قديمًا، رماديًا، يصعد خفيفًا من أرض سوداء. ثم رأت رأس القناة السابعة.

كان حوضًا من حجر، كحوض صومعة الحافة، لكن أصغر، يأتيه الماء من القناة الكبرى، ثم يتفرع منه في سواق صغيرة إلى الخيام. وكان الحوض مكسورًا. حجارته متناثرة، سوداء من النار. والسواقي جافة. وفي قاع الحوض، طين متشقق.

وحوله الخيام. نصفها محروق.

ورأت النساء. كن يحملن الماء في قرب من القناة الكبرى، على بعد ساعة، على ظهورهن، لأن الجمال قليلة. ورأت الأطفال. جالسين في ظل ما بقي من الخيام، ساكتين. وعدّتهم، دون أن تقرر أن تعد. سبعة عشر.

وكان العدد عشرين.

وجدت أخاها جالسًا على حجر عند الحوض المكسور.

كانت ذراعه اليسرى مربوطة إلى صدره بقماش، وفي وجهه جرح طويل من الصدغ إلى الفك، بدأ يلتئم. وكان ينظر إلى الحوض.

ولم يقم حين رآها.

ونزلت عن الجمل، ومشت إليه، ووقفت أمامه. ونظر إليها من تحت. ثم إلى وردة وهدران وراءها. ثم إليها.

«تأخرتِ،» قال.

«تأخرتُ.»

«كان خردش ينتظركِ. قال للناس: إن جاءت قائدة الفرسان بالاسم، فلا دم. وانتظر إلى الفجر. ولم تجيئي. فجاء.»

«كم؟»

«من عندنا، ستة. ثلاثة منهم أطفال، في الخيمة التي احترقت.» ولم يتغير صوته. «ومن عندهم، أربعة. أحدهم ابن عمه الآخر. والقلميريون في المخفر لم يخرجوا. قالوا: الحمى ليست أرضنا. والقناة ليست حمى. ولم يخرجوا.»

وجلست قيلة على الحجر إلى جانبه.

لم تتكلم مدة. ثم أخرجت من صدر ثوبها قماش الخبز. وفتحته. ووضعت النصفين على ركبته، جنباً إلى جنب.

ونظر إليهما فاقد.

ولم يلمسهما. قرأ، وعيناه تتحركان من اليمين إلى اليسار، سطراً بعد سطر. ووقفت عيناه في السطر السادس.

ويحمل هذا إليكِ من لا تشكين فيه، ابن نوقار، فاقد.

ولم يتحرك.

«أين وجدتِه؟» قال، بصوت جاف.

«نصفه في البساط. ونصفه في حقيبة رجل مات تحت صومعة الحافة.»

ونظر إليها.

«صومعة الحافة،» قال.

«احترقت. بنار بيضاء. من تحتها.» ونظرت إلى الحوض المكسور. «رأيتُها يا فاقد. لا عاصفة ملح.»

ولم يقل شيئًا.

ثم قالها. دون أن تسأله. كما قال لها عن أمهما عند البئر الميتة.

«لقيته قبل موته بسبعة أيام،» قال فاقد. «عند بئر الغرين. حيث لقيتكِ. لهذا جئتُ في الوقت. كنت أعرف الطريق.»

«هو طلبك؟»

«هو طلبني. أرسل صبيًّا من بني قيظ، بلا علامة، وقال: كبير القبائل يريدك عند البئر الميتة، وحدك، عند الزوال.» وابتسم بنصف فمه. «وذهبت. لأني أردت أن أرى وجهه. الرجل الذي أذن لنا بالشرب في اليوم الخامس.»

«ورأيته.»

«رأيته.» ونظر إلى يده السليمة. «كان أكبر مما ظننت. وأتعب. وقال لي، قبل أن يقول أي شيء: ابنك كان في الرابعة. وأنا أعرف. ورسولي كان عندي في اليوم الثاني، وأخّرتُه ثلاثة أيام لأني كنت أحسب. كنت أحسب كم في بئر الصفاة. وأنت كنت تدفن.» وسكت فاقد. «قالها هكذا. لم يعتذر. قال: كنت أحسب. وأنت كنت تدفن.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

«ثم قال لي ما في هذا.» وأشار إلى الرق على ركبته. «الحياد. والآبار. والإمبراطورة. وقال: احملها أنت. أنت نثق بك قلمير، وأنت تكرهني. فإن حملتها أنت، صدّقها الطرفان. وقلت: نعم.»

«ولماذا لم تقل لي؟»

«متى؟»

«بعد موته. يوم الدفن. عند البئر الميتة. متى شئت.»

ونظر إليها فاقد طويلًا.

«قُتل قبل أن يعلنها،» قال. «فمن يصدق؟ أنا رجل قلمير. لو قلت: كان ظميان سيعلن الحياد، وأنا كنت سأحمل رسالته، قال الأوفياء: يكذب ليغطي على من قتله. وقال القلميريون: كان يفاوض من وراء ظهرنا. ولم يكن معي شيء. لا رق، ولا شاهد. كان هو الشاهد، ومات.» وسكت. «وأنتِ...»

«وأنا؟»

«وأنتِ كنتِ تحرسين. وكان في عينيكِ شيء يوم القتل. رأيته من بين الناس. شيء تخفينه. ولم أعرف ما هو. فقلت: أختي تعرف من دخل عليه، ولا تقول. فلماذا أقول أنا؟»

ولم تجد قيلة ما تقوله.

ثم قالت ما رأته. كله. الليلة، والقوس، والرجل، والجمرة. والسكوت. والأربعين يومًا. والرجل نفسه، عند باب الصومعة، بنصف جسد، وأصابع زرقاء. والورقة: وصلتُ بعد أن تمّ.

وسمع فاقد. ولم يقاطعها مرة.

وحين انتهت، قال: «فكلانا سكت.»

«كلانا.»

«عن أشياء صحيحة. وكلانا كان يظن أن سكوته يحمي شيئًا.»

«نعم.»

«وماذا حمى؟»

ونظرت قيلة إلى الأطفال السبعة عشر في الظل.

ولم تجب.

ثم أعطته الرق الكبير.

وقرأه فاقد. خطبة ظميان للمجلس. الكلام الذي لم يقله. احتكرتُ آبار الشعاب ثلاث عشرة سنة. أنا أول من نقض البند الأول. ومات على طريق الصفاة من مات، وأنا أعرف أسماءهم.

ثم الأسماء.

ورأته قيلة يقرؤها. اسمًا بعد اسم. ستة عشر اسمًا. ورأت إصبعه، السليم، ينزل على الرق، كما نزل إصبعها في الخيمة على حافة الصومعة. ورأته يقف.

عند اسم أمهما.

ثم ينزل.

ثم يقف عند الاسم الذي بعده. ثلاثة أسماء صغيرة. وآخرها اسم صبي، وبعده بخط ظميان: ابن فاقد بن نوقار. أربع سنين.

ولم يتحرك فاقد مدة طويلة.

وكانت قيلة تنتظر أن يبكي.

ولم يبك.

كان ينظر إلى الاسم، وكان وجهه ساكنًا. الفم المطبق. والعينان الغائرتان. ولم يكن فيهما ماء. ثم رفع عينيه إليها، وكان فيهما شيء لم تره فيهما قبل. لا قسوة. حيرة.

«لا أبكي،» قال.

«أعرف.»

«لم أبك عليه.» وقالها ببطء، كمن يكتشف شيئًا. «حين دفنته. ولا بعد. ولا الآن. كنت أقول لنفسي: هذا الحزن. الحزن الكبير لا يبكي. هكذا يقولون. لكن أمي بكيتُ عليها. في الليلة الثالثة، قبل أن يموت. بكيت عليها حتى الفجر.»

ونظرت إليه قيلة.

«وبعد سنة جاء رجل قلمير،» قال فاقد. «وشربنا من القناة.» ونظر إلى الحوض المكسور. «ومنذ ذلك الحين لم أبك على شيء.»

ولم تقل قيلة شيئًا عن صبي على درج النهر، يضرب كلبًا بلا شيء في وجهه. لكنها رأت أخاها ينظر إليها، ويفهم أن عندها شيئًا لا تقوله. ورأته يقرر ألا يسأل. كما قررت هي ألا تقول.

وكان الاسم الأول من الأسماء الأربعة اسم أمها.

ولم تكن قيلة قد رأته مكتوبًا قبل اليوم. لم يُكتب على القبر. في سُرْدان لا يُكتب على القبور شيء، لأن الرمل يعرف من تحته. ورأته الآن بخط ظميان، بالحبر الأسود، بين اسم رجل من الشعاب واسم طفل، كأنه اسم من الأسماء.

«قلتَ عند البئر الميتة إنك أرسلت إليّ رسولًا،» قالت.

ورفع فاقد عينيه عن الرق.

«أرسلتُ.»

«وصل.» ولم تنظر إليه. «في بئر العهود. كنت أحرس الحجاج. وكان الرسول صبيًّا من قبيلتنا، على حمار. وقال لي: أهلك على الطريق بين البئرين، وأخوكِ يسأل أن تأتي. ولم يقل: عطاش. ولم يقل: أمكِ. قال: على الطريق. وكانت في الحجاج امرأة من ألمين، مريضة، وكانت نوبتي ثلاثة أيام بعدها. فقلت للصبي: قل لأخي إني آتية بعد النوبة.»

ولم يقل فاقد شيئًا.

«وأكملتُ النوبة،» قالت قيلة. «ثلاثة أيام. لأن العرف يقول إن الفارس لا يترك نوبته إلا لدم. ولم يكن في كلام الصبي دم. ووصلتُ وقد دفنتموها.»

«لم يعرف الصبي،» قال فاقد بعد مدة. «أرسلته في اليوم الأول. كانت أمي حية، وكان الماء قليلًا لا معدومًا.» ونظر إلى يده. «لم أعرف أنا أيضًا، يومها، أنه سيكون دمًا.»

«ولماذا لم تقل لي هذا؟ عشرين مرة سألتك: كيف ماتت. من كان معها.»

«لأنكِ كنتِ ستسألين: متى أرسلتَ. وكنتُ سأقول: في اليوم الأول. وكنتِ ستحسبين. أنتِ تحسبين كما كان يحسب هو. الآبار، والأيام، والنوبات.»

ولم تجد قيلة ما تقوله. لأنه كان صادقًا. لأنها كانت تحسب الآن: يوم للصبي إلى بئر العهود، ويومان لها على الفرس، لو خرجت. كانت ستصل في الليلة الثالثة. الليلة التي ماتت فيها أمها.

ومرت عيناها على السطر الذي فوق الأسماء.

ومات على طريق الصفاة من مات، وأنا أعرف أسماءهم.

بئر الصفاة. بئر بني قيظ. والرجال عليها بالرماح. وهي، قيلة بنت نوقار، تحرس منذ عشر سنين بئرًا يجتمع عندها بنو قيظ كل خريف، وتقف عند خيمة كبيرهم، وتحكم بينهم وبين من يخاصمهم كأن لا شيء لها عندهم.

وكان لها عندهم شيء.

كانت في الرابعة عشرة حين جاؤوا بأبيها على جمل، من بئر الشعاب الرابعة، وفي صدره جرح صغير، أصغر من أن يقتل رجلًا كأبيها. ولم ترَ السهم. قالوا إنه نُزع في الطريق، وإن عليه علامة القبيلة: خطين وقوسًا. علامة بني قيظ. ولم يعرف أحد أين ذهب. ولم تبكِ يومها. ثم، بعد اثنتي عشرة سنة، ماتت أمها عطشًا على طريق بئرهم.

ولم تكن قد قالت هذا لنفسها بهذا الترتيب قط. السهم، ثم البئر. أبوها، ثم أمها. كانت تضع كل واحدة منهما في موضع، بعيدًا عن الأخرى، كما يُفرَّق بين جملين يتعاركان. وكانت تقول: الفارس لا يميل. ومن أقسم ألا يميل لا يحمل ثأرًا.

والآن كانا على ركبتها معًا، في رق واحد، بخط الرجل الذي كانت تحرس خيمته.

«أنتِ تفكرين في أبي،» قال فاقد.

«في السهم.»

«وأنا أفكر فيه منذ سنين.» ونظر إلى القناة المحروقة. «لهذا شربتُ من القناة، يا قيلة. لا لأن قلمير أحسن. لأن ماءها لا يمر ببني قيظ.»

ولم تقل له إنها فهمت. لكنها فهمت. وكان ذلك أسوأ من أن تخالفه.

في الليل، جلسوا حول نار صغيرة أمام خيمته، التي لم تحترق.

قيلة وفاقد. وهدران، صامتاً. ووردة، ويدها الملفوفة في حجرها.

وكانت قيلة قد أخرجت رسالة الإمبراطورة، المختومة بالشمع الأزرق. ووضعتها على الأرض. ولم يمسها أحد.

«ستأخذينها إليه،» قال فاقد.

«نعم.»

«وحدك.»

«وحدي.»

«سيقتلكِ.»

«لا. سيطردني. ولن يقتلني. هو ابن ظميان. يعرف كم يستطيع أن يجوع.»

ونظر إليها فاقد.

«وماذا ستقولين له؟»

ولم تجب قيلة فورًا. كانت قد فكرت في ذلك ستة أيام على الماء. وفكرت في الرق الكبير، والاعتراف الذي فيه. احتكرتُ. أنا أول من نقض. وفي وجه خردش، يقول: أبي أخطأ، وأبي قُتل، وخطيئته لا تحل دمه. وفي حبله الأحمر.

«الحقيقة،» قالت.

«كلها؟»

ونظرت إلى أخيها.

«لا أعرف كلها.» وسكتت. «أعرف من دخل بعد القتل. ولا أعرف من قتل. أعرف أن أباه كان سيعلن الحياد. وأعرف أن أحدًا في إلسوم أراد أن يتأكد أنه لن يعلنه.»

وسمعت وردة تتنفس، إلى جانبها. ولم تلتفت.

«فقولي له ذلك،» قال فاقد.

«وأن أباه كتب: أنا أول من نقض؟»

وسكت فاقد.

ثم قال: «لا أعرف يا قيلة.» وكانت أول مرة منذ سنين تسمعه يقول: لا أعرف. «أبوه أراد أن يقولها أمام القبائل. بفمه. هذا كان ثمنه. فإن قلتِها أنتِ عنه، أخذتِ منه ثمنه.»

قامت قيلة لتنام.

وأمسك فاقد معصمها، بيده السليمة. فوق الحبل الأخضر.

«يا قيلة.»

«نعم.»

«خردش ليس عدوكِ.» ونظر إليها، وكانت النار في عينيه. «ولا أنا. ولا المرأة في قلمير. عدوكِ من كتب: تأكد أنه تمّ.»

«لم يكتبها أحد. قالها لرجل.»

«فعدوكِ من قالها.»

وأرخى يده.

ومشت قيلة إلى الخيمة الصغيرة التي أعطوها إياها. ولم تنم.

وكانت وردة نائمة فيها، أو تبدو نائمة. وحين دخلت قيلة، قالت المبصرة في الظلمة، دون أن تفتح عينيها:

«إلسوم.»

«إلسوم،» قالت قيلة.

«بعد خردش؟»

«بعد خردش.»

وسكتت وردة مدة. ثم قالت: «لا أحس أني أخاف أن أرجع.» وسكتت. «وهذا ما يخيفني.»

18. خردش

كان خردش قد قام عن الرمل.

رأت قيلة ذلك من بعيد، حين صعدت الكثيب الصغير الذي يطل على خيامه، في ضحى اليوم الثالث والخمسين. لم يعد جالسًا عند النخلة الميتة. كانت هناك خيمة جديدة، قصيرة، سوداء، من وبر خشن، بلا أعمدة، مشدودة إلى الأرض بالأوتاد. خيمة حرب. وكان واقفًا أمامها، طويلًا، نحيلًا، والحبل الأحمر على معصمه، يكلم رجالًا حوله.

وكان تحت سقف.

فهمت قيلة. انقضت الأربعون، فانقضى القسم. أقسم ألا يظل تحت سقف حتى يعرف، أو حتى تنقضي المهلة ويأخذ الحكم بيده. وقد أخذه. عند رأس القناة السابعة، في الفجر.

ونزلت الكثيب وحدها. على فرسها. بلا سيف. وتركت القوس مع هفير على الكثيب.

لم يقم أحد ليمنعها.

مرت بين الخيام، والرجال ينظرون إليها. ورأت بينهم وجوهًا تعرفها. فرسانًا كانوا معها، وصاروا هنا. نزعوا الحبال الخضراء وربطوا الحمر. وكان أحدهم زعبل. واقفًا عند جمل، وعلى ساعده الحرق القديم، قد صار ندبة. ونظر إليها، ولم يقل شيئًا، ولم يُشح بوجهه.

ووقفت أمام خردش.

«يا بنت نوقار.»

«يا ابن ظميان.»

«جئتِ بعد الأربعين.»

«جئت بعد الأربعين.»

«بالاسم؟»

ونظرت إليه. وكانت قد رتبت ما ستقوله ستة أيام على الماء، ويومين على الجمل، وليلة كاملة عند نار أخيها. ورأت الآن وجهه. الخدين الغائرين، والعينين اللتين صارتا أكبر مما ينبغي. ورأت فيهما ما لم تره في الشعب الشمالي. تعب. تعب رجل أخذ الحكم بيده، ولم يجد فيه ما كان يظن.

«لا،» قالت. «بغير الاسم.»

جلسا في الخيمة الجديدة. هو على طرف، وهي على طرف، وبينهما إناء لبن لم يقدمه.

وقالت له.

بدأت بما لم تقله لأحد قبل وردة. الليلة. الحراسة. القنديل الذي انطفأ. الرجل الخارج من خيمة أبيه، بمشية لا تعرف الرمل، وكتف أعلى من كتف، وأصابع

زرقاء. والسهم بين أصابعها، والقوس غير مشدود. ولم ترم. ولم تنادِ. ووقفت عند الباب. ونادت: يا كبير القبائل. مرتين. ولم تدخل.

«ثم قلتُ لك يوم الدفن: لا أعرف،» قالت. «وكنت أعرف أني رأيت.»

ولم يتحرك خردش.

ولم يقل شيئًا مدة طويلة. وكان وجهه كما كان في الشعب، حين قال: كما وقفتِ عند خيمة أبي. لكنه الآن يعرف ما قاله.

«أربعين يومًا،» قال أخيرًا.

«أربعين يومًا.»

«ومات ابنا عمي. ومات أبو زعبل. ومات ستة في خيام أخيكِ، منهم ثلاثة صغار.» وكان صوته هادئًا، صوت أبيه. «وأنتِ تعرفين.»

«كنتُ أعرف أني رأيت رجلًا. ولم أعرف أنه لم يقتله.»

ونظر إليها.

وقالت له الباقي.

الصومعة. والرجل نفسه عند بابها. والحقيبة. والورقة: وصلتُ بعد أن تمّ. وقالت له إن الرجل الذي رأته دخل بعد أن مات أبوه، وإن القاتل لم يترك أثرًا. لا في البساط، ولا في الأرض، ولا في أي شيء.

ولم تقل له من كُتبت إليه الورقة.

وكانت قد قررت ذلك عند نار أخيها، ولم تعرف إن كان القرار صحيحًا. لو قالت: إلسوم، لقام خردش غدًا إلى الحفظة، كما قام إلى رأس القناة. ولم يكن عندها إلا ورقة بلا توقيع، تبدأ بكلمتين. ووردة، التي تعرف ولا تحس.

ثم أخرجت النصفين.

قرأهما خردش مرة واحدة.

ثم وضعهما على البساط بينهما، ولم ينظر إليهما مرة أخرى.

«خطه،» قال.

«خطه.»

«وتقولين إنه كان سيعلن الحياد.»

«أقول ما على الرق.»

«ويفتح الآبار.»

«ما على الرق.»

«ويرسله مع أخيكِ.» ونظر إليها، ولأول مرة رأت في وجهه شيئًا يتحرك. «مع ابن نوقار. رجل قلمير. إلى المرأة التي تسرق الماء من تحتنا.»

«نعم.»

«ومن أين جاءكِ نصفه؟»

«من حقيبة رجل مات في قلمير.»

«في قلمير.» وقام خردش. ببطء. ووقف فوقها. «ذهبتِ إلى قلمير. وانقضت المهلة وأنتِ هناك. ورجعتِ على قنواتهم. ومعكِ رق بخط أبي، يقول إنه كان سيبيعنا لهم.»

«لم يكن سيبيعكم.»

«ويقول إنه كان سيعطيهم الآبار.»

«كان سيفتحها. للقبائل. كما قال الميثاق.»

«الميثاق.» وضحك خردش. ضحكة قصيرة، جافة، كصوت حجر على حجر. «أنتِ لا تستشهدين بالميثاق يا قائدة. أنتِ تستشهدين بالعرف. كل الناس يعرفون ذلك. فمن علمكِ الميثاق في قلمير؟»

ثم مد يده.

لم تفهم أول الأمر. ثم رأت يده تمتد إلى صدر ثوبها، حيث كان قماش الخبز، وحيث كان كيس آخر. ولم تمنعه. وأخرج الكيس.

وفتحه.

وسقط الخاتم على البساط. فضة، وحجر أزرق.

ونظر إليه خردش. طويلًا.

ثم نظر إليها.

«لم ألبسه،» قالت قيلة.

«تحملينه في صدركِ. إلى جانب خط أبي.»

ولم تجب.

ثم أخرجت رسالة الإمبراطورة، المختومة بالشمع الأزرق. ووضعتها على البساط، إلى جانب الخاتم، إلى جانب النصفين.

«هذه منها،» قالت. «إليك. كما كتبت لأبيك. والمزيد. لم أقرأها. قالت: احمليها كما هي. وحملتها.»

ولم ينظر خردش إلى الرسالة.

«أتعرف لماذا لا أستشهد بالميثاق؟» قالت قيلة.

ولم يجب.

«لأن العرف يقول: الفارس لا يحمل ثأرًا. والميثاق لا يقول ذلك. الميثاق يقول: لا دم عند البئر. ويسكت عما بعد البئر.» ونظرت إليه، ولم يرتفع صوتها. «وأنا أحتاج العرف يا ابن ظميان. أحتاجه كل خريف. حين أقف عند خيمة أبيك.»

«ولماذا تحتاجينه؟»

«لأن أبي مات بسهم عليه خطان وقوس.»

وسكت خردش. وكانت تعرف أنه يعرف العلامة. كل من في سُرْدان يعرفها. علامة بني قيظ، على الجمال وعلى الأبواب وعلى السهام.

«في بئر الشعاب الرابعة،» قالت. «في الحرب الصغيرة. وكنت في الرابعة عشرة. ولم يسأل أحد من رمى. قالوا: حرب. والحرب لا تُسأل.» ونظرت إلى الخاتم على البساط. «وبعد اثنتي عشرة سنة، ماتت أمي عطشًا على طريق الصفاة. بئركم. ورجالكم عليها بالرماح، بأمر أبيك. واسمها مكتوب بخطه، في رق لم أرك إياه بعد.»

ورأت وجهه يتغير. لم يكن غضبًا. كان شيئًا أبطأ من الغضب.

«ثم جئتُ كل خريف،» قالت، «ووقفت بثلاثين فارسًا على الربوة، أحرس خيمة الرجل الذي أمر بالرماح، من قبيلة الرجل الذي رمى السهم. وحكمتُ بينكم وبين خصومكم عشر سنين، ولم يقل أحد قط: مالت قيلة. فلا تقل لي إني لست فوق شيء. كنت فوق نفسي. وهذا أصعب.»

ولم يتكلم خردش مدة.

ثم قال، بصوت خفيض، كأنه يكلم الإناء بينهما: «لم أعرف أن أمكِ...»

«لم يقل لك أحد. ولم أقل.»

«ولماذا تقولينه الآن؟»

«لأنك قلت إني جئتك بخط أبيك لأبيعك لقلمير. لو كنت أميل، لملتُ عنكم منذ عشر سنين. لا اليوم.»

«اخرجي،» قال.

ونظرت إليه قيلة.

«اخرجي يا بنت نوقار.» ولم يرفع صوته. «من خيمتي. ومن خيامي. ولا تدخلي على الأوفياء بعد اليوم. ولا تقولي إنكِ فوق الطرفين. لستِ فوق شيء. كنتِ عند باب أبي، ووقفتِ. وكنتِ في قلمير حين انقضت المهلة. وجئتِني بخاتمهم وخط أبي، تقولين: أبوك كان معهم.»

«لم أقل ذلك.»

«قلتِه.» ونظر إلى النصفين على البساط. «هذا ما يقوله الرق. وأنا لا أصدق الرق. أصدق أبي. وأبي لم يكن ليكتب هذا.»

ونظرت إليه قيلة.

ورأت أنه يكذب. لا عليها. على نفسه. رأت ذلك في يده، اليمنى، التي على ركبته، تنقبض وتنفتح. ورأت في عينيه أنه يعرف الخط، ويعرف أباه، ويعرف أن أباه كان قادرًا أن يكتب هذا. وأنه لا يستطيع أن يعرف ذلك اليوم. ولا غدًا.

وفكرت في الرق الكبير. الذي في حقيبة الرسول، مع وردة، في السهل. احتكرتُ. أنا أول من نقض.

ولم تقل شيئًا عنه.

وقامت.

عند باب الخيمة، التفتت.

«النصفان لك،» قالت. «والرسالة. لا آخذهما.»

ولم يجب خردش.

«وقل لي شيئًا واحدًا يا ابن ظميان، ثم لا أدخل عليك.»

ونظر إليها.

«كم نزل الماء في بئر العهود منذ الصومعة الأولى؟»

«ثلاثة أذرع. قاسه أبي.»

«وكتبه.»

«كان يكتب كل شيء.»

«فأبوك كان يكتب ما لا يقوله. كما فعل في هذا.»

وخرجت.

لم يقم أحد ليمنعها وهي تمشي بين الخيام إلى فرسها.

لكن زعبل كان عند الفرس.

ووقف، ونظر إليها. وكان قد صار أنحف. وكان في عينيه ما كان في عيني خردش. التعب.

«سمعتُ،» قال. بصوت خفيض. «الخيمة من وبر. كل الناس سمعوا.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

«الرجل الذي رأيتِه،» قال زعبل. «لم يقتله.»

«دخل بعد أن مات.»

«ومات أبي في الشعب، لأننا ظنناهم. ظنناهم قلمير. أو ظننا الحفظة. أو ظننا أي أحد.» وسكت. «ولم يكن أحد يعرف.»

«لا أحد.»

ونظر إليها زعبل مدة. ثم أدخل يده في ثوبه، وأخرج شيئًا، ووضعه في يدها.

حبلًا أخضر.

حبله. الذي وضعه في يدها في الشعب، فأعطته لهفير. ولم تعرف كيف رجع إليه.

«لا أرجع،» قال زعبل. «ليس الآن. أبي هنا، في الأرض. لكن احتفظي به.» ونظر إلى الخيمة السوداء. «وهو سيقرأ الرسالة. لم يقرأها وأنتِ هناك. لكنه سيقرؤها.»

«كيف تعرف؟»

«لأنه أبقى الخاتم أيضًا. رأيته يأخذه حين التفتِّ.»

رجعت إلى السهل في المساء.

وكان هفير ينتظرها عند البئر. ونظر إلى وجهها، ولم يسأل.

ثم قال: «مئة وأربعون.»

ونظرت إليه.

«الفرسان. بقي مئة وأربعون. ذهب سبعة وتسعون في غيابكِ. نصفهم إلى الأوفياء بعد القناة السابعة. ونصفهم إلى بيوتهم. قالوا: لا حمى إن لم يكن من يحرسها. والذين بقوا، بقوا لأنكِ رجعتِ. لا لأنهم يعرفون لماذا.»

«ولا أنا.»

«أعرف.» ووضع يده على كتفها، كما يضعها على كتف ابنته. «لكنكِ رجعتِ.»

وجدت وردة في خيمتها، تشد الأحمال على جمل.

وكان هدران معها، يتحسس العقد واحدة بعد واحدة، ويعيد شد ما لم يعجبه.

«تذهبين،» قالت قيلة.

«إلى إلسوم.» ولم ترفع وردة عينيها. «بالبر. مع هدران. اثنا عشر يومًا.» وسكتت. «الرق الكبير معي. والورقة الزرقاء. وحقيبته.»

«ستعطينها لنوسم؟»

ورفعت وردة عينيها.

«لا أعرف.» ونظرت إلى يدها الملفوفة. «سأرجع إلى البرج. وأصعد درجاته، ولا أعرف كم هي. وأقف أمامه. وأنظر إلى يديه. وأرى إن كنت أحس شيئًا. وإن لم أحس، فعندي ما كتبته. وأقرؤه أمامه.»

«وحدكِ.»

«مع هدران.»

ونظرت قيلة إلى هدران. ووجه الأعمى، المائل، الذي لا يقول شيئًا.

«سأجيء،» قالت قيلة.

«بعد؟»

«بالبحر. أسرِع. إلى قيظان، ثم السفن إلى الدلتا.» ونظرت إلى البئر، إلى الحبل على البكرة، وظل الغروب عليه. «بعد أن أرتب الفرسان. مئة وأربعون. وأحد يجب أن يحرس.»

«ولماذا البحر؟»

«لأن من قال للرجل: تأكد أنه تمّ، يعرف الآن أنه لم يرجع.» ونظرت قيلة إليها. «وسينتظر من يجيء على البر.»

ونظرت إليها وردة طويلًا.

ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة، متعبة، لا تصل إلى عينيها.

«أنتِ تحرسين حتى ما لا تعرفين أين هو.»

«هذا ما أعرفه.»

19. إلسوم

كان الضوء في المكتبة أخضر.

عرفت وردة ذلك لأنها رأته. لا لأنها تذكرته. دخلت من الباب الكبير في ضحى اليوم الخامس والستين، وهدران وراءها، ويدها على كتفه هذه المرة، لأن ساقيها كانتا ترتجفان من اثني عشر يومًا على الجمل. ورفعت عينيها إلى القبة. ورأت الضوء ينزل من النوافذ العالية، ويمر على شيء يتحرك، ويسقط على الرفوف والطاولات والوجوه، أخضر، مرتعشًا، كضوء تحت ماء.

ماء القنوات. فهمت ذلك بعد لحظة. الضوء يمر على ماء القنوات قبل أن يدخل.

ووقفت تنظر إليه.

كانت قد كتبت في دفتر الضائعات: لون الضوء في المكتبة. وكانت تعرف أنها كانت تحبه. والآن رأته. وكان جميلًا. وكان كأي ضوء جميل تراه أول مرة. ولم يكن فيه بيت.

«ما لونه؟» قال هدران، بصوت خفيض.

«أخضر.»

«كان دائمًا أخضر.»

«أعرف الآن.»

لم يعرفها أحد في البهو.

أو عرفوها ولم يقولوا. كان الحفظة يمرون بها، بأثوابهم البيضاء، وأصابعهم الزرقاء، ودفاترهم تحت أذرعهم، وينظرون إليها لحظة. إلى الثوب المغبر من الطريق. إلى اليد اليسرى الملفوفة بالخرقة، بلا قفاز. ثم يمضون. وكانت تسمع وراءها همسًا، كصوت الورق.

ثم رأت تيلم.

كان نازلًا من الدرج الكبير، ومعه شابان من الكتبة. ورآها. ووقف. ونظر إلى يدها الملفوفة. ثم إلى هدران. ثم إليها.

«المبصرة،» قال. ولم يقل غير ذلك.

«يا تيلم.»

«رجعتِ وحدكِ.»

«مع هدران.»

«ومن الشرق.» ولم يكن سؤالًا. «سمعنا أنكِ عبرتِ الخلاء. وأنكِ كنتِ في قلمير. وأن صومعة الحافة...» وسكت. ونظر إلى الشابين معه، فمضيا. ثم قال، أخفض: «رأس المجلس يسأل عنكِ كل يوم.»

«أصعد إليه الآن.»

«لا.» ونظر إليها تيلم بعينيه الضيقتين، وظفر إبهامه المكسور يحك طرف الدفتر تحت ذراعه. «في الحلقة. منذ الفجر. لا ينزل قبل المغرب.» وسكت. «اغتسلي.

ونامي. واصعدي إليه في الليل، كما كنتِ تفعلين.»

ثم مضى. وعند الباب التفت، كمن يريد أن يقول شيئًا آخر. ولم يقله.

لم تغتسل. ولم تنم.

جلست في غرفتها الصغيرة في الجناح الشرقي، على السرير الضيق، والحقيبة المحترقة الأطراف على ركبتيها. وكانت الغرفة كما تركتها. الطاولة، والقنديل، والرف الصغير بكتبه الثلاثة. لكنها لم تعرف أين تضع الحقيبة. كانت قد عاشت هنا عشرين سنة، وكانت يداها لا تعرفان أين كانت تضع الأشياء.

وجاء هدران بعد ساعة. وجلس على الكرسي. ولم يقل شيئًا مدة.

ثم قال: «حين رجعتُ إلى إلسوم، بعد الخلاء، بعد عشر سنين، لم يعرفني فيها أحد. أخبرتكِ بذلك في الطريق.»

«إلا واحدًا.»

«إلا نوسم.» وأدار وجهه نحو النافذة. «كنت واقفًا في البهو، كما وقفتِ اليوم. بثياب الخلاء. أعمى. لا أعرف أين الدرج. ولا أعرف أحدًا. ونزل رجل من الدرج الكبير، ووقف أمامي. ووضع يده على وجهي. هكذا. كما يتحسس الأعمى. ثم قال: هدران. رجعت. وأخذني إلى برجه. وأعطاني غرفة. وطعامًا. وعملًا. ولم يسألني مرة واحدة أين كنت.»

ولم تقل وردة شيئًا.

«عشر سنين،» قال هدران. «ولم يسألني مرة.» وأدار وجهه إليها. «وكنت أظن ذلك رحمة.»

وحين ذهب، فتحت النافذة.

كانت غرفتها تطل على الجنوب، على حي الصبّاغين، ولم تكن قد فكرت في ذلك قط. ودخلت الرائحة. رائحة النيلة والملح والماء الراكد في الأحواض الكبيرة، تلك التي كانت تشمها كل يوم عشرين سنة، وتقول لنفسها إنها رائحة إلسوم.

ورأت، في آخر الضوء، النساء عند الأحواض. يرفعن الأقمشة الطويلة بالعصي، فتخرج من الماء زرقاء تقطر. وعلى أذرعهن الحبر إلى المرفق. وكانت إحداهن تضحك، ويدها على خدها، وتترك عليه أثرًا أزرق.

ولم تعرف وردة لماذا وقفت تنظر إليها حتى أظلم الحي.

صعدت إلى البرج بعد العشاء.

وعدّت الدرجات. لأنها لم تذكر كم هي. كانت تعرف أنها كانت تعرف. وعدّت. وكانت ساقاها ترتجفان. وكانت يدها اليمنى على الجدار الحجري البارد، وفيه آثار أيد كثيرة، أيدي سنين، تصعد وتنزل. ولم تبصرها. أبقت القفاز.

مئتان وسبع عشرة.

وكان الباب مفتوحًا.

كان نوسم واقفًا عند النافذة، يسقي النبتة.

قطرة قطرة. من الكوب الصغير. في الإناء الأبيض من حجر الملح. وكانت النبتة أصغر مما ظنت. أو كانت قد نسيت حجمها. ورقتان خضراوان، وساق رفيع، ولا شيء آخر.

والتفت.

ورأت وجهه. النحيل، المتغضن، والعينين الرماديتين، واللحية البيضاء القصيرة. ورأته يبتسم. الابتسامة التي تذكرها. كانت تذكرها كلها. الكلمات، والوجه، والغرفة. وكان كل ذلك هنا، في رأسها، مرتبًا كرفوف المكتبة.

وكان مكان شيء واحد فارغًا.

«يا ابنتي.»

وجاء إليها. ببطء. ووضع يديه على كتفيها. ونظر في وجهها. ثم نزلت عيناه إلى يدها الملفوفة.

«ماذا فعلتِ بيدكِ؟»

«النار البيضاء.»

ولم يتغير وجهه. لكن يديه على كتفيها ثقلتا قليلًا.

«اجلسي،» قال.

جلست على الكرسي الذي تجلس عليه دائمًا. وجلس هو على الآخر. وكانت بينهما الطاولة الصغيرة، وعليها قنديل، ودفتر مغلق، وكوب ماء.

«حدثيني.»

وحدثته.

لم تحدثه بكل شيء. لكنها لم تكن قد قررت ماذا تقول، فكانت تكتشف ما تقوله وهي تقوله. حدثته عن البئر، والبساط، والرق الممزق. وعن الخلاء، والملح، وبحر الزجاج. وعن قلمير، وأمنوثار، والدفتر. وعن الصومعة.

ولم تحدثه عن الحقيبة.

ولا عن الرجل عند الباب.

وكان يسمع. يسمع كما كان يسمع دائمًا. ورأسه مائل قليلًا، ويده على الدفتر المغلق. ويسأل أسئلة صغيرة. ويهز رأسه. ويقول، مرة، حين حدثته عن المدينة تحت الزجاج: «نعم. نعم. هكذا كان.» كمن يقرأ كتابًا يعرفه.

ونظرت إلى يديه.

لم تكونا ترتجفان.

«وأمنوثار قال لكِ: عاصفة ملح.»

«نعم.»

«وكانت يده ترتجف.»

«نعم.»

وابتسم نوسم. «اليد ترتجف لأشياء كثيرة يا ابنتي. للبرد. وللكبر. وللكذب. وللخوف من الحقيقة. ولا تعرفين أيها، حتى تبصريها. وأنتِ لم تبصريها.»

«لا.»

«الحفظ قبل الفهم،» قال. المثل القديم. «وأنتِ حفظتِ. وهذا كل ما طلبته.»

ونظرت إليه وردة.

ثم قالت: «لماذا قلت لي: ما لم تفهميه فاكتبيه لي أولًا؟»

ولم يتغير وجه نوسم.

«لأني أحبكِ،» قال. «ولأن المبصر الشاب يرى أحيانًا ما يخافه هو، لا ما كان. ولأني أردت أن أكون أول من يسمع، قبل أن يسمع من يسيء الفهم.»

وكانت الجمل كلها صحيحة.

عرفت وردة ذلك. لم تحس شيئًا، لكنها عرفت. كانت كل جملة صحيحة. ولم تكن أي منها الجواب.

ثم قام نوسم.

«يجب أن تنامي.» ووضع يده على رأسها، كما كان يضعها حين كانت في السادسة. «غدًا تحدثين المجلس. ليس كله. الحلقة.» وسكت. «آن لكِ أن تعرفي ما تحت المكتبة يا وردة. لقد رأيتِ الكثير. والذي يرى الكثير يجب أن يعرف لماذا يحرس.»

«الحلقة؟»

«الحلقة الداخلية. تعرفين أنها موجودة. كل الحفظة يعرفون. ولا يعرفون من فيها. سبعة. وأنا منهم. وتيلم. ونحرس شيئين. ختمين. من السبعة. أحدهما تحت أيدينا. والآخر...» وأشار بإصبعه إلى الأرض. إلى ما تحت البرج. إلى ما تحت المكتبة كلها. «الآخر لا يتحرك.»

ولم تقل وردة شيئًا.

«الباب الحديدي في قبو الملح،» قال نوسم. «تذكرينه؟»

«أذكره.»

«طنينه.»

«أذكره.»

«صار أعلى منذ رحلتِ.» ونظر إلى النافذة، إلى الشرق، إلى الظلمة التي وراءها الخلاء وقلمير. «قليلًا. كل يوم. منذ ثلاثة أشهر. منذ بدأوا يبنون الرابعة.» وسكت. «وتوقف أمس.»

«توقف الطنين؟»

«لا. توقف ارتفاعه.»

ورأت وردة شيئًا في وجهه. لأول مرة الليلة. شيئًا لم يكن ابتسامة.

«أوقفت الرابعة،» قالت. «الإمبراطورة. بعد الصومعة.»

وسكت نوسم مدة طويلة.

«إذن نجحتِ،» قال أخيرًا. «في ما لم ينجح فيه أحد منا.» ثم ابتسم. «نامي يا ابنتي.»

وخرج.

لم تتوقع ذلك. كانت تظن أنه سيبقى، وتخرج هي. لكنه أخذ عصاه من عند الباب، وقال: «الحلقة. لم تنته الليلة. ارجعي إلى غرفتكِ، أو نامي هنا إن شئتِ. السرير الصغير في الغرفة الأخرى.» ونزل.

وسمعت خطواته على الدرج. تنزل. وتنزل.

وبقيت وحدها في الغرفة.

لم تقم مدة.

كانت تنظر إلى الطاولة. إلى الدفتر المغلق. ثم قامت، ومشت في الغرفة. إلى الرفوف. إلى النافذة. إلى النبتة في إناء الملح.

ثم رأت الصندوق.

كان تحت الطاولة الكبيرة التي عند الجدار، حيث يكتب نوسم في الليل. صندوق من حجر الملح، أبيض، بحجم صندوق الخبز، وغطاؤه من خشب. وكانت قد رأته ألف مرة. ولم تسأل عنه قط. كان دائمًا هناك، كالنبتة، كالكرسي.

ورفعت الغطاء.

وكان مليئًا بالورق.

ورق ممزق. قطع صغيرة، بحجم الكف، وأصغر. مئات منها. وكانت بالحبر الأزرق، كلها. وبخط واحد، صغير، مائل. خط تعرفه منذ كانت في السادسة.

ولم تكن قد رأته ممزقًا قبل.

فهمت.

لم يكن ذلك فهمًا من رأسها. كان من شيء آخر. من كل ما عرفته عن الحفظة. لا يحرق الحافظ ورقًا. هذا أول ما يُعلَّم، قبل الحفظ، قبل الصمت. الحرق محو. والحافظ لا يمحو. حتى ما كتبه بيده. حتى ما لا يريد أن يُقرأ.

فيمزقه. ويضعه في الملح. لأن الملح يحفظ.

كل ليلة. سنين.

ونظرت وردة إلى الورق الممزق. وفكرت: إنه يكتب شيئًا كل ليلة، ولا يريد أن يُقرأ، ولا يستطيع أن يمحوه.

إنه يعترف.

وقفت مدة.

ونظرت إلى الباب. كان مفتوحًا، والدرج وراءه مظلمًا، ولا صوت عليه.

ثم نظرت إلى يدها اليمنى. في القفاز.

لا أقرأ أثر الأحياء إلا بإذنهم.

قالتها لقيلة، في الخيمة، يوم وصولها إلى البئر. كانت تعرف أنها قالتها، لأن قيلة أخبرتها بعد بحر الزجاج. ولم تكن تذكر أنها قالتها. لكنها كانت تعرف لماذا قالتها. لأنها قاعدة. وكانت قاعدتها قبل أن تكون قاعدة الحفظة. لأن قراءة أثر الحي بغير إذنه أخذ. أخذ شيء لم يعطه.

وكان نوسم قد علمها ذلك.

ونزعت القفاز.

لم تقرر.

أو قررت، ولم تعرف متى. كانت يدها في القفاز، ثم كانت عارية. وكانت فوق الصندوق. وكان الورق الممزق تحتها، مئات القطع، بالحبر الأزرق، كأوراق شجرة في الخريف.

وفكرت، في اللحظة الأخيرة، في شيء لم تفكر فيه قبل: إنها لا تعرف ما ستدفعه. بحر الزجاج أخذ يومًا. والدفتر أخذ الشك. والحقيبة أخذت اللون. وهذا... هذا سنين. سنين من الليالي. من الاعتراف.

ولم تعرف ماذا بقي فيها ليؤخذ.

ووضعت يدها في الصندوق.

20. أبي

كان الاعتراف يبدأ من آخره.

لأن آخر ما مُزّق كان في أعلى الصندوق. وكان الأثر أحدث، وأقوى، وأقرب إلى السطح. فأول ما جاءها كان أمس. يد نوسم، في الليل، على الطاولة الكبيرة، تكتب. وكانت اليد لا ترتجف. ثم تمزق. ببطء. قطعة بعد قطعة. ثم تضعها في الملح.

توقف ارتفاع الطنين. لا أعرف لماذا. لم يرجع الرسول.

ثم الليلة التي قبلها.

لم يرجع الرسول.

ثم التي قبلها. والتي قبلها. وكان كل ليلة سطر، أو سطران، أو صفحة. ولم تكن كلها اعترافًا. كان بعضها حسابًا. وبعضها خوفًا. وبعضها اسمها.

لم تكتب وردة منذ ثلاثين يومًا. تيلم يقول إنها كذبت عليه.

لم تكتب وردة.

ذهبت وردة إلى الخلاء. الخلاء. مع هدران.

ونزلت في الطبقات.

وجدت ظميان بعد قليل.

كان في ليلة قبل القتل بعشرين يومًا. الليلة التي وصل فيها إلى إلسوم خبر من قلمير: أن الإمبراطورة كتبت إلى كبير القبائل تعرض الصلح. وكانت يد نوسم ترتجف تلك الليلة.

إن قبل الحياد صالحتهم سُرْدان. وإن صالحتهم سُرْدان، فلا حرب. وإن لم تكن حرب، بلغت الصوامع الدلتا قبل أن يموت جيلي. وتحت الدلتا الباب.

الحلقة صوّتت. خمسة واثنان. وتيلم مع الخمسة.

أنا الذي كتبتُ إليهم. أنا الذي أعطيتُ الأجر. لا أستطيع أن أقول إن الحلقة فعلت.

ثم ليلة أخرى، بعد القتل بأيام:

قالوا إن الأمر تمّ. أرسلتُ من يتأكد. أرسلت بعده وردة. لأن من يبصر البساط سيرى، ولأني أريد أن أعرف ما رأت قبل أن يعرفه غيري. هذا ما قلته لنفسي.

والحقيقة أني أردت أن يكون الذي يرى هو من أحب. حتى أصدقه.

وكانت هذه القطعة ممزقة إلى ثمانٍ. وكانت الحروف فيها أعمق من غيرها، كأن القلم ضغط.

وكانت تعرف هذا كله.

من الورقة الزرقاء. ومن الحساب. ومن ستمارا، التي قالت: من يخسر؟ ولم يكن في الطبقات شيء جديد عن ظميان. كان فيها ما تعرفه، بخط من رباها.

ولم تحس شيئًا.

وكانت تستطيع أن تخرج. أن ترفع يدها. كانت قد عرفت ما جاءت لتعرفه. لكن الطبقات كانت تحتها، عميقة، سنين. والأثر يجذب. وكانت تحس شيئًا في القاع. شيئًا قديمًا، ثقيلًا، كالحجر في قاع البئر. وكانت يد نوسم حين مزقته ترتجف أكثر من أي ليلة أخرى.

ونزلت.

عشر سنين. خمس عشرة. عشرون.

وكان الورق يتغير. صار أصفر، أرق. والخط صار أثبت، وأكبر، خط رجل في الخمسين. وكان كل ليلة سطر. وكان السطر نفسه، تقريبًا. مرة بعد مرة. مئات المرات.

لم أسأل.

لم أسأل.

لم أسأل.

ثم الليلة الأولى.

كانت الليلة بعد خمسة أيام من رجوع رجل من الخلاء.

الذي رجع كان رجلًا من سُرْدان، اسمه نوقار، على جمل، ومعه رجل آخر على جمل آخر. ولم يكن هدران معهما. كانا قد تركاه، أعمى لا يعرف اسمه، في خيام قافلة على حافة الخلاء، ولم يرجع إلى إلسوم إلا بعد عشر سنين. وكان الرجل الآخر دليلًا من الدلتا. من أهل إلسوم. وكان قد أخذ الأجر من نوسم قبل أربعين يومًا، ليدل البعثة على مكان في الخلاء له باب.

وجاء الدليل إلى البرج.

ورأته وردة. لا بعينيها. بعيني نوسم، في الأثر، كما يرى الحافظ ما كتبه. رجل في الثلاثين. طويل. أصلع الرأس قبل أوانه. ويدان خشنتان من حبال الجمال. وكان يتكلم بسرعة. وكان خائفًا. وكان يقول: رأينا. رأينا ما وراء الباب. ولمسه المبصر فنسي. ونحن لم نلمسه. لكننا رأينا. ويجب أن يُكتب.

وكان في يده حجر.

حجر ملح. صغير. أبيض. بحجم الجوزة. أخذه من الباب، قال. من العتبة. ليكون شاهدًا.

وكتب نوسم، تلك الليلة، بعد أن خرج الدليل:

قال إنه سيكتبه. قال إنه سيكتبه ويضعه في المكتبة، مفتوحًا، لكل من يقرأ. قال إن الناس يجب أن يعرفوا ما تحت الأرض.

وأخبرتُ الحلقة.

ثم، بعد ثلاث ليال:

جاء رجل من الخيط. لم أطلبه. قال إن الحلقة طلبته. وقال إن الدليل وزوجته قُتلا على طريق سُرْدان، هاربين، على يد قطاع طرق. وإن البنت نجت. وجاء بها رعاة إلى باب المكتبة.

ولم أسأل.

ولم أسأل لماذا جاءني هو بالخبر، لا الحرس.

ولم أسأل لماذا كان على معصمه خيط أسود.

ثم، بعد أيام:

أخذتُ البنت. ست سنين. لا تتكلم. وفي يدها حجر ملح، لا تفتحها عليه. قالوا إن أمها وضعته في يدها.

سأربيها. وسأعلمها الإبصار. لأنها بنت أبيها، وفيها أثره.

ولن أسأل.

رفعت وردة يدها من الصندوق.

لم ترفعها. سقطت. كما تسقط يد النائم. وكانت على الأرض، على ركبتيها، أمام الصندوق المفتوح، والورق الممزق الأزرق تحتها. ولم تكن تتنفس.

ثم تنفست.

وكانت الكلمات الثلاث ما تزال في يدها. لم أسأل. مئات المرات، بخط يكبر ويثبت، كمن يحفر الشيء نفسه في الحجر كل ليلة ليتأكد أنه هناك.

وفكرت في قيلة.

في امرأة واقفة عند باب خيمة، والقوس غير مشدود، والسهم بين أصابعها، تنادي مرتين ولا تدخل. ثم تسكت أربعين يومًا. وقالت لها قيلة في الصومعة، بصوت لم تسمعه منها قبل: سكتُّ. كأنها تعترف بقتل.

وهذا الرجل سكت عشرين سنة. ولم يقل لأحد. قاله للملح.

ولم تعرف وردة، وهي على ركبتيها، أيهما أثقل. الذي سكت لأنه لم يعرف ما رأى، أم الذي سكت لأنه عرف ولم يرد أن يسأل. ثم عرفت أن هذا ليس سؤالها. سؤالها كان أبسط، وأقسى: الرجل الذي علمها ألا تقرأ أثر حي بغير إذنه، كان يعرف أن في يدها، كل ليلة، أثر أمها. وتركها تمسكه عشرين سنة ولا تبصره.

ولم تعرف هل فعل ذلك رحمة بها، أم خوفًا مما في الحجر.

كان الحجر في كيس الجلد تحت ثوبها. مع الرسالة. ومع الدفتر الصغير.

وأخرجته.

حجر ملح. صغير. أبيض. بحجم الجوزة. وكان أملس من كثرة ما أمسكته. عشرين سنة. في يدها، في الليل، قبل النوم. لا تعرف لماذا. «لا تضيعيه.» هذا كل ما تعرفه. وامرأة لا تذكر وجهها.

وكانت تعرف، كما تعرف أن الملح يحفظ، أن ما فيه لم يُمح.

لأنها لم تبصره قط.

كانت تخاف. لم تعرف ذلك إلا الآن. كانت تخاف أن تبصره، فتجد فيه وجه أمها، ثم تدفع ثمنه. وأن يكون الثمن شيئًا لا تعرف أنها تحبه حتى يذهب.

ونظرت إلى الحجر في كفها اليمنى.

ثم أغلقت عليه أصابعها.

كانت امرأة.

لا. كانت يد امرأة. على يد صغيرة. تفتحها، بقوة، وتضع فيها شيئًا باردًا، ثم تغلقها. وكانت تقول: لا تضيعيه. لا تضيعيه يا وردة. هذا ما رآه أبوكِ. لا تضيعيه.

وكانت الليلة مظلمة. وكان هناك طريق. وحمار. ورجل على الأرض، لا يتحرك.

وكان هناك رجال.

ثلاثة. بثياب داكنة. ووجوه ملفوفة. ولم يكونوا يصرخون. لم يكونوا يتكلمون أصلًا. كانوا يمشون. كمن يعرف ما يفعل، ولا يحتاج أن يقوله.

وكان على معصم أحدهم خيط.

ورأت وردة الخيط. لأن المرأة رأته. لأن آخر ما رأته المرأة، قبل أن تلتفت إلى ابنتها للمرة الأخيرة، كان يدًا ترتفع، وعلى معصمها خيط أسود، رفيع، مشدود.

كالخيط عند عنق ظميان.

ثم التفتت المرأة.

ورأت وجه أمها.

كان وجهًا عاديًا. لم تتوقع ذلك. كانت قد تخيلته ألف مرة، في عشرين سنة، وكان في كل مرة جميلًا، حزينًا، كوجوه الأمهات في الحكايات. ولم يكن كذلك. كان وجه امرأة في الخامسة والعشرين، عريضًا، أسمر، بأنف كبير قليلًا، وعينين متباعدتين. وكان على خدها الأيسر أثر حبر أزرق. من الصباغة. كانت تعمل في الأحواض.

وعرفت وردة، وهي تنظر إلى الحبر على الخد، أنها لم تولد في سُرْدان. وُلدت في حي الصبّاغين، على بعد أزقة من الأحواض التي تشمها كل يوم، ثم هرب بها أبواها نحو أطراف سُرْدان بعد رجوع أبيها من الخلاء. وكان نوسم يعرف ذلك. وقال لها، يوم أرسلها: ولدتِ في أطرافها.

وكانت تبتسم.

في تلك اللحظة. والرجال وراءها. والخيط الأسود. وزوجها على الأرض. التفتت إلى ابنتها، وابتسمت. ابتسامة صغيرة، سريعة، كمن يقول: لا بأس. أنا هنا.

ثم لا شيء.

لم يكن الفراغ. كان آخر الأثر. لأن اليد الصغيرة أغلقت على الحجر، وركضت. ولم يكن في الحجر بعد ذلك إلا يد طفلة، ثم يد امرأة، عشرين سنة، كل ليلة، قبل النوم.

وتحت ذلك كله، تحت أثر أمها، أحست بشيء آخر. أقدم. باردًا كبرد العتبة التي أُخذ منها. ولم تستطع أن تبلغه. كان كصوت في بيت مجاور، يُعرف أنه صوت ولا تُفهم كلماته. وعشرون سنة من يدها فوقه، كالرمل فوق حجر.

بكت وردة.

وكانت تحس لماذا.

لم تكن قد بكت هكذا منذ... لم تعرف. كانت على الأرض، أمام الصندوق، والحجر في يدها، ووجه أمها في رأسها، واضحًا، كاملًا، كما لم يكن شيء في رأسها منذ الخلاء. وكانت تبكي، وكانت تحس كل شيء. البرد، والخوف، والحب، والغضب. كأن شيئًا انفتح في صدرها، بعد أن كان مغلقًا شهرين.

ثم انتهى البكاء.

وبحثت عن الثمن.

لم تجده أول الأمر.

مرت على الأشياء. اسمها. أمها، الآن، بوجهها. قيلة. هدران. الطريق. المدينة في الزجاج. البئر. الصومعة. أمنوثار. ستمارا. الحقيبة. البرج. الدرجات. مئتان وسبع عشرة. النبتة. الصندوق. الاعتراف.

كلها هنا.

ثم سمعت خطوات على الدرج.

تصعد. ببطء. بعصا. وكانت تعرف صوتها. عرفته قبل أن تفكر. الخطوة، والعصا، والخطوة. صوت سمعته كل ليلة منذ كانت في السادسة. ولم تقم. ولم تغلق الصندوق. ولم تلبس القفاز.

وانفتح الباب.

ووقف في الباب رجل.

شيخ. نحيل. بعصا. ولحية بيضاء.

ونظرت إليه وردة.

ونظرت إليه.

ولم تعرف وجهه.

كانت تعرف أنه نوسم. من الخطوات. ومن العصا. ومن الباب، والبرج، والليل. كانت تعرف ذلك كما يعرف المرء أن اثنين واثنين أربعة. ونظرت إلى الوجه، تبحث فيه عن شيء. عن العينين اللتين تذكر أنهما سوداوان. وكانتا رماديتين. ولم تعرف متى صارت تذكرهما سوداوين، ولا من أين جاءها هذا السواد. عن الابتسامة التي تذكر أنها تذكرها. وكان الوجه أمامها، في ضوء القنديل، واضحًا.

وكان وجهًا غريبًا.

ونظر نوسم إليها. إلى يدها العارية. إلى الصندوق المفتوح. إلى الحجر في كفها.

ولم يقل شيئًا مدة طويلة.

ثم قال، أخفض من صوت القنديل:

«يا ابنتي.»

وعرفت الصوت.

21. البحر

لم تكن قيلة قد رأت البحر قط.

رأته في صباح اليوم الحادي والستين، من فوق آخر تل على طريق قيظان، بعد خمسة أيام على الجمل من البئر. وكان هفير قد قال لها، حين ودعها عند البكرة: البحر كالخلاء، لكنه يتحرك. ولم تفهم ما قال حتى رأته.

كان كالخلاء. واسعًا، بلا حد، والأفق فيه خط واحد مستقيم. لكنه كان أزرق. وكان يتحرك. كله. كأن الخلاء كله يتنفس.

وكان صوته يصل إليها من بعيد، منخفضًا، ثابتًا، لا يتوقف.

وفكرت، دون أن تريد: كالطنين.

ثم فكرت: لا. الطنين يأخذ. وهذا لا يأخذ شيئًا.

ولم تكن متأكدة.

كانت في قيظان سفن كثيرة. سفن القوافل الكبيرة، البطيئة، التي تحمل الملح والتمر إلى الجزر وترجع بالخشب والسمك. وكان رجال رابطة القوافل في الميناء، بأثوابهم المخططة، يسجلون كل حمل وكل راكب في دفاتر طويلة.

ولم تركب قيلة سفنهم.

كان معها اسم. أعطاه لها فاقد، في الليلة الأخيرة عند نار خيامه، وقال: إن أردتِ أن تصلي إلى الدلتا دون أن يُكتب اسمكِ في دفتر، فاسألي عن ليرا من أوسين. لا تقولي إني أرسلتكِ. قولي: ابنة نوقار.

ولم يقل لماذا.

وجدتها في آخر الميناء، حيث لا ترسو سفن الرابطة. كانت السفينة صغيرة، نحيلة، سوداء، بشراعين مثلثين، وعلى مقدمها رأس طائر منحوت. وكانت امرأة على سطحها، تشد حبلًا، وحولها أربعة رجال.

كانت في الأربعين. قصيرة، عريضة الكتفين، بشعر أسود قصير، ووجه أسمر من الشمس والملح. وكانت في أذنها اليسرى حلقة من فضة. ونظرت إلى قيلة، على الرصيف، بعباءتها الرمادية وحبلها الأخضر وقوسها.

«فارسة البئر،» قالت. بلسان الميثاق، بلهجة ناعمة، تكثر فيها اللام. «في الميناء. هذا لا يحدث.»

«ابنة نوقار.»

ووقفت يد المرأة على الحبل.

ونظرت إلى قيلة مدة طويلة. لا إلى العباءة، ولا إلى الحبل. إلى وجهها. كمن يبحث فيه عن وجه آخر.

ثم قالت: «إلى أين؟»

«إلى الدلتا. إلى إلسوم.»

«متى؟»

«الآن.»

وشدت ليرا الحبل، وربطته، ثم قالت لرجالها شيئًا بالألمينية، لغة كالماء. وقام الرجال.

«اصعدي،» قالت. «ولا تسأليني لماذا.»

«لم أسأل.»

«ستسألين. الجميع يسألون.» وابتسمت، ابتسامة قصيرة. «وفي اليوم الثالث، أنا أقول لكِ: لا تسألي. فتسكتين. هكذا يكون أسرع.»

لم تسأل قيلة.

لا في اليوم الأول، حين كانت تتقيأ على حافة السفينة، وليرا تقف وراءها، ولا تضحك. ولا في اليوم الثاني، حين نامت أخيرًا، على الأكياس في بطن السفينة، ورأت في النوم بئرًا مملوءة ماء حتى حافتها، وفي الماء وجه أمها. ولا في اليوم الثالث.

لكنها كانت تنظر.

كانت تنظر إلى ليرا وهي تقرأ النجوم في الليل، بأداة صغيرة من نحاس. وإلى الرجال الأربعة، وهم لا يتكلمون إلا حين تكلمهم. وإلى الحمل. أكياس من القمح القلميري، عليها ختم العين والقطرة. وتحتها، في قاع السفينة، صناديق طويلة، مسمرة، لا ختم عليها.

ورأت ليرا تراها تنظر إلى الصناديق.

«سيوف،» قالت ليرا. «للحفظة.»

ونظرت إليها قيلة.

«لا يقاتلون،» قالت ليرا. «أعرف. يقولون: أحفظ ولا أحكم، وأشهد ولا أقاتل.» وأشارت برأسها إلى الصناديق. «لكنهم يشترون. كل سنة. منذ عشرين

سنة. ومن قلمير، القمح. ومن طومريك، الحديد. ومن الحفظة، الذهب. ومن الأوفياء، الأسماء.»

«الأسماء؟»

«من يمر بأي بئر، ومتى.» وابتسمت ليرا. «كل شيء يُباع يا ابنة نوقار. هذا ما تعرفه ألمين. والذين يقولون إنهم لا يبيعون، يشترون.»

في الليلة الرابعة، رأت قيلة الحيتان.

كانت السفينة تمر بين جزيرتين صغيرتين، صخريتين، بلا شجر. وكانت ليرا قد أطفأت القناديل كلها، وأمرت رجالها ألا يتكلموا. وكان البحر ساكنًا. ساكنًا كما لم يكن في الأيام الثلاثة. والقمر فوقه.

ثم انشق الماء.

لم يكن صوت. كان ظهر. أسود، لامع، طويل. أطول من السفينة ثلاث مرات. يرتفع من الماء ببطء، كما يرتفع الكثيب في الريح، ويمر إلى جانب السفينة، على بعد رمية حجر. وكانت قيلة ترى عليه خطوطًا. بيضاء. كالكتابة.

ثم غاص.

ولم يكن هناك صوت. لا صوت ماء، ولا صوت نَفَس. كأن البحر نفسه سكت.

ثم ظهر آخر. وآخر.

«حيتان السكت،» همست ليرا في أذنها. «لا تصدر صوتًا. أبدًا. ولا يعرف أحد لماذا.» وسكتت. «يقول أهلنا إنها تسمع. وإنها حين تسمع شيئًا لا تحبه، تقلب السفينة.»

«وماذا لا تحب؟»

ولم تجب ليرا مدة.

ثم قالت: «البلّور.»

ونظرت إليها قيلة.

«منذ ثلاث سنين،» قالت ليرا. «منذ بدأت الصوامع. تقلب كل سفينة تحمل بلّورًا من قلمير. كل سفينة. سبع سفن. ولم تقلب سفينة قبل ذلك في مئة سنة.»

وعند الفجر، مروا بالمنارة.

كانت على صخرة وحدها، في البحر، بعيدة عن كل جزيرة. برجًا من حجر أبيض، عاليًا، مائلًا قليلًا، كأنه يتعب من الوقوف. ولم يكن في رأسه ضوء.

«المنارة الصامتة،» قالت ليرا. «انطفأت ليلة حرب الجزر. قبل مئة وخمسين سنة. ولا يدخلها أحد.»

ورأت قيلة، في أسفل المنارة، عند الماء، قاربًا صغيرًا. وفيه شخص.

وأمرت ليرا رجالها بشيء. ومالت السفينة إلى المنارة.

صعد إلى السفينة شخص واحد.

امرأة. في ثوب رمادي، طويل، بلا زينة. ورأسها مغطى بمنديل رمادي، كمنديل وردة. ولم يكن معها شيء. لا كيس، ولا صندوق. ولم تنظر إلى أحد. مشت إلى مقدمة السفينة، وجلست هناك، تنظر إلى الماء.

ونظرت قيلة إلى ليرا.

«راكبة،» قالت ليرا.

«من؟»

«راكبة.» ونظرت ليرا إليها. «لا تسألي.»

وكان اليوم الخامس، لا الثالث. وسكتت قيلة.

لم تتكلم المرأة الرمادية يومًا كاملًا.

كانت جالسة في المقدمة. لا تأكل، ولا تشرب، ولا تنام. أو كانت تنام، وعيناها مفتوحتان. وكان رجال ليرا لا يقتربون منها. يمرون بعيدًا، ولا ينظرون إليها، كما يمر المرء بقبر.

وفي الليل، ذهبت قيلة إليها.

لم تعرف لماذا. ربما لأنها كانت تحرس. لأن هناك شيئًا على السفينة لا تعرفه. أو لأن المنديل الرمادي ذكّرها بوردة.

ووقفت إلى جانبها.

ولم تلتفت المرأة.

«تحرسين بئرًا لم يبق فيها ماء،» قالت.

ولم يكن سؤالًا.

ونظرت إليها قيلة. ورأت وجهها، في ضوء القمر. لم يكن شابًا ولا عجوزًا. لم يكن فيه شيء تتذكره. كان وجهًا، وحين تنظر إليه تعرف أنها لن تتذكره غدًا.

«فيها ماء،» قالت قيلة. «نزل ثلاثة أذرع. لكن فيها ماء.»

«ثلاثة أذرع.» وابتسمت المرأة. «في سنتين. والبئر عمرها...» ولم تكمل. «تعرفين كم عمرها يا ابنة نوقار؟»

«أكثر من ألف سنة.»

«أكثر.» ونظرت المرأة إلى الماء. «وكان فيها ماء قبل الميثاق. وقبل الأمناء. وقبل أن يكتب أحد عليها شيئًا. وسيبقى فيها ماء بعد أن يُنسى كل ما كُتب عليها.» وسكتت. «أو لا يبقى.»

«من أنتِ؟»

ولم تجب المرأة.

ثم مدت يدها اليمنى، مفتوحة، إلى ضوء القمر. ورأت قيلة في باطنها، في وسط الكف، علامة. لم تكن وشمًا، ولا ندبة. كانت كأنها محفورة في الجلد، من الداخل. دائرة. وفيها خطوط. سبعة. تلتقي في الوسط.

ثم أغلقت المرأة يدها.

«قولي للمبصرة،» قالت، «إن الموضع الأملس في كفها ليس ثمنًا.»

ونظرت إليها قيلة.

«كيف تعرفين؟»

لكن المرأة كانت قد التفتت إلى الماء. ولم تتكلم بعد ذلك.

في الصباح لم تكن على السفينة.

لم يرها أحد تنزل. لم يكن هناك قارب. ولم تكن السفينة قد اقتربت من أرض. كانت الدلتا أمامهم، خطًا أخضر منخفضًا في الأفق، وأبراج السوم فيه كالإبر. والمقدمة فارغة.

ونظرت قيلة إلى ليرا.

ولم تنظر ليرا إليها. كانت تنظر إلى المقدمة الفارغة. وكان في وجهها شيء رأته قيلة في وجه الرجال الأربعة، حين يمرون بالمرأة. لا خوف. شيء أقدم من الخوف.

«أتعرفينها؟» قالت قيلة.

«لا.» وشدت ليرا حبلًا. «أمي عرفتها.»

ونظرت إليها قيلة.

«حملتها أمي مرة،» قالت ليرا. «من المنارة إلى الدلتا. قبل ثلاثين سنة. وجدتي حملتها مرة. قبل ستين سنة. من المنارة إلى الدلتا.» ونظرت إلى قيلة. «بالوجه نفسه، كما قالتا. ولا يتذكره أحد.»

ولم تقل قيلة شيئًا.

«ولهذا لا أسأل،» قالت ليرا. «ولا أنتِ.»

وصلوا إلى قنوات الدلتا في الضحى.

وكانت المياه هنا بنية، بطيئة، تجري بين جزر صغيرة من القصب والطين، وعلى الجزر بيوت من خشب على أعمدة. وكانت ليرا تقود السفينة بين القنوات بلا تردد، كما يمشي المرء في بيته في الظلمة. ثم أرست عند رصيف صغير، خشبي، في حي على طرف المدينة. وكانت الرائحة هنا حادة، حامضة، فيها شيء من البحر وشيء من الحديد.

حي الصبّاغين.

ونزلت قيلة إلى الرصيف.

ثم التفتت. وكانت ليرا على السطح، تنظر إليها.

«لماذا؟» قالت قيلة.

وكان اليوم الثامن.

ونظرت إليها ليرا مدة. ثم أدخلت يدها في ثوبها، وأخرجت شيئًا، ورمته إليها. وأمسكته قيلة.

كان سهمًا. قديمًا. مكسور الريش. وعلى خشبه، قرب النصل، علامة محفورة بالسكين. علامة بني قيظ.

ونظرت قيلة إليه. ثم إلى ليرا.

«هذا السهم الذي قتل نوقار،» قالت ليرا. «في حرب البئر الرابعة. أخرجوه من صدره، وأعطوه لأمي.»

«لماذا لأمكِ؟»

ولم تجب ليرا.

وأمرت رجالها بشيء بالألمينية، وابتعدت السفينة عن الرصيف. ووقفت ليرا على السطح، والشمس وراءها، تنظر إلى قيلة، حتى انعطفت السفينة في قناة أخرى.

22. قبو الملح

لم تعرف وردة وجه نوسم، فعرّفته قيلة به.

كان ذلك في البهو، في عصر اليوم التاسع والستين، حين دخلت قيلة من الباب الكبير بعباءتها الرمادية المالحة من البحر، والسهم القديم في حزامها إلى جانب السيف. ورأت وردة واقفة عند عمود، ويدها اليسرى ملفوفة، وهدران إلى جانبها. ورأت وردة تراها، وتعرفها في الحال، وتمشي إليها بسرعة، ثم تقف قبل أن تصل. كأنها خافت أن تكون قد نسيت شيئًا آخر.

«قيلة.»

«وردة.»

«أعرفكِ.» وكان صوتها يرتجف. «أعرفكِ. كتبتُ اسمكِ ثلاث مرات في الطريق، وأعرفكِ.»

ثم نزل شيخ من الدرج الكبير، بعصا، ووقف ينظر إليهما. ونظرت إليه قيلة. ثم إلى وردة. ورأت المبصرة تنظر إليه كما ينظر المرء إلى غريب في السوق.

«من هذا؟» قالت قيلة، بصوت خفيض.

«نوسم،» قالت وردة. «أعرف أنه نوسم.» وسكتت. «لا أعرف وجهه.»

قالت لها وردة كل شيء في غرفتها، في ساعة.

الصندوق. والاعتراف. وخمسة واثنين. والدليل، وحجر الملح، والرجال الثلاثة. والخيط الأسود. ووجه أمها، والحبر على خدها. والثمن.

وقالت لها قيلة: الحيتان، والمنارة، والمرأة الرمادية. والدائرة في كفها. وما قالته.

ونظرت وردة إلى الموضع الأملس في كفها اليسرى، طويلًا.

«ليس ثمنًا،» قالت.

«هذا ما قالت.»

«فما هو؟»

ولم تعرف قيلة.

جاء نوسم إليهم بعد المغرب.

لم يرسل أحدًا. صعد بنفسه إلى الجناح الشرقي، بعصاه، ببطء، ووقف في باب الغرفة الصغيرة. ونظر إلى الثلاثة: قيلة على الكرسي، ووردة على السرير، وهدران عند النافذة.

«يا بنت نوقار،» قال. «جئتِ بالبحر.»

«جئتُ بالبحر.»

«لأن من ينتظر يقف على البر.» وابتسم. «أبوكِ كان يفعل ذلك. لا يأتي من الطريق الذي يُنتظر منه.» ثم نظر إلى وردة، ورأت قيلة شيئًا يمر في وجهه. «وأنتِ لا تعرفين وجهي يا ابنتي.»

ولم تجب وردة.

«عرفتُ ذلك أمس، حين نظرتِ إليّ. ثمن الملح. أعرف.»

ثم قال: «تعالوا معي. الثلاثة. أريكم ما لم أره لأحد من غير الحلقة.» ونظر إلى قيلة. «وبعدها اسأليني ما شئتِ. وأجيبكِ. كله. لا نصفه.»

نزلوا.

وعدّت قيلة الدرجات كما تعد الآبار، وفقدت العد بعد المئة. ممرات طويلة، وقناديل زيت صغيرة كل عشر خطوات، ثم درج آخر، ثم آخر. وكان الهواء يجف، ويبرد، ويصير مالحاً على الشفتين. وكان الحارس العجوز عند الباب الكبير نائمًا على كرسيه. ولم يوقظه نوسم.

ودخلوا قبو الملح.

ورأت قيلة النسخة الأم.

كانت في وسط القبو، في صندوق من زجاج، على قاعدة من ملح. رق قديم، بني، مطوي على نفسه نصف طية. وكانت على أطرافه بقع. داكنة. كالصدأ.

ووقفت قيلة أمامها. لم تستطع ألا تقف.

كانت قد أقسمت عليه. على هذا. في بئر العهود، أمام الحجر المنقوش، وهي في السادسة عشرة. أقسمت على نسخة منقوشة في حجر، من نسخة منسوخة على رق، من هذا. وكان هنا. بين يديها. والبقع على أطرافه.

«دم برهد،» قال نوسم، إلى جانبها. «الأمين الرابع. قُتل وهي بين يديه. هنا في المكتبة. قبل ألف وخمسين سنة.» وسكت. «ولم يغسلها أحد. الحافظ لا يمحو.»

ثم مشى نوسم إلى الجدار الشمالي.

إلى الباب الحديدي الصغير، الأسود، بقفله الذي لا ثقب فيه.

وكان الطنين هنا.

سمعته قيلة قبل أن تصل إلى الباب. منخفضًا، ثابتًا. كطنين الصومعة. لا. أخفض. وأقدم. كأن الصومعة كانت تحاول أن تقلده.

ووضع نوسم كفه العارية على القفل.

ولم يحدث شيء مدة. ثم سمعت قيلة صوتًا، داخل الحديد، كصوت حجر يتحرك على حجر. وانفتح الباب.

«لا مفتاح له،» قال نوسم. «يقرأ الأثر. يعرف من أقسم القسم الداخلي.» ونظر إلى وردة. «وأنتِ لم تقسميه بعد.»

كان وراء الباب درج. ضيق، حجري، ينزل. ولم يكن مسدودًا بالحجارة، كما يقول الحارس.

ونزلوا. نوسم بقنديل في يده، ووردة وراءه، وهدران، وقيلة في الآخر.

وكانت الجدران هنا ليست ملحًا. كانت صخرًا. أسود. أملس. وعليها نقش. كتابة لا تعرفها قيلة، في سطور طويلة، تنزل مع الدرج. وكانت وردة تمشي ويدها اليمنى في القفاز، بعيدة عن الجدار، كمن يمشي إلى جانب نار.

«لسان الطوق،» قال نوسم. «قبل ألفي سنة. قبل الميثاق، وقبل القبائل. حين كان هنا مجمع، لا مكتبة. حين كان أهل هذه الجزيرة يظنون أنهم يستطيعون أن يسخّروا كل شيء.» ولم يلتفت. «ونحن بنينا المكتبة فوقه. لا لنحفظ الكتب. لنحفظ هذا.»

ثم انتهى الدرج عند قاعة.

لم تكن قاعة. كانت شرفة. حجرية، ضيقة، عليها حاجز من حديد مشبك. ووراء الحاجز، في الأسفل، بعيدًا، فراغ واسع. كالبئر. لكن أوسع من أي بئر. أوسع من صومعة الحافة. وكان مظلمًا، إلا في وسطه.

في وسطه، في القاع، على الأرض، كان ضوء.

لم يكن ضوءًا. كان نقشًا. في الصخر نفسه. دائرة عظيمة، بعرض الساحة أمام بيت الملوك الآلهة. وفيها خطوط. سبعة. تلتقي في الوسط. وكانت الخطوط تتوهج. توهجًا أزرق باهتًا، كالحبر في الماء.

ونظرت قيلة إليها.

ثم نظرت إلى وردة.

وكانت وردة تنظر إلى الدائرة، ثم إلى كفها اليمنى، المغطاة. ثم إلى قيلة.

ولم تقل أي منهما شيئًا.

«الختم السابع،» قال نوسم. «ختم السجن. لا يُنقل. لأنه منقوش في صخر الجزيرة. ولأنه منقوش، بقي حين انفرطت الأختام الستة في ليلة الانفراط.» ونظر إلى الدائرة المتوهجة. «وتحته شيء.»

«الشغادر؟» قالت قيلة.

«لا.» وكان صوته خفيضًا. «الشغادر مخلوقات. كبيرة، قديمة، لكنها مخلوقات، لها نوم ويقظة. هذا ليس منها. هذا كان من الذين أقسموا. من الديازن. من أتباع المقسم الكبار. والطوق سجنه هنا، بالختم، قبل أن ينفرط. وله اسم. لا أقوله هنا.»

ونظر إلى وردة. «تعرفين لماذا.»

«لأن الذي قاله ما زال يسمع،» قالت وردة. كلمات هدران في الخلاء. ورأت قيلة هدران يحرك رأسه قليلًا.

«الطنين،» قال نوسم، «هو صوت الختم وهو يمسك. وحين يرتفع، فلأنه يشتد عليه. وحين يُستنطق ما حوله، الأرض والماء والصخر، يضعف الختم. لأنه يأخذ قوته من الأرض نفسها.» ونظر إلى قيلة. «صومعة واحدة في الدلتا تكفي. لا أقول ربما. أقول تكفي. هذا ما في دفاتر الأعمدة، وهذا ما في كتب الطوق. وقلمير تخطط لصومعة في الدلتا. في السنة القادمة.»

ثم التفت إليهم.

ووضع القنديل على الحاجز. وكان وجهه في ضوئه، من تحت، غريبًا. كوجه التماثيل التي كُشطت.

«اسأليني يا بنت نوقار.»

ونظرت إليه قيلة.

«أنت دفعت الأجر.»

«أنا دفعت الأجر.»

«للخيط الأسود.»

«للخيط الأسود.»

«لماذا؟»

«لأن ظميان كان سيعلن الحياد.» ولم يتغير صوته. «وإن أعلن الحياد، صالحت سُرْدان قلمير. وإن صالحتها، فلا حرب. وإن لم تكن حرب، فقلمير قوية، والصوامع تُبنى، وتبلغ الدلتا. وإن بلغت الدلتا...» وأشار إلى الدائرة تحتهم. «هذا.»

«وكان سيطلب منها أن توقف الصوامع.»

ولم يجب نوسم مدة.

«عرفتُ ذلك من الورقة الزرقاء،» قال أخيرًا. «التي قرأتها وردة. والتي لم ترسلها إليّ.» ونظر إلى وردة. «رأيتُ الحقيبة في غرفتكِ يا ابنتي. ولم ألمسها.» ثم إلى قيلة. «نعم. كان سيطلب ذلك. ولم أعرف. وقتلتُ الرجل الوحيد الذي كان قادرًا أن يوقفها بلا حرب.»

ولم يقل أحد شيئًا.

«وكيف عرفتَ بعرض ستمارا؟» قالت قيلة. «قبل أن يعرفه أحد؟»

ونظر إليها نوسم. ثم أدخل يده في ثوبه، وأخرج شيئًا. ولم يفتح يده.

«بالختم الرابع،» قال. «ختم العلم. عندنا. يوسوس بما يعرفه الناس من أسرار. وثمنه...» وسكت. «تعرفين ما ثمنه يا وردة؟»

«الرحمة،» قالت وردة، ولم ترفع عينيها.

«الرحمة.» ونظر نوسم إلى يده المغلقة. «استعملتُه ثلاث مرات في حياتي. الأولى قبل عشرين سنة. والثالثة قبل ثلاثة أشهر.» وأعاده إلى ثوبه. «وفي المرة الأولى، بعدها بثلاث ليال، جاءني رجل بخيط أسود. ولم أسأله.»

ونظرت إليه وردة.

ولم تعرف وجهه. لكنها عرفت الصوت، وعرفت أنه يقول الحقيقة، ولم يكن هذا هو الذي يهم.

«أنا سألتُ،» قالت.

ونظر إليها نوسم.

«أنت لم تسأل،» قالت وردة. «عشرين سنة. كتبتها كل ليلة: لم أسأل. وأنا سألتُ. وضعت يدي في صندوقك، بلا إذنك. ونقضتُ قاعدتي. القاعدة التي علمتني إياها.» ونظرت إلى كفها اليمنى. «وعرفت وجه أمي. ونسيت وجهك.»

ولم يقل نوسم شيئًا.

«لا أعرف إن كنتُ أكرهك،» قالت وردة. «لا أعرف وجهك لأعرف.»

ولم يطلب نوسم شيئًا. لم يقل: اغفري. ولم يقل: كنتُ أحبكِ. أنزل عينيه إلى القنديل على الحاجز، كمن ينتظر حكمًا يعرفه.

وتكلم هدران.

لم يكن قد قال شيئًا منذ نزلوا. كان واقفًا عند الجدار، ووجهه المائل إلى الفراغ، ويده على الصخر الأسود، ولا يخاف أن يلمسه، لأنه لا يبصر شيئًا.

«عشر سنين،» قال، «أعطيتني غرفة وطعامًا، ولم تسألني أين كنت.» وأدار وجهه نحو صوت نوسم. «كنت أظنها رحمة. وكانت لأنك تعرف أين كنت. أنت الذي دفعت للدليل ليدلنا على الباب.»

«نعم.»

«وتعرف ما الذي أخذ عيني.»

«لا،» قال نوسم. «هذا وحده لا أعرفه. ولهذا لم أسألك. خفتُ أن تتذكر.»

وضحك هدران. ضحكة قصيرة، بلا صوت تقريبًا، كضحكة رجل في الخلاء يسمع أن البحر قريب.

«لن أتذكر،» قال. «الخلاء لا يعيد ما يأخذ. كان يجب أن تسألني.»

ثم التفت نوسم إلى قيلة.

«والآن اسمعيني، لأن هذا ما جئتِ له.» وكان صوته هادئًا، صوت معلم، كصوت أمنوثار. «بعد عشرين يومًا يجتمع مجلس القبائل في بئر العهود. خردش دعا إليه. ليعلن الحرب على قلمير باسم الميثاق. فاقد سيأتي. وقلمير سترسل من يسمع. وأنتِ قائدة الفرسان. ولكِ أن تتكلمي.»

«أعرف.»

«فإن تكلمتِ بالحق. كله. الرسالة، والرق الكبير، والورقة الزرقاء. والسوم. وأنا. تقف الحرب. يصدقكِ خردش أو لا يصدقكِ، لكن القبائل تصدق. ويُعلن الحياد. ويُصالح الطرفان. وتتوقف الصوامع عند الثلاث، كما أرادت ستمارا. ولا تُبنى الرابعة.»

«وهذا حسن.»

«حسن.» وأومأ. «وبعد خمس سنين، أو عشر، تموت ستمارا. ويأتي بعدها من يقول: الصوامع الثلاث أطعمت الوادي، فلماذا لا نبني في الدلتا؟ وليس هناك حرب تُضعفه. وليس هناك من يمنعه.» وأشار إلى الدائرة. «وإن سكتِّ، أو قلتِ نصف الحق، تقع الحرب. ويموت ناس. كثيرون. من الأوفياء وأهل الوحدة. وتضعف قلمير جيلًا. ويبقى هذا مختومًا.»

ونظر إليها في ضوء القنديل.

«الحق، أم الأرض؟»

لم تجب قيلة.

نظرت إلى الدائرة المتوهجة تحتها. إلى الخطوط السبعة. وفكرت في الكف المفتوحة في ضوء القمر. وفي امرأة لا يُتذكر وجهها، تقول: البئر أقدم من الميثاق.

ثم قالت: «الرابعة.»

ونظر إليها نوسم.

«قلتَ: الطنين ارتفع، ثم توقف ارتفاعه. يوم أوقفت ستمارا الرابعة. ولماذا أوقفتها؟ لأن مبصرة ذهبت إليها، وقالت لها ما رأت. وأخذت من يدها ثمنه. ولأن أمنوثار كتب: رأيتُ. الحق أوقف الرابعة يا رأس الحفظة. لا الحرب. ولا الأجر.»

«الرابعة. لا الثلاث.»

«ولا الثلاث بعد.» وسكتت قيلة. «لكن أحدًا لم يقل لها الحق قبل ذلك. كنتم تخافون الصوامع منذ ثلاث سنين، وعندكم دفاتر الأعمدة. ولم يذهب أحد منكم إلى قلمير ليقول: هذا ما تحت إلسوم. ذهبتم إلى الخيط الأسود. وتشترون السيوف كل سنة، في صناديق لا ختم عليها، على سفن لا يُكتب اسمها في دفتر. رأيتها في بطن سفينة من ألمين. أحفظ ولا أحكم، وأشهد ولا أقاتل. ومن يحمل تلك السيوف؟»

ولم ينكر نوسم.

ولم يجب نوسم.

«لماذا؟»

ولم يجب مدة طويلة.

ثم قال: «لأن جدي رأى مكتبة تحترق، لأن حافظًا فتح الباب لقلمير. ولأن من يقول لقلمير ما تحت إلسوم، يقول لها أين الباب.»

صعدوا.

ولم يتكلم أحد على الدرج. ولا في قبو الملح، حين مروا بالنسخة الأم ودم برهد على أطرافها. ولا في الممرات.

وعند الباب الكبير للقبو، كان الحارس العجوز قد استيقظ. وكان معه رجل آخر. نحيل، بعينين ضيقتين، وثوب أبيض، ودفتر تحت ذراعه.

تيلم.

ونظر إليهم تيلم. إلى نوسم. وإلى الثلاثة وراءه. ثم إلى الباب الحديدي الصغير في آخر القبو، الذي كان قد انغلق.

«رأس المجلس،» قال. «الحلقة تنتظرك. منذ ساعة.»

«أعرف.»

ونظر تيلم إلى قيلة. ثم إلى وردة. وكانت يده اليمنى على الدفتر، وظفر إبهامه المكسور يحك طرفه.

«أريتهم،» قال. ولم يكن سؤالًا.

«أريتهم.»

ولم يقل تيلم شيئًا. ومشى أمامهم إلى الدرج.

ورأت قيلة يده، وهو يمشي. وكانت ترتجف.

23. بئر العهود

جاءت القبائل كلها إلى البئر، كما جاءت ليلة القتل.

رأتها قيلة من الكثيب الشمالي، في ضحى اليوم التاسع والثمانين، حين رجعت. الخيام على السهل، مئات منها، بألوان القبائل. والجمال. والدخان. والناس عند البئر، حول الحوض، يشربون ويملؤون. وكان كل شيء كما كان قبل تسعة وثمانين يومًا.

إلا الحبال.

كانت على المعاصم في كل مكان. حمر، وبيض. وكان الحمر في الشمال، حول الخيمة السوداء القصيرة، والبيض في الجنوب، حول خيام أخيها. وبينهما، في الوسط، عند البئر، أرض فارغة. عرضها رمية سهم. لم يقف فيها أحد.

وفي الأرض الفارغة، الحمى. والحجر المنقوش. والفرسان.

مئة وأربعون، بحبال خضر. واقفين في دائرة حول البئر. ظهورهم إلى الحجر، ووجوههم إلى الخيام.

نزلت الكثيب، ووراءها رجلان.

نوسم، على بغل، بعصاه، وثوبه الأبيض. وقد جاء معها من إلسوم، ثلاثة عشر يومًا، في سفينة للحفظة ثم على الجمال. ولم يتكلم في الطريق إلا قليلًا. وكان كل ليلة

يجلس وحده، ويكتب في دفتر صغير. ولا يمزق شيئًا.

وهدران.

ولم تأت وردة.

كانت قد قالت لقيلة، في الصباح الأخير في إلسوم، عند الباب الكبير: أبقى. ونظرت قيلة إليها. وقالت وردة: الحلقة ستة بغيره. وتيلم منهم. والختم الرابع في القبو. ومن يحرس ذلك إن ذهب رأس المجلس وذهبت قائدة الفرسان؟ ثم ابتسمت، وكانت ابتسامتها هذه المرة تصل إلى عينيها قليلًا، وقالت: أنتِ علمتِني.

وأعطتها الرق الكبير.

كان هفير عند الحجر.

ونظر إليها، ثم إلى الشيخ على البغل، ثم إليها.

«من هذا؟»

«رأس الحفظة.»

ولم يقل هفير شيئًا. لكن قيلة رأت يده تنزل إلى سيفه، ثم تقف.

«المجلس بعد الظهر،» قال. «خردش يتكلم أولًا. هو الذي دعا. وجاء من قلمير رجل. قصير، أحمر الوجه. يقول إنه ضابط من الحافة، وإن الإمبراطورة أرسلته يسمع. وهو في خيام أخيكِ.» ونظر إلى نوسم مرة أخرى. «وكل الناس يعرفون أنكِ ذهبتِ إلى إلسوم.»

«وماذا يقولون؟»

«يقولون إنكِ ستتكلمين.» ونظر هفير إليها. «وإن قائدة الفرسان لا تتكلم في المجلس منذ ثلاثمئة سنة. وإنكِ إن تكلمتِ، فلم يعد للفرسان فوق.»

لم يكن المجلس في خيمة.

كان عند البئر. في الأرض الفارغة. لأن الخيمة الكبيرة الحمراء ذات الأعمدة السود قد طُويت يوم الدفن، ولم يُنصب غيرها. وجلس الشيوخ على الأرض، في نصف دائرة، والبئر وراءهم. الأوفياء على اليمين، وأهل الوحدة على اليسار. وقيلة واقفة عند الحجر المنقوش، والفرسان حولها.

وقام خردش.

وكان أنحف مما رأته قبل ستة وثلاثين يومًا. والحبل الأحمر على معصمه. ووقف في وسط الأرض الفارغة، ونظر إلى القبائل.

وتكلم.

تكلم عن أبيه. وعن الليلة. وعن الأربعين، والمجلس الذي لم يحكم. وعن البند الثاني من الميثاق: فقد حمل المجلس الدم. وعن القافلة، والشعب الشمالي، والقناة السابعة. وعن الصوامع. وعن الماء الذي يُشرب من تحت الأرض فتجف الآبار. وكان صوته صوت أبيه، عميقًا، هادئًا، لا يرتفع.

وقال في آخره: «وأنا أطلب من هذا المجلس أن يعلن ما كان ينبغي أن يعلنه أبي. أن سُرْدان لا تقبل حكم قلمير. وأن الميثاق يأمر بقتال من يأخذ الماء من العطاش.» ونظر إلى اليسار، إلى خيام فاقد. «ومن يشرب من قنواتهم.»

ولم يتكلم أحد.

ثم التفت خردش إلى قيلة.

«وقائدة الفرسان لا تتكلم في المجلس،» قال. «هذا العرف.»

ونظرت إليه قيلة.

وفكرت في الرق الكبير في صدرها. وفي فاقد، عند النار: إن قلتِها عنه، أخذتِ منه ثمنه. وفي نوسم، في الضوء الأزرق تحت المكتبة: الحق، أم الأرض؟ وفي امرأة في ثوب رمادي، تقول: البئر أقدم من الميثاق.

ومشت إلى وسط الأرض الفارغة.

ووقفت أمام خردش.

«العرف،» قالت، «أن قائدة الفرسان لا تتكلم في المجلس.» ورفعت صوتها، ليسمع الشيوخ. «لأنها فوق الطرفين. وأنا لم أعد فوق الطرفين. قلتَ لي ذلك في خيمتك، يا ابن ظميان، وكنتَ صادقًا. كنتُ عند باب أبيك، ووقفت.»

ونزعت الحبل الأخضر عن معصمها.

وسمعت الفرسان وراءها يتحركون. وسمعت هفير يقول شيئًا، بصوت خفيض. ولم تلتفت.

ووضعت الحبل على الحجر المنقوش.

«والآن أتكلم،» قالت. «لا قائدة. شاهدة. والميثاق يأذن للشاهد.»

وتكلمت.

قالت ما رأت ليلة القتل. والرجل ذا الأصابع الزرقاء. والسكوت. وقالت إنه لم يقتله. وإنه دخل بعد أن مات. وقالت الصومعة، والنار البيضاء، والحقيبة. وقالت ستمارا، ورسالتها. وقالت نصفي رسالة ظميان، وقرأتهما، كلمة كلمة، من ذاكرتها، لأنهما كانا عند خردش.

وكانت القبائل تسمع.

وكانت ترى وجوههم. الأوفياء على اليمين، وأهل الوحدة على اليسار. والضابط القصير الأحمر الوجه، بين رجال أخيها، والخاتم في إصبعه. وفاقد، بذراعه المربوطة. وكانت ترى الوجوه تتغير حين قالت: الحياد. وحين قالت: ابن نوقار، فاقد.

ثم قالت: «ومن أمر الرسول أن يتأكد أنه تمّ، هو هنا.»

ونظرت إلى نوسم.

قام نوسم.

ببطء. بعصاه. ومشى إلى الأرض الفارغة. ووقف إلى جانبها.

ولم ينتظر أحدًا أن يسأله.

«أنا نوسم،» قال. «رأس مجلس الحفظة.» وكان صوته يصل إلى آخر الشيوخ، مع أنه لم يرفعه. «وأنا دفعتُ أجر قتل ظميان بن خردش. للخيط الأسود. لأني ظننت أنه إن صالح قلمير، بلغت صوامعها الدلتا. وتحت الدلتا ما لا أقوله هنا.» وسكت. «وكنت مخطئًا في ظميان. وكنت مخطئًا في الطريق. ولست مخطئًا في الدلتا.»

ولم يتكلم أحد.

ثم صرخ رجل من الأوفياء. وقام آخر. وسمعت قيلة سيوفًا تخرج، على اليمين، وعلى اليسار. ورأت الفرسان وراءها يتقدمون، بلا أمر. ورأت خردش يرفع يده.

ووقف الأوفياء.

ونظر خردش إلى نوسم طويلًا. ولم يكن في وجهه غضب. كان فيه ما رأته قيلة في الخيمة السوداء. تعب. وشيء أقرب إلى الحيرة.

«ولماذا جئتَ؟» قال.

«لأن ابنتي سألتْ،» قال نوسم. «وأنا لم أسأل.»

ولم يفهم أحد ما قال. إلا هدران، عند الحجر، الذي أطرق.

ثم أخرجت قيلة الرق الكبير.

ولم تفتحه.

مدته إلى خردش.

«هذا ما كان أبوك سيقوله لهذا المجلس،» قالت. «في الصباح. بخطه. حتى لا يتلعثم. لم أقرأه للناس. ولن أقرأه. هو كلامه. وأنت ابنه.»

ونظر خردش إلى الرق في يدها.

ولم يأخذه مدة طويلة.

ثم أخذه.

وفتحه.

قرأ خردش الرق الكبير بصوت عالٍ.

بدأ بصوت أبيه. عميقًا، هادئًا. أيها الشيوخ. أنا ظميان بن خردش، من بني قيظ، كبير القبائل في سُرْدان. ثم وصل إلى السطر الثالث. ووقف.

ونظر إلى الرق.

ثم قرأه.

«احتكرتُ آبار الشعاب ثلاث عشرة سنة،» قال. وكان صوته لم يتغير. «أنا أول من نقض البند الأول. ومات على طريق الصفاة من مات، وأنا أعرف أسماءهم.»

ولم يقرأ الأسماء أول الأمر. ثم قرأها.

ستة عشر اسمًا.

وكان صوته يتغير، اسمًا بعد اسم. لا يرتفع. يخفض. وحين وصل إلى آخرها، ابن فاقد بن نوقار، أربع سنين، لم يكن صوت أبيه. كان صوته هو. صوت رجل في الأربعين، نحيل، أقسم ألا يظل تحت سقف.

ثم قرأ الباقي.

وأنا أعلن أمامكم أن آبار الشعاب مشتركة كما قال الميثاق، لا تُباع ولا تُعطى بشرط. وأن سُرْدان على الحياد، لا تقاتل ولا تُحكم. وأني كتبت بذلك إلى صاحبة قلمير، على أن توقف صوامعها. فإن قبلت، فهو الصلح. وإن لم تقبل، فقد قلنا الحق، والبئر تشهد.

والبارئ أعلم بمن نقض.

طوى خردش الرق.

ونظر إلى القبائل. ثم إلى اليسار. إلى فاقد.

ومشى إليه.

ورأت قيلة الأوفياء يتحركون، ورأت رجال فاقد يتحركون. ورفع خردش يده مرة أخرى، ولم ينظر إلى أحد منهم. ومشى حتى وقف أمام فاقد.

ووقفا.

ولم يقل أي منهما شيئًا مدة.

ثم قال خردش: «ابنك.»

«ابني.»

«أبي كان يعرف اسمه.»

«كان يعرفه. سألني عنه عند البئر الميتة.»

ونظر خردش إلى الرق في يده. «ولم يكتبه. كتب: ابن فاقد. ما اسمه؟»

ونظر إليه فاقد.

وقالها.

ولم تسمعها قيلة. كانت بعيدة، والريح على السهل. لكنها رأت أخاها يقولها، ورأت فمه المطبق ينفتح، ورأت شيئًا في وجهه يتحرك. ثم رأته يرفع يده السليمة إلى عينيه.

لم يصر الصلح في ذلك اليوم.

صارت هدنة.

أعلنها المجلس في المغرب، بعد أن تكلم الشيوخ واحدًا بعد واحد، ساعات. أربعون يومًا. لا يقاتل فيها أحد أحدًا في سُرْدان. ويُعلن الحياد، كما كتب ظميان. وتُفتح آبار الشعاب. ويُرسل إلى قلمير: إن أوقفت الصوامع عند الثلاث، ولم تبن في الدلتا، فهو الصلح.

وقام الضابط القصير الأحمر الوجه، وقال إنه سيحمل ذلك. وإن الإمبراطورة أوقفت الرابعة. وإنه لا يعرف عن الدلتا شيئًا. وإنه سيسأل.

وقال الأوفياء إنهم لا يثقون بقلمير.

وقال أهل الوحدة إنهم لا يثقون بالأوفياء.

وقال خردش إنه لا يثق بأحد. وإن الهدنة أربعون يومًا. كأربعين أبيه.

ولم يرفع أحد سيفًا.

وأما نوسم، فقد قال للمجلس: «أقف غدًا أمام محكمة الميثاق. هنا. عند الحجر. لا أطلب شيئًا. لا رحمة ولا عدلًا. أطلب أن يُكتب ما قلته اليوم. كله. وأن يُحفظ.»

«وتحت الدلتا؟» قال أحد الشيوخ.

ونظر إليه نوسم.

«يُكتب أيضًا،» قال. «ويُحفظ. في قبو الملح. وتقرؤه قلمير إن شاءت.» ونظر إلى الضابط. «هذا ما لم أفعله عشرين سنة.»

في الليل، رجعت قيلة إلى الحجر المنقوش.

كان الحبل الأخضر عليه، حيث وضعته. لم يأخذه أحد. وكان هفير جالسًا إلى جانبه، يحرسه.

«لم يأخذه أحد،» قال.

«أعرف.»

«الفرسان قالوا: لا نختار قائدة أخرى. قالوا: إن قائدة الفرسان التي تنزع الحبل لتقول الحق، هي القائدة. ولا يعرفون إن كان هذا عرفًا. قالوا: صار عرفًا.»

ونظرت قيلة إلى الحبل.

ثم أخرجت من حزامها حبلًا آخر. الحبل الذي أعاده إليها زعبل. وربطته على معصمها.

وتركت الأول على الحجر.

ثم أخرجت من حزامها شيئًا آخر، ملفوفًا في خرقة.

السهم الذي أعطتها إياه ليرا على البحر. نصله أسود من دم قديم، وعلى خشبه خطان وقوس. وكانت قد حملته عشرين يومًا، من الدلتا إلى إلسوم ثم إلى هنا، ولم تخبر به أحدًا. وكانت في المجلس، حين قام خردش يطلب الحرب، قد وضعت يدها عليه تحت الثوب. ولم تخرجه.

«ما هذا؟» قال هفير.

«أبي.»

ونظر إليه هفير. ثم أشاح بوجهه، كما يشيح الرجل عن جرح لا يقدر عليه.

وسمعت خطوات وراءها. ولم تحتج أن تلتفت. كانت تعرف مشيته الآن. وقف خردش على بعد خطوتين، والحبل الأحمر على معصمه، ونظر إلى السهم في يدها، وإلى العلامة.

«كان معكِ في المجلس،» قال.

«كان معي.»

«ولم تخرجيه.»

«لو أخرجته، لصار ما قلته عن أبيك ثأرًا.» ووضعت السهم على الحجر، إلى جانب الحبل الأخضر. «وأنا قلته شهادة.»

ونظر خردش إلى السهم طويلًا. ثم جلس على الرمل، عند الحجر، كما جلس عند النخلة الميتة أربعين يومًا.

«لا أعرف من رماه،» قال.

«ولا أنا. ولا أريد أن أعرف الليلة.» وجلست على الطرف الآخر من الحجر. «ليرا تقول إنهم أخرجوه من صدره وأعطوه لأمها. ولا تقول لماذا. وهذا سؤال لغير هذه الهدنة.»

ولم يتكلما بعد ذلك. لكنهما جلسا عند الحجر حتى برد الرمل، والسهم والحبل بينهما، ولم يأخذ أحد منهما شيئًا.

وقبل الفجر، حين صار الرمل باردًا كالماء، تحرك خردش.

لم يقم. أدخل يده في ثوبه، وأخرج شيئًا، ووضعه على الحجر، إلى جانب السهم.

خاتم. فضة. وحجر أزرق.

«أعيديه إلى صاحبه،» قال. «في الحافة.»

«لماذا احتفظت به؟»

ونظر إليها خردش.

«لأنكِ لم تلبسيه،» قال. «وأردت أن أعرف لماذا.» وسكت. «ولم أعرف. حتى اليوم.»

ثم قام. ووقف ينظر إلى البئر. إلى الحبل على البكرة. وإلى الماء في قاعها، الذي لا يُرى، ونزل ثلاثة أذرع في سنتين.

«ثلاثة أذرع،» قال.

«ثلاثة أذرع.»

«وقلمير لن توقف الثلاث.» ولم يلتفت. «أعرف ذلك. وأنتِ تعرفين.»

«أعرف.»

«فالحرب لم تنته.»

«لا.»

«الهدنة أربعون يومًا. وبعدها؟»

ولم تجب قيلة.

ونظر خردش إلى البئر مرة أخرى. ثم مشى إلى خيامه، في الظلمة، والحبل الأحمر على معصمه.

وكان بلا سقف.

24. الوجه

جاء الطائر في الليلة التي وقف فيها نوسم أمام المحكمة.

كانت وردة في قاعة النسخ، في الجناح الغربي، حيث يسهر الكتبة إلى الفجر. وكان تيلم معها. جالسًا على الطاولة المقابلة، يقرأ، وقنديله بينهما. وكان قد صار يجلس معها كل ليلة، منذ رحل نوسم. لم يقل لماذا. ولم تسأله. كان يقرأ، ويكتب، ويحك ظفر إبهامه المكسور طرف الدفتر، وينظر إليها من حين إلى حين، كمن يتأكد أن شيئًا ما زال في مكانه.

وجاء الكاتب الشاب بالورقة الصغيرة الملفوفة. وأعطاها لتيلم.

وقرأها تيلم. ثم أعطاها لوردة.

وقف رأس المجلس أمام محكمة الميثاق عند الحجر. اعترف بما قال. حكمت المحكمة أن يُحبس في بئر العهود حتى يحكم المجلس الكامل بعد الهدنة. ولم يعترض. وطلب دفتره.

الهدنة أربعون يومًا.

وقائدة الفرسان نزعت الحبل.

ونظرت وردة إلى السطر الأخير طويلًا.

ثم ابتسمت.

ونظر إليها تيلم.

«تبتسمين،» قال.

«نزعت الحبل.»

«وهذا يضحككِ؟»

«لا. لكني أعرف لماذا نزعته. وأعرف أني أعرف.» وطوت الورقة. «وهذا كثير.»

ولم يقل تيلم شيئًا. لكنها رأته يكتب شيئًا في دفتره. ثم يتوقف. ثم يقول، دون أن يرفع عينيه:

«صوّتُّ مع الخمسة.»

ونظرت إليه وردة.

«في الحلقة. حين قرر رأس المجلس.» ووضع القلم. «لا أعرف إن كان قال لكِ.»

«قرأتُه.»

«قرأتِه.» وأومأ. ثم رفع عينيه إليها. «وأنتِ لا تعرفين وجهه. وتعرفين وجهي.»

«أعرف وجهك.»

«فانظري إليه جيدًا.» ولم يكن في صوته شيء. «لأني أنا من أرسل الرسول. هو أعطاني الأمر، وأنا اخترت الرجل. كان طالبًا عند هدران قبل أن أكون في الحلقة. وكنت أعرف أنه خائف. واخترته لأنه خائف. الخائف لا يسأل.»

ونظرت إليه وردة.

ورأت يده على الدفتر. وكانت ترتجف.

«لماذا تقول لي؟»

«لأنكِ سألتِ،» قال تيلم. «سألتِ رأس المجلس، ولم يسأل هو. فذهب إلى المحكمة. وأنا أريد أن أعرف إن كنت أستطيع أن أفعل ما فعل. ولا أعرف بعد.»

ثم سمعا الجرس.

لم يكن جرس الصلاة، ولا جرس الحريق. كان جرسًا لم تسمعه وردة قط. عميقًا، بطيئًا، يأتي من تحت. من جوف المكتبة. ثلاث ضربات. ثم سكوت. ثم ثلاث.

وقام تيلم.

ورأت وجهه، في ضوء القنديل، يبيضّ.

«القبو،» قال.

ركضا.

في الممرات، والقناديل الصغيرة كل عشر خطوات، والدرج، ثم الدرج. وكان الكتبة يخرجون من الغرف، والحفظة، بأثوابهم البيضاء، ينظرون، ولا يعرفون. وكان الجرس يضرب. ثلاثًا. ثم سكوتًا. ثم ثلاثًا.

ووصلا إلى باب قبو الملح.

وكان الحارس العجوز على الأرض.

لم يكن ميتًا. كان جالسًا، وظهره إلى الجدار، ويده على صدره، ويلهث. وكان حوله ثلاثة من الحرس الشباب. وحين رأى تيلم، رفع يده. وأشار إليه. وكانت إصبعه ترتجف.

«أنت،» قال.

ووقف تيلم.

«أنت،» قال الحارس العجوز. «نزلتَ قبل ساعة. وقلتَ: أمر الحلقة. ولم أسألك. أنت من الحلقة.» ونظر إليه، وعيناه واسعتان. «ثم خرجتَ. وفي يدك شيء ملفوف. وقلتُ: يا تيلم، ما هذا؟ ونظرتَ إليّ. ونظرتَ إليّ. ولم تكن عيناك عينيك.»

ونظر الحرس الشباب إلى تيلم.

ورأت وردة أيديهم تنزل إلى السيوف. السيوف التي جاءت من ألمين، في صناديق مسمرة، والحفظة لا يقاتلون.

«كان معي،» قالت وردة.

ونظر إليها الجميع.

«منذ المغرب،» قالت. «في قاعة النسخ. لم يقم. كان يقرأ. وقرأتُ وجهه كل ساعة.» ونظرت إلى الحارس العجوز. «لم يكن هو.»

«رأيتُه،» قال العجوز. «رأيت وجهه. وثوبه. وظفره.» ونظر إلى يد تيلم. «الظفر المكسور. رأيته على الدفتر.»

«ورأيتُه أنا،» قالت وردة. «في قاعة النسخ. في الساعة نفسها.»

ولم يقل أحد شيئًا.

ثم قال تيلم، بصوت لا يكاد يُسمع: «ختم الوجوه.»

دخلوا القبو.

وكان كما كان. باردًا. جافًا. والجدران من الملح. والنسخة الأم في صندوقها الزجاجي، على قاعدتها، ودم برهد على أطرافها.

لكن الباب الحديدي الصغير في الجدار الشمالي كان مفتوحًا.

ومشى تيلم إليه. ونزل. ولم تتبعه وردة. سمعت خطواته على الدرج الحجري، تنزل، ثم تقف. ثم تنزل. ثم صمت.

ثم رجع.

وكان في يده لا شيء.

«الكوة،» قال. «تحت الشرفة. حيث كان الختم الرابع. فارغة.»

«والسابع؟»

«في مكانه. لا يُنقل.» وسكت. «والطنين...» ونظر إلى الباب الحديدي. «لا أعرف. لا أعرف إن تغير. لم أكن أنزل كثيرًا.»

ووقفت وردة أمام الباب الحديدي.

ونظرت إلى القفل. القفل الذي لا ثقب فيه. الذي يقرأ الأثر، ويعرف من أقسم القسم الداخلي. وقد فُتح. لا بالقوة. لم يكن فيه خدش. فُتح كما يفتحه نوسم، بكف على الحديد.

«أقسم القسم،» قالت وردة. «من فتحه.»

«أو...» قال تيلم، ولم يكمل.

«أو أن القفل يقرأ الوجه أيضًا.» ونظرت إلى يدها. «لا الكف وحده.»

ثم نزعت القفاز الأيمن.

ونظرت إلى القفل. وفكرت في الثمن. في ما بقي فيها ليؤخذ. وجه أمها، الذي عاد. اسم قيلة، الذي كتبته ثلاث مرات. الحرف الأول من كل شيء.

ثم نظرت إلى يدها اليسرى.

الملفوفة. بلا قفاز. والموضع الأملس في وسطها، تحت الخرقة، الذي لا تحس فيه شيئًا. ليس ثمنًا، قالت المرأة الرمادية. ولم تعرف قيلة ما هو. ولا وردة.

وأعادت القفاز إلى يدها اليمنى.

ونزعت الخرقة عن اليسرى.

قال تيلم: «وردة.»

ولم تجب.

وضعت الكف اليسرى على القفل الحديدي. الموضع الأملس في وسطها على الحديد البارد.

ولم تحس البرد.

لم تحس شيئًا. كما في الخيمة على حافة الصومعة، حين وضعتها على الحقيبة. لا الحديد، ولا البرد، ولا الأثر. وكادت ترفعها.

ثم جاء.

لم يأت كما يأتي الأثر.

كان الأثر دائمًا يجذبها. ماءً من عين، أو حبلًا من بئر. وهذا لم يجذبها. كان هناك. كله. معًا. كما يرى المرء الغرفة حين يفتح عينيه، لا شيئًا بعد شيء.

ورأت اليد.

يد على القفل، قبل ساعة. يد رجل، نحيلة، وظفر الإبهام مكسور. يد تيلم. وكانت ترى اليد، وترى في الوقت نفسه أنها ليست يد تيلم. كما يرى المرء الماء وقاعه معًا. كانت يد تيلم على السطح، وتحتها يد أخرى.

وكانت تحتها يد أخرى.

يد نوسم. على القفل نفسه. قبل ذلك بكثير. ألف مرة. لا. لم تكن يد نوسم. كانت يدًا تلبس يد نوسم، كما لبست يد تيلم.

وتحتها يد.

ثم يد.

وكانت الأيدي كثيرة. وجوه كثيرة. طبقات، كالبساط، لكن ليست سنين. كانت أقنعة. وجوه تلبس وجوهًا. وكانت تنزل فيها، بلا ثمن، بلا جذب، كما ينزل المرء درجًا يعرفه.

حتى وصلت إلى اليد الأولى.

كانت اليد على رق.

رق بني، قديم، مطوي نصف طية. وعلى أطرافه دم. طري. أحمر. يسيل.

وكانت وردة تعرف هذا الدم.

لا من الأثر. من نفسها. من الليلة قبل سنة، حين لمست النسخة الأم في صندوقها، بيد عارية، ومرضت أسبوعين. كانت قد نسيت ما رأت. كانت تظن أنها

نسيته. وكان هنا. كاملًا. رجل كبير على الأرض، وفي يديه الرق، ودمه عليه. ويد تمتد إلى الرق، لتأخذه، ثم تتوقف.

وكان في باطن اليد، في وسط الكف، موضع أملس.

بلا خطوط.

ورفعت وردة عينيها عن الأثر إلى صاحب اليد.

لم يكن ذلك ممكنًا. الأثر لا يرفع العين. الأثر يُرى من داخله، من جهة المادة، لا من جهة الإنسان. وكانت ترى من القفل، ومن الرق، ومن الدم. ولم تكن تستطيع أن ترى وجهًا لم تلمسه المادة.

ورأت الوجه.

وكان يتغير.

كان وجه الحارس عند باب الأمين، قبل ألف سنة، بعمامته. ثم كان وجه تيلم. ثم وجه ظميان، طويلًا، بعباءته على كتفيه، يمشي في ليلة البئر من جهة الحجر، بين حارسين يتنحيان له. ثم وجه نوسم. ثم وجه قيلة، بعينيها اللتين لا ترمشان. ثم وجه امرأة عريضة سمراء، على خدها حبر أزرق.

ثم وجه وردة.

ونظر إليها وجهها.

وعرفت الملمس.

لم يكن الوجه. كان ما تحته. الموضع الذي لا شيء فيه، حيث ينبغي أن يكون لابس الوجوه. أملس. مستويًا. كأن الزمن انقطع ثم وُصل.

وكانت قد لمسته من قبل. على بساط أحمر، في خيمة كبير القبائل، في الليلة الحادية والعشرين بعد القتل. وسمّته يومئذ فراغًا، وظنته محوًا. ولم يكن محوًا. كان هذا: وجه يُلبس، فلا يبقى من لابسه في الأثر إلا موضعه.

وفهمت.

ظميان لم يقم عن البساط تلك الليلة. رأت ذلك بيدها. والذي رجع من جهة الحجر، ومر بين الحارسين فتنحيا له، ورأته قيلة من الربوة ولم تعدّه داخلًا، لم يكن ظميان. كان هذا. بوجه ظميان. ثم نادى الحارسين بصوته، من داخل الخيمة، وظميان جالس في الظلمة، ويداه على ركبتيه، يسمع صوته يصرف حارسيه.

ورأت اليد التي لبست وجه ظميان. وعلى معصمها، تحت الوجه، خيط أسود رفيع.

ثم رأته يخرج.

لم يخرج بوجه ظميان. خرج، بعد أن سكت كل شيء في الخيمة، بوجه أحد الحارسين. بعمامته، ورمحه، ومشيته. ومشى إلى النار البعيدة كمن رجع يطلب شيئًا نسيه. ومن رآه في تلك الليلة، إن رآه أحد، رأى حارسًا يمشي إلى النار. والحارس لا يُعدّ. الحارس جزء من الليل، كالبكرة والحجر.

ولم ترَ أكثر من ذلك. لم يكن تحت الخيط وجه. كان الموضع الأملس وحده.

رفعت وردة يدها.

لم تسقط هذه المرة. رفعتها. كما يرفع المرء يده من الماء. وكانت واقفة أمام الباب الحديدي، في قبو الملح، وتيلم وراءها، والحرس، والجرس قد سكت.

ونظرت إلى كفها اليسرى.

وكان الموضع الأملس كما كان. أملس. لا يحس.

وبحثت عن الثمن.

كما تبحث كل مرة. ومرت على الأشياء. اسمها: وردة. أمها: الوجه العريض، والحبر على الخد، والابتسامة. قيلة. هدران. البئر. الخلاء. المدينة في الزجاج. الكلمة التي لا تقال. أمنوثار. ستمارا. الصومعة. الحقيبة. البرج. الدرجات. مئتان وسبع عشرة. الصندوق. الاعتراف. الدائرة الزرقاء في القاع.

ومرت عليها مرة أخرى.

ومرة ثالثة.

ثم أخرجت الدفتر الصغير من حزامها، وفتحته على صفحة الضائعات. وكانت الصفحة مملوءة. اليوم الذي عرفتُ فيه قيلة. لماذا خفتُ حين ارتجفت يد نوسم. لون الضوء في المكتبة. وجه نوسم.

وأخذت القلم.

وكتبت تحتها، بخط ثابت، لا يرتجف:

لا شيء.

ونظرت إليها كلمتان على الورق، طويلًا.

ثم كتبت، في السطر الذي بعده، بخط أصغر:

الموضع الأملس يقرأ ولا يأخذ. ورأيتُ به اليد التي في دم برهد. وفي كفها الموضع نفسه.

والذي دخل على ظميان لبس وجهه، وخرج بوجه حارسه، وعلى معصمه الخيط الأسود.

ورأيتُ وجهي.

لا أعرف ما هذا.

صعدت إلى البرج قبل الفجر.

لم يكن فيه أحد. كان الباب مفتوحًا كما تركه نوسم يوم رحل، والدفاتر على الرفوف، والطاولة الكبيرة عند الجدار، وتحتها صندوق الملح، مغلقًا. ولم تعدّ الدرجات. كانت تعرف أنها مئتان وسبع عشرة، وكان ذلك يكفي.

وكانت النبتة عند النافذة قد ذبلت قليلًا. ورقتاها مائلتان، والتراب في الإناء الأبيض جاف.

وأخذت الكوب الصغير، وملأته من الجرة، وسقتها. قطرة قطرة. كما كان يفعل. ولم تعرف لماذا تفعل ذلك. لم تكن تحب الرجل الذي لا تعرف وجهه، ولم تكن تكرهه. لكن النبتة لم تفعل شيئًا.

ثم جلست على كرسيها، الذي تجلس عليه دائمًا، أمام الكرسي الفارغ. وأخرجت حجر الملح من الكيس، ووضعته على الطاولة بينهما. ونظرت إليه في ضوء الفجر الأول.

ثم أخذت ورقة من أوراقه، وقلمًا، وكتبت إلى قيلة. بخط ثابت. لم تكتب فيه: لا أحس. ولم تكتب: لا أعرف.

عرفتُ كيف دخل على ظميان، يا قيلة. لم يدخل. رجع. ورأيتِهِ أنتِ ترجعينه، ولم تعديه، كما لم يعدّه الحارسان. فلا تحملي هذا أيضًا. لم تري القاتل

يدخل، لأنكِ رأيتِ ظميان.

ولا أعرف من هو. ولكني أعرف ملمسه الآن. وهذا أكثر مما يعرفه أحد.

احرسي البئر. وأنا أحرس هنا.

وطوت الورقة. ولم تمزقها.

وفي الخارج، فوق القبو، فوق المكتبة، فوق الجزيرة كلها، كان الليل.

وفي الشرق، وراء الخلاء، كانت ثلاث صوامع تطن.

وفي الجنوب، في البحر، بين الجزر الصخرية، كانت حيتان تمر بلا صوت.

وفي بئر العهود، في سُرْدان، كان شيخ في الحبس يكتب في دفتره، ولا يمزق شيئًا. وكانت امرأة جالسة عند الحجر المنقوش، وعلى معصمها حبل أخضر، وعلى الحجر حبل آخر. وكان رجل بحبل أحمر يمشي بين خيامه، بلا سقف.

وكانت الهدنة في يومها الأول.

ولم يكن أحد، في تلك الليلة، يعرف أين الختم الرابع.

ولا من يحمله.

ولا بأي وجه.

تمت «حبر أزرق».

أسماء وأماكن

للقارئ الذي يريد أن يتذكر من هو هذا، وأين ذاك. لا يكشف شيئًا من أسرار الرواية.

الناس

- **قَيْلَة بنت نُوقار:** قائدة فرسان البئر.
- **وِرْدَة:** مبصرة شابة من حفظة إلسوم.
- **ظَمْيان بن خَرْدَش:** كبير القبائل في سُرْدان. كان أبوه اسمه خردش، فسمّى ابنه باسمه.
- **خَرْدَش بن ظَمْيان:** ابنه، وقائد الأوفياء. يحمل اسم جده.
- **فَاقِد بن نُوقار:** أخو قيلة، وزعيم أهل الوحدة.
- **نُوقار:** أبو قيلة وفاقد، وكان فارسًا.
- **نَوْسَم الكَتّاب:** رأس مجلس الحفظة في إلسوم.

- **تَيْلَم الناسخ:** حافظ، ورأس بعثة الحفظة إلى بئر العهود.
- **هَدْرَان الأعمى:** مبصر قديم، ودليل الخلاء.
- **هُفَيْر:** أكبر فرسان البئر سنًّا.
- **زَعْبَل:** فارس شاب من الحلقة الشمالية.
- **سِتْمارا الثالثة:** إمبراطورة قلمير.
- **أَمْنُوثَار:** المستنطق الأعظم في قلمير.
- **نِيسَا، وهِرْمار، وتُوثِّيس:** زوجة أمنوثار وابناه.
- **لِيرَا من أُوسِين:** ربّانة من ألمين.
- **بَرْهَد الحليم:** الأمين الرابع للمكتبة، في الزمن القديم.

الجماعات

- **فرسان البئر:** حرس الميثاق عند بئر العهود. عباءاتهم رمادية، وحبالهم خضراء.
- **الأوفياء:** قبائل حلف ظميان، التي أقسمت مع خردش بعد مقتل أبيه.
- **أهل الوحدة:** القبائل التي تميل إلى قلمير.
- **بنو قَيْظ:** قبيلة ظميان وخردش، من قبائل سُرْدان.
- **الحَفَظة:** علماء المكتبة في إلسوم. ثيابهم بيضاء، وأصابعهم زرقاء من الحبر.
- **المستنطقون:** سحرة قلمير.
- **رابطة القوافل:** تجار قيظان.
- **الخيط الأسود:** اسم يتهامس به الناس.

الأماكن

- **دَيْمار:** العالم كله.
- **سُرْدان:** أرض القبائل.
- **بئر العهود:** البئر التي عُقد عندها الميثاق.
- **بئر الغُرَيْن:** بئر ميتة بين السهل والوادي.
- **آبار الشِّعاب:** آبار يحتكرها بنو قيظ.
- **قَيْظَان:** مدينة سوق القوافل.
- **خلاء أُوثْمار:** صحراء الملح البيضاء في قلب العالم.
- **بحر الزجاج:** أرض من الزجاج في الخلاء.
- **إِرْوَاث:** مدينة قديمة بائدة.
- **قَلْمِير:** الإمبراطورية الشرقية.
- **سِتْمار الكبرى:** عاصمة قلمير.
- **زَهْراد:** نهر قلمير.
- **إِلْسُوم:** مدينة المكتبة، في الدلتا.
- **قبو الملح:** تحت مكتبة إلسوم.
- **حي الصبّاغين:** حي أحواض النيلة في إلسوم.
- **أُلْمِين:** بلاد البحر الغربي.

كلمات

- **الميثاق:** العهد القديم بين القبائل، ومنه يبدأ التاريخ.
- **لسان الميثاق:** اللسان المشترك.
- **الأثر:** ما تحفظه الأشياء مما جرى عليها.
- **الإبصار:** قراءة الأثر باللمس.
- **المبصر:** من يقرأ الأثر.
- **الاستنطاق:** الأخذ من الأثر.
- **الصوامع:** أبراج قلمير العالية.
- **الشَّغَادِر:** النائمون تحت الرمل، ومفردها شَغْدَر.
- **النُّوثار:** أمة بائدة، بنت الأعمدة.
- **البارئ:** ما يسمّي به المؤمنون الخالق.
- **يوم السوق:** يوم في كل أسبوع.